ناصــر ٦٧

شهـادة إسرائيلية

تأليف
د. نبيل راغب

مكتبة مدبولى
١٩٩٦

ناصـــــــــر ٦٧

شهــــادة إسرائيليــة

الكتاب: ناصر ٦٧ ـ شهادة إسرائيلية
الكاتب: الدكتور نبيل راغب
الطبعة: الأولى ديسمبر ١٩٩٦
الناشر: مكتبة مدبولى، ٦ميدان طلعت حرب
القاهرة ت ٥٧٥٦٤٢١، ٥٧٥٢٨٥٤
لوحة الغلاف: هشام مصطفى
الجمع التصويرى: سندباد ت٢٨٠٠١٥٠ د. محمد فتحى

فصول الدراسة

إهداء

إلى روح جمال عبد الناصر، الشهاب الذى توهج فى سماء الوطن العربى فأنار دروبه. وكان لابد - مثل أى شهاب آخر - أن يحترق بعد أن اخترق غلاف الهزيمة والانكسار ليسترد بالقوة ماأخذ بالقوة.

إلى روح شهداء حرب الاستنزاف وأبطالها الذين كتبوا بدمائهم الطاهرة وبطولاتهم الفذة أروع صفحات تاريخنا المعاصر . .

أهدى هذه الشهادة لملحمتهم الخالدة.

نبيل



فى ١٩ فبراير ١٩٧٠ نشرت صحيفة "لوموند" الفرنسية نصاً لمقابلة أجرتها مع الرئيس جمال عبد الناصر قال فيها:

> **"لم يكن فى نيتى أبداً أن أشن حرباً ضد اسرائيل عام ١٩٦٧، والقادة الاسرائيليون يعرفون ذلك جيداً. لم يكن فى نيتى إغلاق خليج العقبة فى وجه السفن، فأنا لم أطلب من السيد يوثانت أن يسحب قوات الأمم المتحدة من غزة وشرم الشيخ المشرف على مدخل الخليج، لكننى طلبت إغلاق مجرد جزء من الحدود الممتدة من رفح إلى إيلات، إلا أن أمين الأمم المتحدة قرر بناء على نصيحة موظف أمريكى كبير، سحب جميع قوات الطوارئ الدولية، ليضعنى فى موقف المجبر على إرسال قوات إلى شرم الشيخ وفرض الحصار. وهكذا وقعنا فى الفخ الذى نصب لنا".**

هذا الفخ الذى تكلم عنه عبد الناصر، كان مجرد حلقة فى سلسلة طويلة من الفخاخ التى نصبت له منذ توليه مسئولية الحكم فى مصر فى منتصف الخمسينيات. وهى فخاخ تنوعت وتعددت من مؤامرات الاغتيال التقليدى باطلاق الرصاص أو دس السم أو وضع المتفجرات فى أى مكان يمكن أن يتواجد فيه: السيارة أو الطائرة أو السرادق، إلى مؤامرات الحصار السياسى لعزله وخنقه من خلال تصفية نفوذه وثقله وقدرته الفائقة على التأثير سواء داخل بلده أو وطنه العربى أو دول عدم الانحياز أو دول العالم الثالث، بل إن الكاريزما العجيبة التى كان يتمتع بها استطاعت أن تؤثر فى بعض قطاعات المثقفين فى دول الغرب نفسه.

هذه الكاريزما العجيبة كانت مصدر قلق متجدد لكل القوى الامبريالية والاحتكارات الاقتصادية العالمية بكل ضغوطها السياسية والعسكرية. فليس

الأمر قاصراً على اسرائيل وصراعها مع العرب، إذ أن دورها لم يزد فى المنطقة على دور رأس الحربة المسمومة، أما جسم الحربة نفسه فيمتد عبر أسواق الأوراق المالية، وترسانات السلاح، ودهاليز المخابرات، ومؤتمرات الدبلوماسيين، وعصابات المافيا، ومصالح وصراعات وتيارات لاحصر لها. وكان على عبد الناصر أن يواجه هذا الطوفان الجارف سواء فى صوره العلنية الواضحة أو صوره السرية الخفية. واستمرت هذه المواجهة منذ منتصف الخمسينيات، مما يدل على يقظة عبد الناصر التى استطاع بها أن يتجاوز هذه السلسلة من المؤامرات التى لم تنقطع والتى كان هدفاً متحركاً بالنسبة لها، لابد من إصابته بطريقة أو بأخرى.

وجاءت حرب يونيو ١٩٦٧ بمثابة الفخ الكبير ذى الأبعاد والأعماق المتعددة التى إذا نجح عبد الناصر فى تجاوز بعد أو عمق فيه، فإنه لن يستطيع تجاوز الأبعاد والأعماق الأخرى، كالدور الذى لعبه رالف بانش مساعد يوثانت عندما نصحه بسحب جميع قوات حفظ السلام فى سيناء ليضع عبد الناصر فى مأزق يصعب تجاوزه. وكانت نصيحة هذا الموظف الأمريكى الكبير ذى الخبرة الطويلة فى دهاليز الأمم المتحدة هى مجرد ومضة فى رأس جبل الجليد العائم تحت أمواج محيط السياسة الدولية والذى كان يقترب رويداً رويداً للاصطدام بالسفينة العربية التى طالما أبحرت بقيادة ربانها عبد الناصر وسط أعاصير ودوامات لاتهدأ، لكن الاعصار الأخير كان من العنف والضراوة بحيث قصد به تحطيم السفينة كلها وليس مجرد القضاء على ربانها.

ولو كان الأمر قاصراً على العوامل الدولية الخارجية لربما كان فى امكان عبد الناصر مواجهتها وتجاوزها، وهو الذى اعتاد التعامل معها بحنكته السياسية منذ أن تولى المسئولية، لكن تصادف وجود عوامل محلية داخلية، ظلت تتراكم منذ حرب ١٩٥٦ إلى أن تفاقمت فى وقت كانت فيه العوامل الدولية الخارجية فى طريقها لبلوغ الذروة. ولذلك كانت المرة الأولى - والأخيرة - التى حارب فيها عبد الناصر معركته فى وضع لايحسد عليه. كان

العدو أمامه والبحر خلفه. ولم يدرك أبعاد هذه المأساة إلا مع الساعات الأولى من اندلاع القتال صباح الاثنين الخامس من يونيو ١٩٦٧. لكن العجلة القدرية كانت قد دارت وأصبح من المستحيل ايقافها فضلاً عن ارجاعها إلى الوراء ولو للحظة واحدة.

ولعل الصدمة التى أصابت الشعب العربى نتيجة للنكسة، أن عبد الناصر كان دائماً فى نظره بمثابة "السوبرمان" الذى يأتى بالأعاجيب التى تذهل الأعداء قبل الأصدقاء، ويقود أمته من تحد إلى آخر، بحيث وضعها على خريطة العالم المعاصر بل وفى قلبه، مما أكسبها ثقلاً وتأثيراً لم تحصل على مثلهما من قبل. ونسى الشعب العربى أن عبد الناصر بشر. فهو زعيم أو قائد مثل كل الزعماء والقادة الذين يتخذون قراراتهم المصيرية بناء على التقارير الواردة إليهم. وهذه التقارير يكتبها بشر أيضاً قد يفتقرون إلى الموضوعية أو الرؤية الشاملة أو النية الخالصة نتيجة لاعتبارات عديدة، ولذلك فإن نسبة الصواب أو الخطأ فى اتخاذ القرار تتحدد طبقاً للإطار الزمنى والظروف والملابسات المحيطة بها. وقد لعبت العوامل المحلية الداخلية دوراً سلبياً فى التأثير على هذه التقارير. وليس فى استطاعة القائد أن يلم بنفسه بكل كبيرة وصغيرة فى مجريات الأمور مما يؤكد التأثير الذى يمارسه المستشارون والمساعدون والمحيطون بالقائد، على قراره، سواء أكان تأثيراً سلبياً أم إيجابياً، ومهما كان يتمتع بفكر ثاقب، وجاذبية طاغية، ونظرة استراتيجية، وثقافة شاملة، وخبرة عميقة، وكاريزما لاتقاوم.

ولنبدأ بتحليل العوامل الدولية الخارجية التى تحالفت فى نصب الفخ الذى وقع فيه عبد الناصر ثم ننتقل إلى العوامل المحلية الداخلية، وذلك لنجيب على تساؤل حير كثيرين على مدى مايزيد على ربع قرن وهو: هل كان من الممكن تجنب نكسة يونيو ١٩٦٧ وعدم الوقوع فى الفخ الذى نصب لنا والذى مازلنا نعانى من تداعياته حتى الآن ؟

بدأت خيوط الفخ فى الاتضاح عندما كلف المشير عبد الحكيم عامر

الفريق أول محمد فوزى رئيس الأركان فى ١٤ مايو ١٩٦٧ بالسفر إلى دمشق فى مهمة للتحقيق ومعرفة مدى صحة المعلومات التى وصلت من الاتحاد السوفيتى ودول أخرى، عن الحشد العسكرى الإسرائيلى على حدود سوريا. يقول محمد فوزى فى كتابه أو مذكراته "حرب الثلاث سنوات: ١٩٦٧ - ١٩٧٠":

> **"سافرت فعلاً إلى دمشق فى اليوم نفسه، ومكثت ٢٤ ساعة تفقدت فيها قيادة جبهة سوريا، كما سألت المسئولين العسكريين فى قيادة الأركان والجبهة، عن صحة المعلومات الخاصة بحشد القوات الاسرائيلية على الحدود السورية. وكانت النتيجة أننى لم أحصل على أى دليل مادى يؤكد صحة المعلومات بل العكس كان صحيحاً، إذ أننى شاهدت صوراً فوتوغرافية جوية عن الجبهة الاسرائيلية، التقطت بمعرفة الاستطلاع السورى يوم ١٢، ١٩٦٧/٥/١٣، فلم ألاحظ أى تغير للموقف العسكرى العادى".**

ولم يقم المشير عبد الحكيم عامر بنقل هذا التقرير إلى الرئيس جمال عبدالناصر، كما أنه لم يكن فى استطاعة الفريق محمد فوزى أن يتجاوز عبد الحكيم عامر ويقدم تقريره إلى عبد الناصر، خاصة وأن عامر كان يرى فى القوات المسلحة دائرة مغلقة عليه شخصياً، لايخرج منها أو يدخل فيها أى مسئول إلا باذن منه، ولذلك كان هو حلقة الاتصال الوحيدة بين القوات المسلحة وعبد الناصر. ومن الواضح أن عامر لم يأخذ تقرير فوزى باهتمام مناسب لوقوعه تحت تأثير التهديدات الاسرائيلية التى كان رئيس الوزراء الاسرائيلى ليفى أشكول يكررها ضد سوريا، وأعلنها صريحة أن الجيش

الاسرائيلى ينوى التقدم لاحتلال دمشق لإسقاط الحكم هناك، وذلك بالاضافة إلى حملة استفزازية قامت بها بعض الدول العربية ضد وجود قوات الطوارئ الدولية التى تمس السيادة المصرية، وقد آن الأوان لتتخلص مصر من الاحتماء بهذه القوات، وكأن هذه الدول مهمومة بالسيادة المصرية أكثر من مصر نفسها.

ويرى موشيه دايان فى مذكراته أن الخطوة الأرلى نحو حرب يونيو، كانت قد بدأت قبل ثمانية أشهر. ففى ١٢ نوفمبر ١٩٦٦، انفجر لغم تحت سيارة دورية اسرائيلية جنوبى جبل حبرون، على الحدود مع الأردن، فقتل ثلاثة جنود اسرائيليين، وجرح ستة. وفى اليوم التالى، دخلت وحدة اسرائيلية إلى قرية السموع على سفوح جبال الخليل التى رابط عندها الفدائيون، فنسفت عشرة بيوت، وفى أثناء العملية، اسقطت طائرة ميراج اسرائيلية طائرة هوكر هانتر أردنية. وقد خسر الأردن أيضاً ٢٠ قتيلاً (١٤ عسكرياً، و ٦ مدنيين) و٣٥ جريحاً. وراح الاعلام الأردنى يلمح إلى تراجع عبد الناصر الذى لم يف بوعده لمساعدة الدول العربية التى تهاجمها اسرائيل. ويتهم الجيش المصرى بالاختباء وراء قوات الطوارئ، وبتأمين حرية الملاحة لاسرائيل.

وحاول ليفى أشكول أن يمتص صدمة هذه العملية العسكرية منعاً لتفاقم الموقف وتفجره، فأعرب بعد عملية "السموع" عن أمله فى أن تكون هذه العملية الأخيرة من نوعها، وأكد أن العمليات الانتقامية ليست جزءاً من سياسته، لكنه كان يعلم أن أفضل أمل لاسرائيل للحصول على ما تحتاج إليه من المساعدات الغربية لمعالجة متاعبها الاقتصادية هو أن تكون قادرة على إظهار أن "قلعة الديمقراطية الغربية" التى تمثلها تتعرض للحصار من جديد، فإذا أمكن، وهو أمر مؤكد تقريباً، الاعتماد على العرب فى الرد بالتهديدات العدائية المطلوبة فإن غارة انتقامية على الأقل من حين لآخر يمكن أن تفيد اسرائيل بزيادة حدة التوتر على حدودها.

لكن الجيش الاسرائيلي وأنصاره المتطرفين كانوا غير راضين، لأن هدفهم الكبير لم يكن معاقبة سوريا والأردن بقدر ما كان السعي الدؤوب للقضاء على عبد الناصر. وطالما أنه يتمتع بحماية قوات الطوارئ الدولية فلا يمكن دفعه إلى خوض معركة، ولما كان تحذير بن جوريون ماثلاً في أذهانهم بصفة دائمة - وهو التحذير الذى أعلنه فى أعقاب حرب ١٩٥٦ بأن الخطر الحقيقى يكمن فى شخص عبد الناصر بصفة محددة - فقد صمموا على استدراجه للخروج من وراء الستار الواقى الذى يحتمى به وتحطيم صورته كزعيم للعرب مرة وإلى الأبد. وكانت اتفاقية الدفاع المشترك التى وقعتها الحكومتان المصرية والسورية فى ٤ نوفمبر ١٩٦٦، والتى تنص على أن العدوان على أى من الدولتين يعتبر اعتداء على الدولة الأخرى، بمثابة الحل المنشود لهذه المشكلة. ومن ثم ادعى الجيش الاسرائيلي بعد الغارة التى قام بها على قرية السموع أنه لم يكن يقصد معاقبة الأردن وإنما كان الهدف تدمير قرية أصبحت قاعدة للمخربين السوريين الذين يعملون من وراء خطوطهم.

لكن عبد الناصر لم تنطل عليه الحيلة ولم يقع فى الفخ الذى نصب له. وبعد ذلك فشلت سلسلة أخرى من الغارات البسيطة عبر الحدود السورية والأردنية فى أوائل عام ١٩٦٧ بهدف الاستمرار فى نصب الفخ وتوسيع رقعته، لكنها لم تثر سوى احتجاجات صاخبة من جانب القاهرة مما أثار حنق الصقور الاسرائيلية التى صعدت من ضغوطها على ليفى أشكول الذى اضطر أخيراً إلى السماح بتوجيه ضربة كبرى ضد سوريا بعد فشل الضربات الصغيرة السابقة. وفى منتصف ابريل بدأت حملة اعلامية اسرائيلية تنذر العرب بضربات قاصمة، خاصة وأن اسرائيل يمكنها دائماً الاعتماد على تأييد الأمريكيين الذين ترابط قطع أسطولهم السادس فى مواجهة السواحل السورية والمصرية، ثم قامت الطائرات الاسرائيلية بهجوم، بدعوى الانتقام من عمل تخريبى ارتكبته مجموعة من الفدائيين التابعين لمنظمة فتح. وعندما انتهت هذه الغارة الجوية الانتقامية كانت المقاتلات الاسرائيلية قد أسقطت ما لا يقل عن

ست طائرات ميج سورية بعد مطاردة بلغت فيها دمشق ذاتها.

هذه الجرأة التى تصرفت بها اسرائيل أثارت قلق عبد الناصر الذى بدأ يؤمن أن المسألة ليست مجرد مناوشات على الحدود واختبارات للقوة والتحدى، وأن التفاعلات الجارية لم تعد إقليمية، بل تتحرك بأصابع خفية وخبيثة من خارج المنطقة العربية، بطريقةمتصاعدة تدل على أن هناك هدفاً استراتيجياً كبيراً لابد من تحقيقه. وعندما يصبح هذا الهدف كبيراً، فلابد أن يكون عبد الناصر فى قلبه. وقد تأكد هذا الاعتقاد بعد نجاح المخابرات المركزية الأمريكية فى تنفيذ انقلاب عسكرى فاشى فى اليونان يوم ٢١ ابريل ١٩٦٧، وذلك بعد بضعة أيام من الهجوم الأخير على حليفته سوريا، وأقيمت فى اليونان ديكتاتورية يمينية، رسخت فى ذهن عبد الناصر أن التصعيد مستمر للهجمة الامبريالية فى الشرق الأوسط بحيث تنضم اليونان إلى تركيا لتصبحا قاعدة خلفية فى حين تقوم اسرائيل بدور المقدمة أو الطليعة لتحويل سوريا إلى دولة تدور فى فلك أمريكا كالأردن تماماً. وبهذا تعزل مصر وترغم زعيمها على الاستسلام، مما أكد أسوأ شكوك عبد الناصر.

واستمر نصب الفخ على مستويات وجبهات عديدة: عسكرية وسياسية واعلامية ونفسية. واشتركت وكالات الأنباء الأمريكية فى توصيل هذه الرسالة بكل الوسائل والسبل. فمثلاً أذاعت وكالة الأسوشيتد برس بعد ثلاثة أسابيع من الضربة الجوية الاسرائيلية ضد سوريا تقريراً لضابط اسرائيلى كبير يهدد فيه باحتلال دمشق عسكرياً لوضع حد للتخريب الذى يقوم به السوريون والفلسطينيون داخل اسرائيل، وفى حين صعد هذا التقرير من درجة الغليان فى المنطقة العربية، فإن الجنرال اسحق رابين رئيس أركان الحرب المتشدد ألقى بثقله أيضاً وأدلى بتصريح أكد فيه على ضرورة الإطاحة بحكومة سوريا حتى يمكن ضمان أمن اسرائيل أو أية دولة أخرى فى المنطقة. وهى كلها تصريحات مرسومة ومخطط لها لأن حكومة سوريا لم تكن تشكل أى تهديد سواء لأمن اسرائيل أو أمن أية دولة أخرى فى المنطقة.

كان الهدف ضرب مصر عن طريق سوريا، ذلك أن تركيز كل هذه التهديدات ضد سوريا ينطوى إلى حد كبير على أكثر من مغزى، خاصة وأنه لم تمض بضعة شهور على تعهد مصر بضمان أمنها. ومن المؤكد أن السوريين كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم على وشك التعرض للغزو، ولذلك فإنه عقب الهجوم الجوى الاسرائيلى فى ابريل، وقبل أن يوجه رابين تهديده بالإطاحة بالنظام القائم فى دمشق بأيام، طلب نور الدين الأتاسى رئيس الجمهورية السورية من القاهرة القيام بأية حركة أو مناورة عملية تدل على التأييد العسكرى. وبرغم تمسك عبد الناصر بحرصه، واعتماده على حساباته الدقيقة، ومحاولته أن يكسب وقتاً بطلب مزيد من المعلومات، فإنه كان متأكداً بعد صدور تصريح رابين من أنه سوف يضطر إن عاجلاً أو آجلاً إلى القيام بحركة لتحويل الأنظار إلى حدوده فى سيناء، ولو لمجرد منع السوريين من الإقدام على عمل متهور من جانبهم، خاصة وأنه لم تكن هناك فى سوريا قوات مصرية تستطيع أن تمسك بزمام الأمور.

وسواء أكانت اسرائيل على وشك القيام بغزو شامل لسوريا أم لا، فإن هيبة مصر لا تسمح لها إلى أجل غير مسمى أن تكون موضع سخرية العالم العربى لأنها تختبئ وراء قوات الطوارئ الدولية فى حين تقوم اسرائيل بقتل حلفائها دون رادع. وكان عبد الناصر يؤمن أنه اذا فقدت مصر مصداقيتها فى الوطن العربى، فإنها بذلك تعزل نفسها، وتفقد مركز ثقلها الذى تتعامل به مع العالم الخارجى. ولمدة خمسة شهور بعد حادثة ضرب السموع، لم يتوقف الاعلام الأردنى عن مهاجمة التخاذل المصرى، وشنت الصحافة الأردنية حملة شعواء على عبد الناصر لأنه يحارب أشقاءه العرب فى اليمن فى الوقت الذى لايرفع فيه اصبعاً واحداً دفاعاً عن أرواح العرب ضد اعتداءات اسرائيل الفاضحة والمتكررة.

ويقول أنتونى ناتنج فى كتابه الضخم الرائع "ناصر" إنه كان من المحتمل فى واقع الأمر، أن الاسرائيليين فى ذلك الوقت كانوا يخططون لعملية على

غرار غارة غزة فى عام ١٩٥٥ أكثر منه لغزو شامل لسوريا. ولاشك أن عبد الناصر كان مدركاً لهذا الاحتمال لأن مثل هذا الغزو لايمكن أن يوضع فى الاعتبار بهذه البساطة والسهولة. فقد كان أهم هدف بالنسبة لهم هو جر عبد الناصر إلى الدخول فى معركة، وكان عمق وأمد الهجوم على الأراضى السورية يتوقف على المدة الزمنية اللازمة لحدوث التداعيات المصرية المطلوبة. وتحقيقاً لهذا الهدف شرعوا، فيما يبدو، عن عمد فى اقناع السوڤييت ومن ثم المصريين بأن هجوماً ضخماً يوشك أن يقع على سوريا، وباستخدام بعض طرق المخابرات الخبيثة التى تعمل على تسريب محسوب للأنباء التى يمكن أن تستفيد منها السفارة السوڤيتية فى تل أبيب، وكذلك إذاعة رسائل لاسلكية مزيفة يمكن التقاطها ونقلها إلى القاهرة بواسطة سفن الأسطول السوڤيتى التى تجوب شرق البحر المتوسط، تأكدوا من أنه سيتم على الفور إبلاغ عبد الناصر بأن حلفاءه السوريين على وشك أن يتعرضوا للغزو. هذا فى الوقت الذى حرص فيه الاسرائيليون على عدم المبالغة فى الدور الذى يعتزمون القيام به بحشد القوات على حدود سوريا، بل وتوجيه الدعوة فيما بعد إلى السفارة الروسية لتفقد الحدود، وبذلك استطاعوا الإيحاء بأنهم يجهزون تشكيلاتهم المدرعة للعمل العسكرى، باستبعادها بصورة واضحة من العرض العسكرى الذى أقيم بمناسبة عيد قيام دولة اسرائيل بمدينة القدس أو عيد الاستقلال كما يسمونه فى ١٥ مايو.

وقد شارك السوفييت - دون قصد منهم - فى انجاح الخطة الاسرائيلية. فقد استبد بهم الخوف على أمن حلفائهم السوريين نتيجة للمعلومات التى التقطتها سفارتهم ودورياتهم البحرية إلى القاهرة والتى نقلوها على الفور إلى عبد الناصر. وبذلك صب السوفييت، من ناحيتهم، الزيت على النار، على حد قول موشيه دايان. ففى ١٢ مايو ١٩٦٧، أبلغ ملحق مخابراتى بالسفارة السوفييتية فى القاهرة، المخابرات المصرية تأكيداً للحشود الاسرائيلية على الحدود السورية. وفى اليوم التالى، ردد الرئيس السوفييتى، بادجورني

الاتهام فى لقاء له مع أنور السادات الذى كان يزور موسكو بصفته رئيساً لمجلس الأمة، وأضاف بادجورنى أن نيةاسرائيل هى غزو سوريا، وأن الاتحاد السوفييتى لابد أن يساعد مصر وسوريا فى حالة اشتراكهما سوياً فى حرب مع اسرائيل، وأن على مصر أن تستعد لحل من هذا النوع، إذ قال بالحرف الواحد: "عليكم ألا تذهبوا ضحية المفاجأة، فالأيام القادمة ستكون حاسمة" والموضوع نفسه أثاره أندريه جروميكو وزير الخارجية السوفييتية مع أنور السادات فى نفس الزيارة، مضيفاً أن التقارير لديه تفيد بأن اسرائيل ستهاجم سوريا ما بين ١٦ و٢٢ مايو. وتمادت اسرائيل فى خداعها، فأعلنت أنها لأسباب اقتصادية، لن تقيم فى مناسبة عيد اسرائيل فى ١٥ مايو، إلا عرضاً عسكرياً متواضعاً، فاعتبر السوريون والسوفييت هذا الإعلان دليلاً جديداً على الاعداد لغزو سوريا.

وأسرع السادات ليبلغ بدوره عبد الناصر بما سمعه فى موسكو، بحيث لم يعد هناك مفر من الاقتراب من الفخ المنصوب، ففى يوم الأحد ١٤ مايو، قرر عبد الناصر أن يقوم بعملية لجس النبض فأرسل إلى سيناء فرقتين إضافيتين. وفى الحال اعتبرت اسرائيل هذه المبادرة، أول عمل عسكرى مكشوف وصريح قامت به مصر، واتخذت منه ذريعة لفتح الطريق أمام تلك السلسلة من الخطوات والأعمال التي قادت إلى حرب يونيو ٦٧. وكان محمد حسنين هيكل قد فسر تحرك عبد الناصر بأنه أراد أن يثبت لسوريا، استعداد مصر للوقوف إلى جانبها، واجبار اسرائيل علي نقل جزء من قواتها من الحدود السورية للرد على التهديد المصرى.

وفى أعقاب حرب يونيو ٦٧، تكشفت الأبعاد الحقيقية للفخ الذى شرعوا فى نصبه فى أعقاب حرب ١٩٥٦، أى منذ حوالي عشر سنوات، حين خططت اسرائيل لاستعادة كل، بل وأكثر، مما اضطرت إلى التخلى عنه فى عام ١٩٥٦. وقد ذكر قائد سلاح الطيران الاسرائيلى عقب يونيو ٦٧ أنه قد سبق الهجوم الذى شنته اسرائيل على مصر وحلفائها فى عام ١٩٦٧ أكثر من

عشر سنوات من التخطيط. وطوال السنوات العشر كان من بديهيات التفكير الاسرائيلي أنه لابد من القضاء على عبد الناصر أو على الأقل إذلاله بصورة لايأمل معها في استعادة مكانته كزعيم للعرب، وهى نصيحة بن جوريون التاريخية التى أدلى بها بعد حرب ١٩٥٦ والتى اعتبرها القادة الاسرائيليون شعاراً لهم لايمكن أن يحيدوا عنه. وتحول الشعار إلى خطة استراتيجية طويلة المدى نحو هدف أو فخ محدد، واصل عبد الناصر الاقتراب منه بطلبه سحب قوات الطوارئ الدولية من الحدود المصرية - الاسرائيلية، أى الحدود الممتدة من غزة إلى إيلات، باستثناء شرم الشيخ وقطاع غزة، غير أن الأمين العام للأمم المتحدة، يوثانت، رفض - بناء على نصيحة رالف بانش - ابقاء أية قوات دولية سواء فى شرم الشيخ أو غزة. وأصدر وحده قرار سحب قوات الطوارئ الدولية يوم ١٩٦٧/٥/١٧، ثم تحمل بعد ذلك كثيراً من اللوم من مجلس الأمن، حينما أحاطه علماً بقراره. وهذا يدل على أنه لم تكن فى نية عبد الناصر اغلاق الخليج. ويؤكد الفريق محمد فوزي هذا التفسير بدليل أن التخطيط العسكرى، وتجهيز القوات، وقرار تمركزها والواجبات التى كلفت بها، لم تذكر شرم الشيخ علي الإطلاق. وبذلك أسقط فى يد عبد الناصر الذى لم يستطع التراجع فى طلبه للسحب الجزئى للقوات الدولية الذى تحول إلى سحب كلى بناء على نصيحة الأمريكى رالف بانش. وكانت هذه هي الخطوة الأولى لعبد الناصر داخل الفخ المنصوب، اذ خرجت قواته المسلحة من وراء الساتر القائم بينها وبين القوات الاسرائيلية كما خطط صقور اسرائيل تماماً.

وكان عبد الناصر فى سباق لاهث مع عجلة الأحداث. وكان مستعداً لأن يبلغ يوثانت عن حقيقة دوافعه التى تأبى تماماً الوصول بالموقف إلى حافة الانفجار أو الانفجار نفسه، لكنه لم يكن على استعداد لأن يبرق بها عبر نصف العالم من خلال شفرة يسهل فكها وتفسيرها من أحد أجهزة المخابرات المعادية، لأن الموقف كان آخذاً فى الوضوح والتبلور فى حدود اختيارين أو بديلين اثنين على أكثر تقدير. وكان إرسال مبعوث شخصى إلى يوثانت لابد أن يستغرق

ساعات أكثر، بل ويمكن تفسير لقائه أو رسالته للأمين العام بنفس طريقة تفسير الشفرة السرية. عندئذ تفسر الخطوات التى أقدم عليها عبد الناصر فى سيناء على أنها حركة جوفاء لاتستحق سوي السخرية والتهكم بل وفضحها أمام العالم أجمع. وهو مالايمكن أن يتقبله عبد الناصر بأية حال من الأحوال. هذا إلى جانب أن رد يوثانت كان يحمل رفضاً صريحاً للنظر فى الانسحاب الجزئى، ولم يكن هناك مايحمل على الاعتقاد بأن أى قدر من التوضيح من جانب القاهرة سوف يجعله يعدل عن رأيه، لذلك لم يكن هناك اختيار أمام عبد الناصر سوي التراجع المشين أو المجازفة بطلب الانسحاب الكامل لقوات الطوارئ الذى يشمل شرم الشيخ وغزة. وكان عبد الناصر واعياً تماماً لأبعاد الموقف المستجد إذا اختار السبيل الأخير، إذ كان عليه أن يملأ الفراغ فى هذه المناطق ذات الحساسية البالغة والأعصاب المشدودة بقوات مصرية، والأخطر من ذلك أنه سوف يواجه ضغوطاً ساحقة من جانب الدول المجاورة لإسرائيل لإعادة فرض الحصار على خليج العقبة الذى ظل مفتوحاً أمام الملاحة الاسرائيلية طوال السنوات العشر الماضية تحت اشراف قوات الطوارئ الدولية.

كان عبد الناصر يتحرك وسط حتميات لامفر منها بعد أن اكتملت كل شروط الفخ، إذ كان من الواضح أن التراجع ليس موضع بحث ليس بسبب اللطمة التى قد يوجهها إلى مكانة مصر فى المنطقة العربية فحسب، وانما لأنه سوف يقضى كذلك على أى أمل فى ردع الإسرائيليين أو كبح جماح السوريين، وبذلك ينتهى دور مصر تماماً وتصبح ريشة فى مهب الرياح بدون الدخول فى أى حرب. وظل يبحث المشكلة مع عبد الحكيم عامر طوال يومين وليلتين تقريباً ثم قرر أن عليه أن يجازف بعواقب انسحاب القوات الدولية انسحاباً كاملاً، إذ لم يكن أمامه أى بديل آخر.

وبعد ظهر يوم ١٨ مايو أبرق محمود رياض وزير الخارجية إلى نيويورك بطلب مصر الرسمى بسحب جميع القوات الدولية من غزة وشبه

جزيرة سيناء. ويقول محمود رياض في مذكراته:

"كان الطلب واضحاً للغاية، فنحن لم نطلب سحب قوات الطوارئ الدولية الموجودة فى غزة أوشرم الشيخ وكان طلبنا قاصراً على سحب قوات الطوارئ الدولية الموجودة على الحدود المصرية مع اسرائيل. عندما رفض يوثانت اجراء انسحاب جزئى لقوات الطوارئ، لم يكن فى استطاعة مصر التراجع عن طلبها، ولم يكن أمامنا سوى أن نطلب الانسحاب الكلى لقوات الأمم المتحدة، وهذا يتضمن بالطبع القوات الموجودة فى غزة وشرم الشيخ. وقد أدى انسحاب قوات الأمم المتحدة من شرم الشيخ إلى دخول قواتنا العسكرية إليها . . . وهذه الخطوة بدورها فرضت علينا العودة إلى المشكلة القديمة الخاصة بملاحة اسرائيل فى خليج العقبة".

وبرغم التداعيات الخطيرة للموقف الموشك على الانفجار الموشك على الانفجار، لم يتخل عبد الناصر عن حرصه فى اتخاذ خطوات جديدة خاصة فيما يتصل بمنع الملاحة الاسرائيلية فى مضايق تيران عند مدخل خليج العقبة. فقد كان يملك الحق القانونى فى إغلاق هذا الممر الذى يقع بكامله داخل نطاق المياه الاقليمية المصرية، لكنه كان يعلم أيضاً مدى اعتماد اسرائيل فى السنوات العشر الماضية على إمدادات البترول الإيرانى عبر ميناء ايلات، ومع أن الوحدات الأمامية من الفرقة الرابعة المدرعة المصرية تحركت بسرعة إلى المواقع التى جلت عنها قوات الطوارئ الدولية على حدود سيناء، فإنها لم ترسل آنذاك قوات لاعادة السيادة المصرية على شرم الشيخ.

وجد الملك حسين فى هذا الحرص أو التردد فرصة للانتقام من عبد الناصر الذى كثيراً ما هاجمه واتهمه بالخيانة والتحالف مع القوى

الاستعمارية. وشن راديو عمان حملة عنيفة سخر فيها من تردد القاهرة الواضح فى مواجهة الخطوة التالية التى يفرضها المنطق بهدف تشويه صورة عبد الناصر كزعيم تاريخى. ولم يقتصر الأمر على الحملة الإعلامية الأردنية، بل امتد ليشمل كثيراً من الضباط المصريين الذين كانوا متلهفين على استخدام أسلحتهم السوفيتية المتقدمة للتخلص من كل آثار عدوان ١٩٥٦، بعد أن ظلوا ممنوعين من القيام بأى نشاط ضد اسرائيل لمدة عشر سنوات. ولابد أن نسجل هنا لعبد الحكيم عامر أنه حذر قواته المسلحة من توقع أية خطوات مثيرة مع عودة السيادة المصرية الكاملة إلى شرم الشيخ، لكن المد العالى بل والجارف الذى نتج عن الإيقاع اللاهث للأحداث كان أعتى من أن يقاوم، ووجد عبد الناصر نفسه بعد أربعة أيام مضنية من التأملات والدراسات والحسابات، مضطراً لاتخاذ الخطوة الحاسمة المصيرية الأخيرة. وفى يوم ٢١ مايو استولت القوات المصرية على شرم الشيخ مرة أخرى، وفى اليوم التالى أعلنت القاهرة أنه ابتداءمن الآن فصاعداً سوف يغلق خليج العقبة فى وجه السفن الاسرائيلية وأية سفن أخرى تحمل شحنات استراتيجية إلى ميناء إيلات.

ومرة أخرى أصبح عبد الناصر بطل العالم العربى بلا منازع، بل إن العناصر المعادية له سواء فى الأردن أو سوريا لم يكن أمامها سوى أن تحيى هذا العمل الفريد من أعمال التحدى القومى: وتلاشت حملات الهجوم والذم والسخرية والتهكم، وحلت محلها موجات عارمة من الابتهاج والسرور، اجتاحت أنصار القومية العربية من الخليج إلى المحيط، وانطلقت الحناجر بالهتاف لعبد الناصر مرة أخرى، وترددت أصداء الأمجاد السابقة التى أذهلت الأعداء قبل الأصدقاء. لكن الأعداء هذه المرة لم يذهلوا لأنهم خططوا لهذه النتيجة على مدى عشر سنوات سابقة، وأدركوا أخيراً أن عبد الناصر قد وقع تماماً فى الفخ الذى أطبق عليه من كل جانب، خاصة وأن اغلاقه لخليج العقبة قد دفع الرأى العام العالمى، أو على الأقل الغربى إلى تأييد الاسرائيليين

بصورة ساحقة، وفتح لهم الباب على مصراعيه للقيام بأى اجراء عسكرى لابد أن يجد ترحيباً أو تأييداً من الغرب على أساس أنه دفاع مشروع عن النفس.

وكانت اسرائيل تعلم أن عبد الناصر داعية حقيقى للسلام، وأنه قد يناور لكنه لايصل أبداً إلى حد اشعال الحرب لانشغاله بقضايا التنمية الداخلية والبنية الأساسية. وهذا يدل على أن هدف اسرائيل وخلفها الامبريالية العالمية كان اصطياد عبد الناصر بطريقة أو بأخرى، وكانت مؤامرة حرب يونيو هى الطريقة التى اعتمدها كل الأعداء والخصوم المتربصين بعبد الناصر. ولو كانوا قد نجحوا فى تصفيته جسدياً، وكان خليفته أكثر مرونة وتوافقاً مع أهدافهم الاستراتيجية، لكان من المحتمل ألا تندلع حرب يونيو أو أية حرب أخرى. وحتى خصم مصر اسحق رابين اعترف فيما بعد فى تصريح له نشرته صحيفة "لوموند" الفرنسية فى فبراير عام ١٩٦٨، بأنه لم يكن يعتقد أن عبد الناصر كان يهدف إلى اشعال حرب، فالفرقتان اللتان أرسلهما إلى سيناء يوم ١٤ مايو لم تكونا كافيتين لشن حرب على اسرائيل، وكان يعرف ذلك وكان الاسرائيليون يعرفونه أيضاً. ومن المعروف أنه تم إرسال خمس فرق أخرى إلى سيناء فى وقت لاحق لاضفاء طابع الصدق على خدعة عبد الناصر، وحيث أن الجزء الأكبر منها ظل فى وضع احتياطى على بعد مائة ميل من الحدود، فلم يكن هناك من سبب خطير يدعو الاسرائيليين للخوف، بالاضافة إلى حرص عبد الناصر على أن يؤكد للأمريكيين على أن مصر لن تطلق الطلقة الأولى.

هذا عن العوامل الدولية الخارجية التى أدت إلى نكسة يونيو ١٩٦٧، أما العوامل المحلية الداخلية فقد بدأت تفاعلاتها هى الأخرى فى أعقاب حرب ١٩٥٦. يقول المشير محمد عبد الغنى الجمسى فى مذكراته:

"لقد كان تعيين عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة، يهدف إلى تأمين الثورة فى

مراحلها الأولى، حتى جاءت حرب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦، ونتيجة لهذه الحرب، ثبت أن الناحية السياسية شكلت نصراً كبيراً حجب القصور العسكرى وغطى على أسبابه. وقد استغلت القوات المسلحة هذا الموقف - النصر السياسى برغم القصور العسكرى - لصالحها أسوأ استغلال، وتفشت فيها روح اللامبالاة وعدم تقدير المسئولية، وخيل للكثيرين أن النصر يمكن أن يكون سهل المنال بأساليب أخرى غير الصراع المسلح.

"وهكذا بدأت تهمل مسئولياتها الأساسية وهى التدريب والإعداد للحرب والانضباط العسكرى، وانزلقت نحو اهتمامات جانبية حتى حدثت هزيمة يونيو ١٩٦٧ التى شملت الناحيتين السياسية والعسكرية معاً على نطاق واسع".

ونظراً لرسوخ عبد الحكيم عامر كل هذه الفترة الطويلة فى القوات المسلحة، فقد أصبح ولاء كبار القادة والضباط للمشير شخصياً وليس لتقاليد القوات المسلحة ومناهجها الموضوعية. وهى الظاهرة السلبية التى يحللها الفريق أول محمد فوزى فى مذكراته فيقول:

"على مستوى القوات المسلحة، فإن المركزية المطلقة فى السلطة، وفى السيطرة، وفى القيادة، كانت فى يد فرد واحد فقط هو المشير عبد الحكيم عامر، يعاونه وزير الحربية شمس بدران، وأفراد مكتب المشير الذين كانوا يمثلون سكرتارية أكثر منهم جهازاً فنياً. وكان مديرو مكتب المشير على التوالى منذ تعيينه قائداً عاماً للقوات المسلحة هم:

صلاح نصر، عباس رضوان، ثم شمس بدران، وعلى شفيق صفوت. وقد تم فيما بعد تعيين الأول مديراً للمخابرات العامة، والثانى وزيراً للداخلية، والثالث وزيراً للحربية.

"من هنا كان لتوجيه المشير وأوامره، ورغباته فعل السحر داخل القوات المسلحة. وكان جميع القادة، قبل أن يقبلوا على أمر أو حتى يفكرون فيه، يتحسسون رغبة المشير أو اتجاهاته نحو هذا الأمر. ولم يكن للقيادة العامة للقوات المسلحة أى أجهزة تخطيط أو متابعة. فاقتصرت القيادة العامة - وهى رأس القوات المسلحة - على وجود فرد قوى مسيطر صاحب الشأن كله".

ويضيف الفريق أول محمد فوزى تحليله للسلبيات التى اعتورت أداء المؤسسة العسكرية فيقول:

"حتى رئاسة الأركان العامة، وهو المنصب الذى كنت أشغله - ومعها أجهزتها المختلفة للتخطيط والمتابعة - بالرغم من وجودها تحت قيادتى إسماً - فإن تعليماتها نتيجة ازدواجية السلطة، كانت تصدر وتنبع من المشير نفسه أو من وزير الحربية. علاوة على أن الصلاحيات المحدودة لرئاسة الأركان الفعلية لاتطبق إلا على القوات البرية فقط. أما سيطرتها أو حتى التنسيق مع القوات البحرية والجوية والدفاع الجوى فكانت أمراً بعيداً جداً.

"نتيجة لهذا لم توجد أى أجهزة حقيقية تخطط

وتتابع التطور المطلوب، لرفع كفاءة وقدرة القوات المسلحة. ومهما تكن كفاءة أى فرد، فإنه لايمكنه وحده أن يقود ويسيطر على القوات المسلحة، بل لابد من وجود السلطة وأسلوب السيطرة أيضاً لكل الأجهزة المذكورة، بالاضافة إلى جهاز المتابعة والتفتيش الذى يمكنه بحكم عمله أن يرى ويباشر ما يدور حقيقة فى القوات المسلحة، وينقله نقلاً أميناً لنائب القائد الأعلى للقوات المسلحة.

"بالرغم من هذا الخلل فى السلطات فإن القادة أنفسهم كان بإمكانهم أن يباشروا مهمة قيادتهم لقواتهم، ويراعوا ضمائرهم فى نقل الحسن والسيئ معاً للمشير، لكن ما كان يحدث هو إظهار الجيد من الفعل والقول بالنسبة لقواتهم فقط. ويظل المشير المسئول عن القوات المسلحة، والمسيطر الوحيد عليها غير واع بحقيقتها، وقدرتها وكفاءتها طوال أعوام ما قبل ١٩٦٧. بينما أخذ جهاز المخابرات الحربية فى ملء الفراغ الموجود، بواسطة أسلوب غير أمين فى التحرى عن الضباط والقادة. وبالطبع لم يكن قادراً على إظهار كفاءة وقدرة القوات المسلحة بقدر ما كان يركز على الأفراد من وجهة النظر الأمنية".

وواصل الفريق أول محمد فوزى تتبعه لأسباب الهزيمة العسكرية فى يونيو ١٩٦٧، فيشرح كيف ظهر بعض الضباط الذين أمكنهم التقرب إلى المشير عبد الحكيم عامر، ووزير الحربية شمس بدران، وأصبحوا مصدر معلومات موثوق بها ينقلونها عن أفرادها صدقاً أو كذباً، بهدف تثبيت أقدامهم واضافة كثير من الهالات حول شخصية المشير عامر. وكان عليهم أن يختلطوا

بأفراد القوات المسلحة لنقل ما يعن لهم أو يقال بين صفوفهم، قادة وضباطاً وجنوداً، ثم كتابة تقارير سرية بخط اليد تسلم أو ترسل إلى وزير الحربية شمس بدران. وبذلك وصلوا إلى رتب القيادة للتشكيلات الميدانية، ومارسوها بالفعل، إلى أن تم الحشد الحقيقى فى سيناء وأصبحت البلاد على شفا حرب مع اسرائيل. فاضطر المشير عامر وشمس بدران إلى تغييرهم، وعينوا بدلاً منهم ضباطاً آخرين لهم دراية أفضل بالقتال، لكن ذلك جاء متأخراً، لأنها تشكيلات ميدانية أعدت للقتال على أيدى قادة غير متخصصين، ودخلت هذه التشكيلات المعركة فى اليوم التالى على أيدى قادة آخرين لايعرفون ضباطهم وجنودهم. فقد صدر قرار هذا التغيير فى الأسبوع الأخير من مايو ١٩٦٧، وتم تنفيذه حتى ١٩٦٧/٦/٥ يوم بدء القتال. ولم يكن لرئاسة الأركان دور حقيقى لدرجة أن أوامرها وتعليماتها التى تصدرها لمختلف فروع القوات المسلحة، لم تكن موضع ثقة. فقد اعتادت قيادات القوات المسلحة وقيادات المناطق والاتجاهات والمحاور ألا تنفذ أمراً ما، إلا إذا شاهدت توقيع المشير شخصياً فى شئون العمليات وفى التدريب، أو إمضاء شمس بدران فى الشئون الأخرى لهذه القوات.

بهذه الروح البيروقراطية الجامدة دخلنا حرب يونيو ١٩٦٧ التى دارت فيها المعارك الأولى بأوامر شخصية مباشرة من المشير عامر، ثم انفرط العقد تماماً، فليس بهذا الأسلوب تدار المعارك. وكانت فرصة العمر لاسرائيل التى صالت وجالت فى فراغ عسكرى لم تكن تحلم به ولا فى أشد أحلامها نشوة، وظهرت أمام العالم وقد حققت نصراً لامثيل له من قبل فى تاريخ الحروب المحدودة، فى حين أننا هزمنا أنفسنا بأنفسنا حتى قبل أن تبدأ الحرب. ولذلك لم تكن قواتنا المسلحة سبباً فى الهزيمة بل كانت ضحية لها.

وهذا يبرز سؤال ملح: لماذا لم يقم عبد الناصر بتغيير عبد الحكيم عامر حتى يتجنب كل هذه السلبيات؟ للحقيقة والتاريخ فان ثورة يوليو كانت فى حاجة إلى حراسة الجيش سياسياً وعسكرياً، حراسته من الداخل، حتى لايتكرر

مع عبد الناصر ما فعله هو بفاروق . وقد أدى عبد الحكيم عامر هذه المهمة بمنتهى الأمانة، فخدمه وخدم مصر جميعاً بأن وقاها شر الانقلابات العسكرية، ولذلك لم يتخل عنه عبد الناصر أبداً. وحتى لو فكر فى التخلى عنه فان جذور عامر كانت راسخة وضاربة فى أعماق الجيش، كما أن جذور عبد الناصر كانت راسخة وضاربة فى أعماق الشعب، وأية مواجهة بينهما قد تؤدى إلى مواجهة بين الجيش والشعب. ولذلك كان هناك من الحتميات مالم يمكن تجاوزه بمجرد قرار إدارى ينشر فى الجريدة الرسمية، خاصة وأن عامر كان نموذجاً ممتازاً للرجل الثانى، وزميلاً مثالياً وقوياً ووفياً يعرف مايريد ويقنع به. ولذلك يقول أمين هويدى فى كتابه "الفرص الضائعة" :

> **"كان عبد الحكيم عامر يعتقد أنه يقود أقوى قوة فى الشرق الأوسط، لدرجة أنه كان يردد عقب جلسة مساء يوم ٢/ ٦/ ١٩٦٧ والتى حضرها عبد الناصر وأبدى فيها أن الهجوم الاسرائيلى واقع في ظرف يومين، وأنه سيفتتح بضربة جوية كبيرة " بأنه لايتمنى أن يكون فى وضع موشى دايان الذى لابد وأن يكون الآن حائراً فيما يمكن أن يفعله إزاء قوة الاستعداد المصرى" .**

ولم تكن قرارات عبد الناصر السابقة على الخامس من يونيو، قرارات فردية أبداً، إذ يوضح أمين هويدى كيف سارع مجلس الأمة برئاسة أنور السادات فى ٢٨/ ٥/ ١٩٦٧ بالموافقة على اقتراح قانون ينص على "تفويض رئيس الجمهورية إصدار قرارات لها قوة القانون فى جميع الموضوعات التى تتصل بأمن الدولة وسلامتها وتعبئة كل إمكانياتها البشرية ودعم المجهود الحربى والاقتصاد الوطنى". وانتهز عبد الناصر الفرصة عند اجتماعه بأعضاء مجلس الأمة فى القصر الجمهورى بالقبة فى اليوم التالى ليقدموا له قرار التفويض بأنفسهم ليشرح لهم الموقف، وكان التأييد كاملاً دون اعتراض

من أحد، وهو نفس موقف اللجنة التنفيذية العليا قبل ذلك فى ٢١/ ٥/ ١٩٦٧ فيما عدا بعض استفسارات من رئيس الوزراء وقتئذ محمد صدقى سليمان. بل إن الدكتور محمود فوزى نائب رئيس الوزراء للشئون الخارجية، عندما استشاره عبد الناصر قبل تنفيذ قرار سحب القوات الدولية، وافق تماماً ولم يعترض على قيام القوات المسلحة بمخاطبة قائد القوات الدولية لسحب قواته، برغم أن القرار سياسى ولايجوز أن يتم إلا عن طريق وزارة الخارجية وبالاتصال مع الأمين العام للأمم المتحدة. ويختم أمين هويدى تحليله للموقف بقوله:

"لم تكن مرحلة صناعة القرار مرحلة انفرد بها عبد الناصر، فقد شاركه فيها اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الأمة ومجلس الوزراء والمؤسسة العسكرية والرأى العام الذى كان يوجهه جهاز إعلامى قادر على تشكيله وتوجيهه، أما مرحلة صدور القرار فتركت لإسرائيل لأنها هى التى بدأت القتال".

وعندما وقعت الواقعة لم يستسلم عبد الناصر كعادته برغم كل عوامل اليأس والاحباط والمرارة والضياع، وبرغم أنه كان من أكثر الذين تحملوا مرارة وقسوة تلك الأيام العصيبة، لإدراكه أنه سواء كان الخطأ عسكرياً أو سياسياً، فإنه يتحمل وحده فى النهاية المسئولية التاريخية عن الهزيمة على حد قول المشير الجمسى فى مذكراته. لكنه سرعان ما أحال المسئولية الجسيمة والمريرة إلى انجاز تاريخى مبهر عندما أخذ زمام الأمر فى يديه مباشرة. فقد حقق أعظم عمل أنجزه فى حياته - على كثرة أعماله العظيمة - وهو إعادة بناء قوات مصر المسلحة من الصفر تقريباً، وفى ظل ظروف تكاد تكون مستحيلة، وذلك خلال ثلاث سنوات بين ١٩٦٧ و ١٩٧٠، بفضل طراز رفيع من القادة العظام من أمثال محمد فوزى وعبد المنعم رياض. وكانت حرب الاستنزاف أروع ملحمة صنعها عبد الناصر فى تاريخه اذ أحال الفخ الذى تم التخطيط له

على مدى عشر سنوات ووقع فيه فى النهاية، إلى فخ أوقع فيه اسرائيل التى لم تستطع الخروج منه على مدى ثلاث سنوات إلا بقرار وقف اطلاق النار فى أغسطس ١٩٧٠، وكان يمكن أن تعود إليه برغم أنفها لو إمتد العمر بعبد الناصر لأنه كان عازماً على استئناف القتال تمهيداً لحرب التحرير الشاملة إذا ما فشلت المساعى الدبلوماسية، وكان فشلها هو الاحتمال الأكبر، فقد كانت اسرائيل عاجزة عن ايقاف حرب الاستنزاف وعاجزة فى الوقت نفسه عن الانسحاب والخروج من الفخ الذى صنعه لها عبد الناصر.

وعندما نقول إن حرب الاستنزاف كانت أروع انجازات عبد الناصر، فهذه ليست شهادة منا بذلك، بل هى شهادة القادة العسكريين والسياسيين الإسرائيليين من أمثال موشيه دايان، وجولدا مائير، وآريل شارون، ويجال آلون، بل وشهادة المفكرين الاجتماعيين والأدباء والشعراء الاسرائيليين الذين جسدوا فى كتاباتهم وأعمالهم الكابوس الذى طارد اسرائيل فى صحوها ومنامها طوال ثلاث سنوات. ولذلك فهذه الدراسة هى شهادة اسرائيلية: عسكرية وسياسية واجتماعية وأدبية، لآخر إنجاز تاريخى ومصيرى عظيم صنعه عبد الناصر لشعبه قبل رحيله. وهى شهادة لايمكن أن تُدحض بالصاق تهمة الناصرية بهؤلاء القادة والكتاب والأدباء الاسرائيليين!!! وهى السيف الذى يحلو للبعض الآن أن يشهروه فى وجه أى باحث عن الحقيقة. إن عبد الناصر وتراثه الآن ملك للتاريخ، وهو تراث شهد لعظمته الأعداء قبل الأصدقاء، وخير دليل على هذه الشهادة الدامغة هو هذه الدراسة.

المهندسين فى ٢٣ يوليو ١٩٩٦

د. نبيل راغب

الفصل الأول

شهادة عسكرية

(١) موشيه دايان

عندما يتكلم موشيه دايان نجم العسكرية الاسرائيلية عما خططه عبد الناصر فى حرب الاستنزاف ، وما حققته القوات المسلحة المصرية على أرض سيناء المحتلة أو فى مجالات أخرى فيما بين عامى ١٩٦٧ و ١٩٧٠ ، فإن شهادته لابد أن تكون دليلاً دامغاً على تلك الحرب الضروس التى أكدت للقادة الاسرائيليين أن ما وقع فى يونيو ١٩٦٧ كان استثناء من قاعدة لايمكن تجاهلها ، وهو الاستثناء الذى حاولت الدعاية الاسرائيلية أن تصوره على أنه قاعدة لاتقبل الجدل .

وبحكم أن دايان شغل منصب وزير الدفاع الاسرائيلى منذ عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧٤ ، أى فى الفترة التى وقعت فيها حرب يونيو ١٩٦٧ ، وحرب الاستنزاف (١٩٦٧ - ١٩٧٠)، وحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، فكان من الطبيعى أن يصبح رمزاً لتسلط فكر المؤسسة العسكرية على المجتمع الاسرائيلى، ومسئولاً عن ادارة الأراضى العربية من خلال الحكم العسكرى ، وتنفيذ سياسة اسرائيل فيها ، خاصة تلك التى تتمثل فى أسلوب العقاب الجماعى ، ونسف المنازل ، وتبنى سياسة الجسور المفتوحة ، وانشاء مزيد من المستعمرات الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة .

وشخصية بهذا الثقل المحورى عندما تعترف بوطأة حرب الاستنزاف المصرية على الدولة الاسرائيلية برمتها ، وذلك برغم الانتصار الخاطف الذى حققته وجعلها تعيش حقائق أروع من الأحلام ، فإن مثل هذا الاعتراف يؤكد بما لايقبل الجدل أن عبد الناصر استطاع أن يحيل أحلام اسرائيل السعيدة إلى كوابيس مريرة ، حاولت القيادة الاسرائيلية أن تخفيها بقدر الامكان بعيداً عن أعين المجتمع الاسرائيلى ، وذلك خلف ستارمن الدعاية البراقة التى سعت إلى غسيل المخ الاسرائيلى وتضليله حتى لاتتكشف حرب الاستنزاف بحقائقها المرعبة .

فقد خصص دايان الفصل السابع والعشرين من مذكراته لحرب الاستنزاف التى يرى أنها بدأت فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ بشهور قليلة .

ويعترف منذ أول سطر بأنه سرعان ماتأكد أن السلام مايزال بعيداً ، برغم أنه في الأيام الأولى التى أعقبت الخامس من يونيو ،كان واثقاً من أن اصرار الشعب المصرى على رفض تنحى عبد الناصر واستمراره فى موقع القيادة حتى النصر ، لم يكن سوى اجباره على الاستسلام لاسرائيل وشروطها التى ستمليها عليه. فلم يكن هناك بديل آخر أمامه. لكن بعد نصف عام فقط يجد دايان نفسه مضطراً للاعتراف قائلاً:

"كان نصف عام قد مر على حرب الأيام الستة. وكان يبدو واضحاً أن السلام مايزال بعيداً. فان واشنطن كانت قد أبلغت عبد الناصر، أن اسرائيل مستعدة للانسحاب إلى حدود ، معترف بها دولياً، في نطاق اتفاقية سلام مع مصر وسوريا. لكن الرئيس المصرى لم يتراجع عن معارضته العنيدة لوجود اسرائيل بالذات. فالاستنتاج، الذى استخلصه من هزيمة بلاده عسكرياً، كان وجوب اعادة بناء الجيش المصرى، وتجنيد العالم العربي كله، في النضال ضد دولتنا".

هكذا أيقظ عبد الناصر اسرائيل من نشوة الخامس من يونيو ١٩٦٧ وأحلامها السعيدة، لتتأكد أن مصر قد خسرت مجرد معركة خاطفة في مواجهتها، وأنها لاتزال قادرة، سياسياً وعسكرياً، على مواصلة الصراع المصيري حتى نهايته برغم خسائرها الجسيمة والفادحة فى يونيو ١٩٦٧. وكان دايان يتابع بذهول مايفعله عبد الناصر الذى ظنت اسرائيل أنها استطاعت أخيراً أن تقضى عليه قضاءً مبرماً. ذلك أنها لم تدرك أن جذوره فى مصر والعالم العربى بهذا التعمق والرسوخ والتشعب. وكان مؤتمر الخرطوم فى أغسطس ١٩٦٧ مفاجأة، ليس لاسرائيل فحسب بل للعالم أجمع. فقد أثبت أن المحنة كانت بمثابة البوتقة التى انصهر فيها المعدن العربى

النفيس، فالتف الشعب العربى كله حول الزعيم الذى عاش معه أحلى انتصاراته. يقول دايان:

"فى ٢٩ أغسطس ١٩٦٧، انعقدت فى الخرطوم، قمة، حضرها زعماء ١١ بلداً عربياً: مصر، العراق، الأردن، لبنان، السعودية، الكويت، ليبيا، السودان، تونس، المغرب، الجزائر. ولم تتمثل سوريا، لكن منظمة التحرير كانت هناك. ونزولاً عن رغبة عبد الناصر، تبنى المؤتمر "المبادئ الأساسية، التى قررت الدول العربية الالتزام بها"، وهى على وجه التحديد، اللاءات الأربع الشهيرة: لاللسلام مع اسرائيل، لااعتراف باسرائيل، لاتنازل عن الحقوق القومية للفلسطينيين، لامفاوضات مع اسرائيل. كما أكدت الدول المنتجة للنفط لعبد الناصر، أنها ستستمر فى مساعدة مصر، وستعوضها عن خسائرها الناتجة عن اغلاق قناة السويس؛ فتعهدت العربية السعودية بأن تساهم، سنوياً، بمائة وعشرين مليون دولار، والكويت بمائة واثنين وثلاثين مليوناً، وليبيا باثنين وسبعين مليوناً.

هذا على المستوى العربى، أما على المستوى الدولى فقد تأكد الاتحاد السوفييتى من إصرار عبد الناصر على مواصلة الكفاح المسلح لازالة آثار العدوان، وأنه اذا لم يساعده بامداده بالسلاح فإنه سيفقد مكانته الدولية المتميزة فى المنطقة فى مواجهة الكتلة الغربية بصفة عامة والولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة. ولذلك لم يندهش دايان عندما وجد المساعدات العسكرية السوفييتية تشق طريقها مرة أخرى إلى مصر لإعادة بناء جيشها بدون أدنى تأخير. بل إنه فى يونيو ١٩٦٧، أى بعد أيام معدودة فى أعقاب الحرب، وصلت إلى مصر بعثة عسكرية سوفييتية رفيعة المستوى، تتألف من ٩١ ضابطاً كبيراً، برئاسة قائد الجيش السوفييتى المارشال زخاروف. وسرعان ما تم الاتفاق على امداد مصر بالأسلحة جواً وبحراً. ويعترف دايان بقوله:

"وفى خلال ١٨ شهراً، لم تكن مصر قد أعادت فحسب تشكيل قواتها العسكرية، وعادت بها إلى مستوى ما قبل حرب الأيام الستة، بل إنها عززت قطعها المدرعة والجوية".

ولم يكن هذا التعزيز هدفاً فى حد ذاته، بل كان تأكيداً لحرب الاستنزاف حتى تتأكد اسرائيل من أن الوضع الذى ترتب على حرب يونيو هو وضع غير طبيعى ولابد أن يتغير إن عاجلاً أو آجلاً، وليست هناك غير وسيلة واحدة لتغييره وهى القوة العسكرية. ومن هنا كان المبدأ الذى واصل عبد الناصر تطبيقه والذى يؤكد أن ما أخذ بالقوة لابد وأن يسترد بالقوة. ويرى دايان أن إغراق المدمرة الاسرائيلية إيلات كان اعلاناً مدوياً من عبد الناصر للسير على هذا النهج والتصدى للتحدى فى كل صوره. يقول دايان:

"والحادث الأول المهم، وقع بعد مرور أربعة أشهر على حرب الأيام الستة، وعلى وجه التحديد فى ٢١ أكتوبر ١٩٦٧، عندما عمد زورق طوربيد مصرى، من نوع "كومار"، سوفييتى الصنع، مجهز بصواريخ، إلى اغراق الطراد الاسرائيلى "ايلات"، على بعد حوالى ١٣ ميلاً ونصف ميل من بورسعيد، خارج المياه الاقليمية المصرية. فقد أطلقت الوحدة المصرية صاروخين، أغرقا "ايلات" وتسببا فى خسارة ٤٧ بحاراً بين قتيل ومفقود".

هكذا بدأ عبد الناصر فى تحويل حلاوة النصر الاسرائيلى إلى مرارة العلقم بعد أن تصورت اسرائيل أن الأمور كلها قد دانت لها ولن تقوم لمصر قائمة. ولاشئ يوجع اسرائيل مثل فقدها للأفراد، ذلك لأن ترسانة الأسلحة الأمريكية مفتوحة لها على مصراعيها كى تنهل منها ما تشاء وبلا مقابل، لكن من يعوضها عن فقد ٤٧ بحاراً غاصوا إلى القاع ليلتهمهم السمك ؟ ما صدى

هذه الكارثة عند أسر هؤلاء القتلى بصفة خاصة والمجتمع الاسرائيلى بصفة عامة بعد أن ظن الاسرائيليون أن السلام قادم إليهم على طبق من فضة ؟!

كان عبد الناصر يدرك جيداً أن اسرائيل لابد أن ترد بعنف وقسوة، حتى تحفظ القيادة لنفسها ماء وجهها فى مواجهة المجتمع الذى شرعت أحلامه وآماله فى السلام والاستقرار فى التبدد والتلاشى. يقول دايان:

> **"رددنا بضرب المصافى، قرب مدينة السويس، وباحراق مستودعات النفط فيها، ورد المصريون بدورهم، فاشتعلت نيران المدفعية على طول الجبهة".**

كان دايان يظن أن التدمير العنيف للمصافى واحراق المستودعات سيلقن المصريين درساً قاسياً يذكرهم بذلك الذى تعلموه فى الخامس من يونيو، وبذلك تعود الأمور إلى نصابها، ويصبح اغراق المدمرة ايلات مجرد استثناء عابر من قاعدة الرسوخ الاسرائيلى الوطيد. لكن الضرب المدمر العنيف لم يرهب المصريين ولم يلزمهم عقر دارهم بل ردوا عليهم بنفس العنف والقسوة، وتحولت الجبهة إلى جحيم مقيم. وكان الموقف من الخطورة بحيث توجه دايان بالطائرة إلى منطقة القناة. يصف الحالة بقوله:

> **"كانت مصافى السويس ماتزال مشتعلة، فرحت أنظر إليها من الضفة، التى كانت قد سقطت فى أيدينا. وفى هذه الأثناء، وصلت أنباء تفيد أن المصريين استأنفوا القصف فى قطاع آخر. فأوصيت قائد القطاع الجنوبى، الذى كان يرافقنى، بأن يكتفى بتوجيه ضربات سديدة".**

وبهذا يعترف دايان أن المصريين كانوا حريصين وقادرين على الامساك بزمام المبادرة برغم كل خسائرهم فى حرب الأيام الستة. فقد جمعوا

بين الهجوم والدفاع فى آن واحد. وبرغم اشتعال الجبهة استطاعوا اعادة تنظيم جيشهم، وعززوا أوضاعهم على الضفة الغربية من القناة من خلال خطة تجلى فيها العقل الحسابى والفكر الاستراتيجى عند عبد الناصر الذى أعلن فى ابريل ١٩٦٨ أن "مرحلة تعزيز القوات بدأت". وبعد خمسة أشهر، صرح وزير الدفاع المصرى الفريق أول محمد فوزى بأن تلك المرحلة قد تمت، وأن القوات المصرية انتقلت إلى المرحلة التالية: "الارتداد النشيط على العدو". وكانت هذه المرحلة تتضمن عمليات تسلل، وقصفاً مدفعياً، واطلاق النيران على القوات الاسرائيلية بهدف احداث أكبر قدر ممكن من الخسائر فى الأرواح والمواقع. وكان التخطيط الاستراتيجى لعبد الناصر واضحاً فى تجنب المصريين للقيام بعمليات هجومية، واسعة النطاق، تستهدف استعادة الأراضى المحتلة بعد يونيو ١٩٦٧، إذ يبدو أن عبد الناصر قد أرجأها إلى مرحلة تالية. ولم يكن اشتعال الجبهة المتجدد هو السبب الوحيد فى قلق القيادة الاسرائيلية، بل كان التصاعد المحسوب يؤكد أن الضربات المصرية لم تكن مجرد تقلصات لحفظ ماء الوجه، بل كانت تطبيقاً لاستراتيجية طويلة النفس، لاترضخ للضغوط المتوقعة أو غير المتوقعة حتى لاتطيش ضرباتها ويتبدد مجهودها الحربى. وكانت احدى ذروات هذا التصاعد المحسوب فى أوائل سبتمبر ١٩٦٨، والتى يقول عنها دايان:

" وقد بلغت الذروة فى أوائل سبتمبر، عندما فتح المصريون النار فى شمال القناة، وقتلوا عشرة من رجالنا وجرحوا ١٨؛ وبعد أسبوعين، قصفت مدفعيتهم مواقعنا على الضفة الشرقية، طوال تسع ساعات، متسببة فى خسائر كبيرة: ١٥ قتيلاً، و٣٤ جريحاً . وتحت ستار الليل، أطلق المصريون عملية "كوماندوز"، محاولين التسلل داخل خطوطنا المحصنة، فاصطدموا باحدى دورياتنا؛ ونتج عن

ذلك معركة، دامت حتى الفجر، وانسحاب المتسللين المصريين.

"وفى اليوم التالى، توجهت إلى المنطقة جواً. وبدأت الجولة بتفقد قاعدة "كوبرا"، التى قصفتها مدفعية العدو، بصورة خاصة. فبدت المنطقة، وكأن عاصفة قد ضربتها. وكانت قنبلة موقوتة، من عيار ١٦٠ ملم، قد أحدثت فجوة فى غطاء الاسمنت المسلح للحصن الأساسى. وأصيب أيضاً الجزء الأكبر من التحصينات السطحية، من غير أن تقع خسائر فى الأرواح. وكان الصدام بين المتسللين المصريين - وعددهم ١٥ رجلاً - ودوريتنا، قد وقع على بعد حوالى كيلومترين ونصف كيلومتر من "كوبرا"، فتوجهت إلى الموقع حتى وصلت إلى مجنزرة نصفية معطلة، احترقت فى أثناء القتال، فنزلت من سيارة القيادة وتابعت طريقى سيراً علي الأقدام، مع الحرص علي تفادى الألغام، التى زرعها المصريون، وهم ينسحبون. وفى طريق العودة، مررنا بالقرب من مدرعتين اسرائيليتين، اصطدمتا فى الظلام، فى أثناء عملية القصف. وكانت بقع الدم، والمازوت، وقطع ممزقة من القماش المحروق، هى كل مابقى من الحادث".

أدرك دايان أن الحرب ستطول إلى أجل غير مسمى برغم تكاليفها الباهظة، وأن اتفاقيات السلام أو اتفاقيات الهدنة على الأقل هى حلم بعيد المنال لأن الواقع الجديد الذى فرضته مصر على اسرائيل لايبشر بأى سلام أو حتى استسلام، ولذلك كان علي الاستراتيجية الاسرائيلية أن تضع هذه العوامل

المتجددة والضغوط المتصاعدة فى اعتبارها على المدى الطويل. وقد بدأت ملامح هذه الاستراتيجية تتشكل مع تعيين حاييم بارليف رئيساً للأركان فى ديسمبر ١٩٦٧، خلفاً ليتسحاق رابين الذى عين سفيراً فى واشنطن. وبحث دايان مع الأركان فى إمكان تراجع القوات الاسرائيلية عن القناة، بحيث تصبح خارج مرمى المدفعية المصرية، وفى استخدام دوريات متحركة لمراقبة القناة، أم فى بناء مجموعة من التحصينات الصغيرة، تسيطر على الممر المائى، مع تجهيز المؤخرة بشبكة مواصلات فعالة بحيث تقوم وحدة مدرعة مصغرة بمراقبة المسافة بين حصن وآخر، فى حين تكون مجموعة القوات المدرعة فى القطاع على استعداد للتدخل السريع للمساعدة. ووافق حاييم بارليف على المشروع الأخير وتم اعتماده بالفعل.

ويتجلى الرعب الاسرائيلى من القوات المسلحة المصرية برغم تلقيها أبشع هزيمة فى تاريخها منذ نصف عام فقط، فى الأسلوب الذى تمت به اقامة سلسلة من التحصينات الصغيرة، تحيط بكل منها فسحة تتسع لبعض الدبابات، وحولها سور حجرى. وقام سلاح المهندسين الاسرائيلى بتمهيد الطرق المسفلتة بين سلسلة التحصينات التى احتمت خلف تلال من الرمال، بحيث يتعذر على المصريين رصد التحركات الاسرائيلية بين التحصينات التى جهز كل منها بخمسة عشر مقاتلاً. وكانت المهمة الأساسية لهذه المراكز، هى مراقبة القطاع، وتحريك قوات المؤخرة سواء المدرعة أو المدفعية أو الطيران.

لكن المصريين كانوا بالمرصاد لكل التحركات التى تهدف إلى تعزيز وترسيخ القوات الاسرائيلية، حتى لايفقدوا زمام المبادرة بحيث لم تتوقف المدافع والصواريخ وتسلل قوات الكوماندوز وزرع الألغام فى الأشهر الأربعة التى انتهت فى ١٣ يوليو ١٩٦٩ على حد اعتراف دايان الذى يصرح بقوله:

"وقبيل اتمام خط بارليف، استأنف المصريون حرب الاستنزاف. ففيما كنا نواصل العمل ليلاً، فى

بناء خط التحصينات، ازدادت المبادرات الحربية. ففى خلال الأشهر الأربعة التى انتهت فى ١٣ يوليو ١٩٦٩، خسرنا ٢٩ قتيلاً، وحوالى ١٢٠ جريحاً. . . . وبعد أربعة أيام قامت طائراتنا بقصف أهداف عسكرية بين القنطرة وبورسعيد. وقد دامت الغارة خمس ساعات، فأسقطنا خمس طائرات معادية، وخسرنا طائرتين".

كان هدف دايان الأساسى الضغط على عبد الناصر بقدر الإمكان لعله يجبره على قبول هدنة تسترد فيها القوات الاسرائيلية فى سيناء أنفاسها اللاهثة المتقطعة، ولذلك اقترح دايان على لجنة الدفاع الوزارية، القيام بغارات جوية في العمق، على قواعد عسكرية مصرية. وبين يناير ومارس ١٩٧٠، أغارت الطائرات الاسرائيلية على بعض القواعد فى العمق المصرى بهدف التأثير السلبى فى الروح المعنوية المصرية. وكان دايان سعيداً بهذه المبادرة الاسرائيلية لظنه أنه وضع عبد الناصر فى مأزق لن يستطيع الخروج منه مما يعيد الأمل فى عقد هدنة مسلحة، فقواته ليست على مستوى مواجهة مبادرات اسرائيل العسكرية. لكن دايان تأكد مرة أخرى أن عبد الناصر لن يقبل بأية هدنة من أى نوع، ولن يجلس إلى مائدة محادثات السلام التى تحلم بها اسرائيل.

وكانت حنكة عبد الناصر السياسية لاينضب لها معين. وسرعان ما خرج من المأزق الذى تصور دايان أنه وضعه فيه، وذلك بسفره إلى موسكو فى يناير ١٩٧٠ لأنه أدرك بحسه الاستراتيجى العميق أن اسرائيل ستواصل غارات العمق حتى تجبره على الاستسلام الذى فشلت فى تحقيقه فى أعقاب الخامس من يونيو ١٩٦٧. وكان لابد من ايقافها عند حدها، فطلب فى مباحثاته مع القادة السوفييت، بلا عقد أو حساسيات هو فى غنى عنها، ايفاد قوات سوفييتية إلى مصر. واستجيب إلى طلبه. وبالفعل وصلت إلى مصر وحدات

صاروخية، وفى أول ابريل انضمت إليها ثلاثة أسراب من طائرات المطاردة بقيادة طيارين سوفييت، للدفاع عن أجواء القاهرة والاسكندرية وأسوان. كما تم قيام الخبراء السوفييت بالاشراف على بطاريات سام - ٣ المعقدة.

كان عبد الناصر بهذه المناورة السياسية البارعة قد نجح فى الانتقال بتداعيات المعارك العسكرية الجارية بين مصر واسرائيل من المجال الاقليمى الضيق الخانق إلى المجال العالمى الرحب حيث يصبح من الممكن الضرب على الوتر الحساس المشدود بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى. وهو ضرب خطر لأنه ينذر بمواجهة بينهما لايسعى أحدهما إلى التورط فيها، وهى مواجهة لايمكن حصر تداعياتها وآثارها إذا ما وقعت. وبذلك لم تعد اسرائيل تهدد العمق المصرى بقدر ما أصبحت تهدد السلام العالمى. وكان عبد الناصر يدرك جيداً أنه ليس فى وسع الاتحاد السوفييتى رفض الاستجابة لطلباته، لأن مثل هذا الرفض لايعنى سوى تكسير سيقان الاتحاد السوفييتى التى ظلت تحلم بالخوض فى المياه الدافئة، والتواجد فى قلب العالم لمواجهة الامبريالية الغربية بصفة عامة والأمريكية بصفة خاصة. وتحول المأزق الذى صنعه دايان لعبد الناصر إلى مصيدة للطائرات الاسرائيلية بحيث يعترف دايان بخطورة المأزق غير المتوقع قائلاً:

> **"كنا جميعاً نقدر خطورة الوضع. فالمسألة ليست مسألة تحديد: من هو الطيار الأبرع ؟ بل هى مسألة الاستمرار فى السعى إلى تحقيق أهدافنا الأساسية، وفى الوقت نفسه تجنب الصدام مع السوفييت".**

لكن من الواضح أن دايان كان يحلم بتحقيق هدفين لايمكن الجمع بينهما. ومن الواضح أيضاً أن عبد الناصر كان يضع هذه الصعوبة بل الاستحالة فى اعتباره، فما لايستطيع تحقيقه بالقوة العسكرية، يمكن تحقيقه بالتخطيط السياسى. ذلك أن السياسة امتداد للحرب، والحرب تطبيق للسياسة. فهما وجهان لعملة واحدة فى زمن الحرب، تتمثل فى صمود الأمة فى مواجهة

التحديات المصيرية التى تهدد كيانها.

ويستشهد دايان بالرسالة التى بعث بها تشرشل إلى الرئيس أيزنهاور، مباشرة فى أعقاب حملة السويس عام ١٩٥٦، متمنياً أن يكرر التاريخ نفسه وتخفف الولايات المتحدة من ضغطها على اسرائيل فيما يتصل بالمواجهة مع السوفييت. ففى عام ١٩٥٦ مارست الولايات المتحدة ضغطاً قوياً على حليفتيها فرنسا وانجلترا لسحب قواتهما من مصر، فاستجابت الحليفتان فى الحال. لكن تشرشل الذى لم يكن رئيساً للحكومة، كان يأمل فى أن يقنع حليفه فى الحرب العالمية الثانية، بتخفيف الضغط، خشية أن يؤدى الانسحاب إلى دخول السوفييت إلى الشرق الأوسط وفرض وجودهم فى المنطقة. وأكد تشرشل فى رسالته إلى أيزنهاور على أن أى انتصار لعبد الناصر سيكون انتصاراً أكبر للاتحاد السوفييتى. وينهى رسالته بقوله:

"إننى أكتب هذه الرسالة لمعرفتى بالمكان الذى يقع فيه القلب. فأنتم الآن، الشخص الوحيد الذى يمكنه التأثير فى الأحداث، سواء فى الأمم المتحدة أو فى العالم الحر؛ فلا تضيع القضايا الجوهرية فى مهاترات بين الأمم، فإن مسئوليتكم هى، فى الحقيقة، مسئولية كبرى. وليس هناك من يؤمن بجدارتكم، بتحمل العبء، أكثر من هذا الذى يرسل لكم أفضل التمنيات، صديقكم القديم.

وينستون تشرشل".

ولعل غرور موشيه دايان بل بالأحرى عقدة نقصه من عبد الناصر، هى التى جعلته يستشهد فى مذكراته بهذه الرسالة، ويؤكد أنها جديرة بالقراءة عدة مرات، لاسيما لعلاقتها المباشرة بالوضع الذى نشأ بالنسبة لاسرائيل بعد المواجهة مع الطيارين السوفييت فى يوليو ١٩٧٠. فهو يرى أنه إذا كان

تشرشل يضع عبد الناصر على نفس مستوى الاتحاد السوفييتى فى قدرته على التأثير فى مجريات الأحداث العالمية، وهو الذى لم يتول الزعامة الحقيقية لمصر إلا قبل عامين من العدوان الثلاثى علي مصر، أى منذ عام ١٩٥٤عندما برز بصفته القائد الفعلى لثورة يوليو ١٩٥٢، فإن دايان يعتقد فى قدرة اسرائيل على مواجهة السوفييت لأنها لاتقل في خطورتها وتأثيرها عن الدور الذي لعبته انجلترا وفرنسا فى عام ١٩٥٦، والذى اضطرتا إلى إنهائه تحت ضغط الولايات المتحدة التى عادت إلى الضغط على اسرائيل فى عام ١٩٧٠ خوفاً من احتمالات المواجهة الكونية مع السوفييت. لكن دايان ينسى أو يتجاهل الفرق بين مصر واسرائيل فى هذا المجال. فلم يكن الاتحاد السوفييتي سو ي صديق أو زميل لمصر فى حربها المتواصلة ضد قوى الامبريالية المتربصة بها في حين لم تكن اسرائيل سوى ذيل أو مخلب للأطماع الأمريكية فى المنطقة، ولذلك فالقياس مستحيل برغم رغبة دايان الحارقة فى اشباع الغرور الاسرائيلى. فلا وجود لاسرائيل بدون الولايات المتحدة الأمريكية، لكن التاريخ يشهد الآن بأن مصر التى صنعت أول حضارة إنسانية على وجه الأرض، وأصبحت الصخرة التى تكسرت عند سفحها كل أمواج الغزو عبر آلاف السنين، ستظل رمزاً للصمود والخلود فى حين اندثر الاتحاد السوفييتى كأنه لم يكن بعد أن كان القوة العظمى الثانية فى العالم. وما فعله عبد الناصر فى حرب الاستنزاف كان أكبر دليل عملى علي قدرة مصر الحضارية علي مواجهة أعتى التحديات وأقسى الظروف التى تحولت إلى بوتقة، انصهر فيها معدنها الثمين ليعود إليه تألقه ووميضه. إنها عودة الروح التى جسدها توفيق الحكيم فى روايته المشهورة، أما روح اسرائيل فرهن بالولايات المتحدة الأمريكية التى توحى لليهود بسيطرتهم الفائقة على مقدرات الأمور داخلها، وترضخ لكل طلبات المساعدة التي تتقدم بها اسرائيل فى كل المجالات، فى حين أن اسرائيل كقاعدة أمريكية فى المنطقة أرخص بكثير مما لو استعانت أمريكا بجنودها وقواتها البحرية والجوية وأحياناً البرية فى وضع المنطقة تحت

سيطرتها وتهديدها. يكفيها وفراً أن الجنود الاسرائيليين يقاتلون ويموتون بدلا من الجنود الأمريكيين. وكانت اسرائيل تظن أنها فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ قد استطاعت شن الحرب التي تنهى كل الحروب وأن السلام أو الاستسلام المصرى قادم إليها يجر أذيال الخيبة ويعض بنان الندم، لكن عبدالناصر أثبت لها عملياً، برغم هزيمته، أن كيانها سيظل مصنوعاً وأن موقفها الذى وضعتها فيه الإمبريالية العالمية سيزداد حرجاً، ولن تتمتع بالاستقرار الذي تحلم به.

وبرغم تأييد الرئيس الأمريكى نيكسون لدايان بأنه إذا دخل السوفييت اللعبة فلن يبقى الأمريكان خارجها، فان الخط المشترك الذي صنعه عبد الناصر بين مصر والاتحاد السوفييتى شكل ضغطاً مباشراً علي توجهات السياسة الأمريكية. وقد تجلى هذا التوجه فى لقاءات دايان بروبرت أندرسون الذى كان وزيراً للخزانة فى عهد ايزنهاور، ثم أصبح من خبراء البترول، خصوصاً فى الشرق الأوسط، فكانت له صداقات مع مختلف الزعماء العرب. وكان دايان يحرص على لقائه في كل مرة يزور الولايات المتحدة. فقد كان يحترمه ويتوق إلي التحدث معه والاستماع إلى آرائه برغم أنه كان يبدى آراءً لايستسيغها دايان دائماً. وماقاله له فى زيارة دايان لواشنطن في ديسمبر ١٩٧٠ - أى بعد رحيل عبد الناصر بحوالى شهرين - لم يرضه على الإطلاق، وهو على حد قول دايان:

"علينا أن ننسحب إلي داخل حدود ما قبل حرب الأيام الستة. فان تنفيذ ذلك من مصلحة أمريكا. ومن شأن رفضنا أن يجعل موقفنا غير مقبول".

أى أن قوة الدفع التى حشد لها عبد الناصر كل الطاقات الممكنة ظلت مستمرة بعد رحيله بدليل أن الولايات المتحدة أدركت أن الوضع الجديد، السياسى والعسكرى، الذى رسخه عبد الناصر، أصبح واقعاً لايمكن تجاهله حتى بعد رحيله. بل إن دايان صرح فى محادثاته مع الرئيس نيكسون حين

تناول احتياجات اسرائيل العسكرية بأنه يعلم بأن هناك وعداً أمريكياً أعطى لمصر، يقضى بوقف امدادات الأسلحة لاسرائيل، طوال مدة محادثات روجرز للسلام ، فكان رد نيكسون أنه لايعلم شيئاً عن مثل هذا الوعد. لكن دايان أكد له أن الأمر ليس مجرد شائعة لأن وزير خارجيةمصر، محمود رياض، أعلن ذلك فى مؤتمر صحفى عقده فى واشنطن، قبل أيام ، وأثبت كلامه بوثيقة رسمية. ويصف دايان لحظة المصارحة قائلاً:

"لم تكن مريحة، تلك اللحظة، التى وجه فيها الرئيس كلامه إلى ميلفين ليرد ٠(وزير الدفاع)، سائلاً عن حقيقة الأمر، فما كان من ليرد سوى أن رد بالإيجاب. فأضفت: إننا، على كل حال، نعرف حقيقة الأمور، وهى أن الولايات المتحدة أوقفت بيع الأسلحة لاسرائيل".

لقد أدرك دايان أن الأمور لم تعد كما كانت قبل مناورة عبد الناصر السياسية البارعة، وأنه يحارب اسرائيل بالسلاح والسياسة، وأنه قادر على أن يخرج من جعبته ما لا يتوقعه خصومه وأعداءه الذين قد يظنون أن الحلقات ضاقت حوله واستحكمت ولم يعد هناك منفذ سوى أن يلقى بسلاحه ويستسلم. لقد كان محارباً من طراز فريد بل ونادر بحيث أجبر أعداءه وفى مقدمتهم موشيه دايان على الاعتراف بانجازاته وتحدياته تحت وطأة ظروف تكاد تكون مستحيلة، وكانت شهادته خيرا اثبات لايقبل التفنيد على أن عبد الناصر كتب أروع الصفحات المجيدة والمضيئة فى حرب الاستنزاف التى ظلمت اعلامياً وتاريخياً سواء على المستوى المصرى المحلى أو المستوى العربى الاقليمى، لكنه فى النهاية لايصح إلا الصحيح، ومن هنا كانت شهادة الخصوم والأعداء التى لا يمكن أن يدحضها مكابر أو مغرض لسبب أو لآخر، وخاصة أن ما شهد به الأعداء لابد أن يكون من منظورهم الخاص وبلونه المنحاز، لكن الحقيقة الراسخة التى صنعها عبد الناصر فى حرب الاستنزاف كانت أرسخ

وأضخم وأعمق من كل محاولات اقتلاعها أو تسطيحها أو تجاهلها. ومهما جرت محاولات محمومة لتزييف التاريخ، فإن طاقته التصحيحية التى تتجسد فى انجازات علماء التاريخ ومحلليه الموضوعيين كفيلة بفضح كل المدعين والمزيفين والآكلين على كل الموائد.

(٢) أرييل شارون

أرييل شارون من القادة العسكريين الاسرائيليين المتعصبين تعصباً أعمى لكل ما هو اسرائيلى ويهودى وصهيونى. وكل أعماله وأقواله منذ صدر شبابه تحمل بصمات هذا التعصب. فقد اشترك منذ البداية فى نشاط عصابات الهاجاناه، وهى كلمة عبرية تعنى "الدفاع"، وهى منظمة عسكرية صهيونية استيطانية، كانت قد أسست فى القدس عام ١٩٢١، وارتبطت باتحاد العمل ثم بحزب الماباى برغم أن ميثاقها كان ينص على الارتفاع فوق الحزبية بحكم أنها عصبة عامة للتجمع الاستيطانى الصهيونى. وفى عام ١٩٣٦ انشقت عنها بعض العناصر وكونت مع حركة بيتار تنظيم الأرجون المعروف بتطرفه وارهابه.

وقد تكاملت الهاجاناه من حيث التنظيم والأفرع المختصة، ولم يبق سوى القرار الذى تتحول بمقتضاه إلى "جيش الدفاع الاسرائيلى"، وهو القرار الذى أصدره بن جوريون فور اعلان قيام الدولة الاسرائيلية عام ١٩٤٨ مباشرة. وكان تضخم الهاجاناه واتساع دورها دليلاً على أهمية دور المؤسسة العسكرية لا فى بناء الدولة الصهيونية فحسب بل فى اتخاذ القرارات المتعلقة بمختلف المجالات فيها أيضاً. فهى مجتمع عسكرى فى صميمه وإن ارتدى قادته الملابس المدنية.

فى هذا المناخ العسكرى المتطرف نشأ شارون وترعرع، واشترك فى حرب ١٩٤٨وهو لم يتجاوز العشرين من عمره. وقام بدور حيوى فى حصار الفالوجا وجرح أثناء الحرب. لكنه لم يتوقف عن نشاطه الارهابى بعد انتهاء الحرب وقيام دولة اسرائيل، بل شرع فى تعقب الفدائيين العرب الذين كانوا يتسللون إلى الأراضى المحتلة. وقاد فى عام ١٩٥٢ قوة كوماندوز خاصة عرفت باسم الوحدة رقم ١٠١ أو "جيش دايان الخاص" كما كانوا يسمونها. وكان أعضاء هذه الوحدة غير نظاميين، ويقتصر تدريبهم على

غارات الحدود. وقد قاد شارون "شياطينه" - كما كان يسمى أعضاء الوحدة - فى أول حملة رسمية سرية لهم فى ١٤ أكتوبر ١٩٥٣، فاتجه إلى قرية قبية العربية ودكها على من فيها فسقطت أربعون داراً للسكنى، وقتل سبعون شخصاً، نصفهم من النساء والأطفال. كذلك لم تسلم الماشية من مذبحة شارون. وقد أنكر بن جوريون رئيس الوزراء فى ذلك الوقت علمه بالعملية، وأكد أن جميع وحدات الجيش الاسرائيلى كانت فى ثكناتها. لكنه فى أثناء حرب الاستنزاف، وفى عام ١٩٦٩ على وجه التحديد، صدر "كتاب المظليين" الذى تحدث متباهياً وفخوراً بهذه العملية الناجحة !!

وقد اشترك شارون فى حرب ١٩٥٦ ثم فى حرب ١٩٦٧ حيث قاد المجموعة التى استولت على ممر متلا. وقد عين بعد الحرب قائداً للمنطقة الجنوبية حيث طرد ٦٠٠ بدوى من ديارهم فى رفح. وهو يكن للقوات المسلحة المصرية حقداً دفيناً منذ حرب ١٩٥٦ حين هاجمت القوات الاسرائيلية من الجنوب واحتلت القسيمة، غير أنها اصطدمت بمقاومة عنيفة فى أبى عجيلة: ثلاثة أيام من المعارك الدامية، لم يتراجع المصريون فى نهايتها إلا لنفاد احتياطهم من ماء الشرب، وذلك طبقاً لشهادة شارون نفسه فى مذكراته. وفى أعقاب حرب ١٩٥٦ كان بالمرصاد لكل استعدادات المصريين فى سيناء لأية حرب محتملة. أى أن المصريين لم يكونوا نائمين فى العسل كما حاولت الأقلام والأبواق المغرضة تصوير قواتهم المسلحة بعد حرب ١٩٦٧. يقول شارون فى مذكراته:

"كان المصريون قد أعادوا منذ ١٩٥٦ بناء تحصينات أبى عجيلة على النمط السوفييتى الذى يفضل الخط الدفاعى المستقيم. فعلى بعد ما يقرب من خمسة وعشرين كيلو متراً من حدودنا يمر طريق

الاسماعيلية بمرتفع رملى طويل يدعى حَدَب أم قَطَف. وقد أعد المصريون فيه ثلاث شبكات من الخنادق المتوازية التى تقطع الطريق. وكان كل من هذه الخنادق، المحفورة شمال الطريق فى كثبان رخوة وجنوبها فى قمم مسننة وتلال خفيضة مليئة بالفجوات والشروخ، يمتد بطول عدة كيلو مترات، ويحوى بطاريات مدفعية ومخازن ذخيرة وممرات جانبية للاتصالات. وإلى الشرق من الخندق الأول يمتد حقل مزروع بالألغام. ويدافع عن الموقع المحصن لواء من المشاة كما تحمى طوبوغرافية الأرض جنبيه، فيشكل حاجزاً منيعاً".

وكلام شارون هذا يعنى أن هزيمة يونيو ١٩٦٧ لم تكن نتيجة لغياب الاستعدادات الضرورية للمواجهة العسكرية، بل كانت نتيجة للتأخر فى توظيف هذه الاستعدادات فى الوقت والمكان المناسبين. وهى استعدادات من الدقة والاتقان والمناعة بحيث كان فى مقدورها أن ترد اسرائيل على أعقابها. فهى تنم عن خبرة عميقة بالعلوم العسكرية سواء على المستوى التكتيكى أو الاستراتيجى. يعترف شارون بقوله:

"على بعد كيلو متر أو اثنين خلف الخنادق تمركزت وحدة احتياط متنقلة، تضم أكثر من ثمانين دبابة مستعدة للهجوم فى كل اتجاه، لتكمل التحصين الدفاعى للمنطقة بأسرها. وإلى جنوب الدبابات غابة حقيقية من المدافع: ثمانون ماسورة ١٢٢ ملم، و ١٣٠ ملم، ذات مدى أطول من

مدافعي. وكانت هذه القوات المتمركزة في مواقعها الدفاعية محجوبة عن النظر، شرقاً وشمالاً، بمواقع تحيط بها لحمايتها، كما كان جناحها محمياً بكتيبة مشاة مدعومة بدبابات ومدفعية ومتخندقة في مكان حصين أطلقنا عليه على سبيل الاصطلاح أو الشفرة اسم "أوكلند".

وبناء على كلام شارون نستطيع القول بأن عبد الناصر عندما تحدى اسرائيل كي تلتزم بحجمها الطبيعي، لم يقدم على خطوة في الظلام، بل اتخذها على أساس عجز اسرائيل عن اقتحام تحصيناته في سيناء، لكنه لم يدرك أن القيادة العسكرية المهتزة والمترددة والمتضاربة ستحيل القوات المسلحة المصرية إلى لقمة سائغة بين فكي الجيش الاسرائيلي، خاصة بعد التأكيدات الواثقة التي كررتها القيادة على أسماعه قبل الحرب. ولذلك يمكن القول بأن الاسرائيليين لم يهزموا المصريين في يونيو ١٩٦٧ لأن المصريين كانوا قد هزموا أنفسهم بأنفسهم عندما أصبحوا كياناً أو جسماً ضخماً بلا عقل يوجهه، مع غياب دور القيادة منذ اللحظات الأولى للقتال، ولم تفلح الدفاعات الحصينة في حمايتهم في مواجهة التخطيط الدقيق والتفصيلي للقيادة الاسرائيلية. يقول شارون:

"لهدم أبي عجيلة كان يجب التعرف على نقاط ضعفها واستثمارها. يضاف إلى ذلك أن القوات المتحصنة فيها متمرسة بالمعارك الدفاعية. لم يكن عددها يقل كثيراً عن عددي، لكن قوة نيرانها كانت في المقابل تفوق ما عندنا. كما كنا بعيدين عن النسبة الحسابية القائلة بوجوب اطلاق ثلاثة جنود مهاجمين مقابل جندي واحد مدافع، وهي نسبة تعتبر عموماً حداً أدنى في هجوم ضد مواقع محصنة سلفاً. ولذلك

كان يجب أن يتم تركيز تكتيك المعركة على تكثيف قوة الضرب وعلى المفاجأة وعلى المناورة. وكان علىّ أيضاً أن أهاجم ليلاً وفق تكتيكنا التقليدى الهادف إلى تقليل مفعول التفاوت فى القوات ومفعول المواقع المحصنة".

ولذلك كان الهدف الأول لفرقة شارون هو فتح المحور المركزى، أى الطريق بين بئر سبع والاسماعيلية. وهو الطريق المقطوع بتحصينين فى كل من أبى عجيلة والقسيمة، وهما فى الواقع تجهيزان دفاعيان، كل منهما مستقل عن الآخر، لكنهما يتساندان وتحتلهما الفرقة المصرية الثانية. كانت استحكامات أبى عجيلة تقطع الطريق مباشرة، فى حين كانت استحكامات القسيمة تقع على بعد ثلاثين كيلو متراً إلى الجنوب الشرقى. واستفاد شارون من درس ١٩٥٦ حين هاجم القوات المصرية من الجنوب. فقد قرر فى ١٩٦٧ أن يطبق على المواقع من الشمال والغرب والشرق، بحيث تستدير قواته حول المواقع فى الشمال لتفاجئ المصريين وتبلغ بأسرع ما يمكن الطرق التى تمر خلف أبى عجيلة والقسيمة. وكان مخطط شارون ينهض على هجوم متناسق بين مختلف عناصر قواته ضد خنادق المصريين وتجمعات دباباتهم ومدافعهم، بحيث تشن الهجمات من الشمال والغرب فى ظهر أبى عجيلة، ومن الشرق فى المواجهة، لخلق سلسلة من المفاجآت تقوم فيها كل وحدة مهاجمة بحماية جناح الأخرى. واذا كانت العملية تعتبر فى نهاية المطاف شديدة التعقيد فإن دور كل لواء سيجمع بين البساطة والمشقة، لكنه يظل بسيطاً سلساً فى النهاية. وسر النجاح يكمن فى تنسيق وثيق جداً بين مختلف الوحدات المهاجمة.

هذا نموذج من نماذج كثيرة شهدتها حرب يونيو ١٩٦٧، وتوضح ببساطة شديدة لماذا انتصر الاسرائيليون على المصريين ؟! ومع ذلك ظلت المقاومة المصرية الباسلة تدافع عن مواقعها برغم عدم وجود خطة أو قيادة عليا تقوم بتوجيهها. يصف شارون هذه المقاومة الباسلة بقوله:

"استلمت رسالة من ناتكى الذى كان قد اخترق مؤخرة الجهاز الدفاعى المصرى المتجه شرقاً، وكان يشكو من قذائف مدفعية تنهال عليه من الأمام دون أن يستطيع تحديد مصدرها. لذلك أمرت زيبورى، الذى كان يهاجم بلوائه على طول الطريق فى اتجاه الغرب، باسكات مدافعه، ثم سألت ناتكى اذا كان القصف لايزال مستمراً عليه، فأجاب بنعم. حينئذ قلت له: "تستطيع الإطباق عليهم بقدر ماتريد. إنهم المصريون".

هكذا كان الصمود المصرى الذى تحول إلى هجوم برغم غياب القيادة. فمثلاً عند منتصف ليل الخامس من يونيو كانت القوة الاسرائيلية المتربصة بالنجدات المصرية قد أخذت موقعها مقابل القسيمة. وفى تلك الأثناء كانت الكتيبة المدعومة بدبابات السنتوريون تهاجم تحت إمرة ناتكى موقع أوكلند، محور الجناح الشمالى المصرى. وعلم شارون من جهاز الاستقبال معه أنها تصطدم بصعوبات جسيمة لم تكن متوقعة على الإطلاق. وظلت المعركة متأججة منذ منتصف الليل حتى الساعة الرابعة فجراً حين احتلت دبابات ناتكى الموقع المصرى بعد خسائر فادحة فى الأرواح. لكن ناتكى نفسه لم ينج من الضربات المصرية لأن عربته المصفحة أصيبت اصابة مباشرة بقذيفة مصرية سحقت ساقيه، ونقل على أثرها إلى المستشفى ليمر بثمانى عشرة عملية جراحية جنبته بتر ساقيه لكنه فقد قدرته على المشى إلى الأبد.

كذلك فى حوالى الساعة الثالثة والنصف فجر السادس من يونيو سمع شارون عبر جهاز اللاسلكى صوت دانى مات قائد المظليين، يطلب بيأس طائرات هيلوكوبتر لإخلاء جرحاه. وكان جهاز القيادة يلح بلا انقطاع فى معرفة مواصفات أرض الإنزال. فكل المنطقة كانت مضاءة بالانفجارات والقذائف، ولم يكن فى وسع الطيارين التمييز بين دخان المظليين ودخان

الوقود المشتعل. ولم يستطع شارون أن يرشد الهيلوكوبتر مباشرة بين الكثبان التى لجأ إليها دانى مات، إلا بعد أن اخترقت عرباته القيادية جهاز الدفاع المصرى المستميت. ومع ذلك عجز قائد الهيلوكوبتر عن تلمس طريقه وسط الجحيم الذى صنعه المصريون فى المنطقة. كانت باقى طائرات الهيلوكوبتر فى تشكيله تدور فى المنطقة لعلها تحدد مكان المظليين الجرحى، كل بجهده الشخصى، وطال بهم الأمر حتى السابعة صباحاً حين وجدوا المظليين هائمين على وجوههم فى الصحراء وبينهم تناثر الجرحى الذين نقلتهم الطائرات مع القتلى لاسعافهم أو دفنهم.

أما عن بطولات الفرقة المصرية السادسة فيعترف شارون أنها كانت معسكرة قرب الكونتيلا وسرعان ما شقت طريقها إلى قلب النقب لتعزل ايلات عن باقى اسرائيل، ولولا سقوط أبى عجيلة والقسيمة لما اضطرت إلى القتال متراجعة على امتداد طريق متلا. واحتدمت المعركة بينها وبين قوات شارون الذى استمات فى ضربها لأنه كان يعلم جيداً أنها اذا بلغت ممر متلا فإنها تستطيع أن تعرقل تقدم قواته نحو قناة السويس. وهى اذا كانت تقاتل فى العراء بهذه الشراسة برغم كل الاحباطات المحيطة بها، فما الذى يمكن أن تفعله لو تمكنت من السيطرة على الممر ؟! يروى شارون ما جرى فيقول:

"وما كدنا نبدأ هذا السباق مع الوقت للحاق بالمصريين المنسحبين حتى بدأت المشاكل تتدفق. فالوادى الذى كنت أنوى اجتيازه للتوجه جنوباً كان لايزال موحلاً بعد الأمطار المتأخرة فى هذه السنة. وفيما كنا منشغلين بالمناورة لمغادرة الوادى بعد محاولة فاشلة لاجتيازه تعرضنا لنيران كثيفة من الصواريخ المصرية أحدثت بلبلة كبيرة فى صفوفنا. فدباباتنا وعرباتنا المصفحة كانت متمركزة فى أرض ضيقة نسبياً وهى تجاهد للتخلص من الأوحال. وأقل

ما يمكن قوله أن هذا القصف المصرى جاء فى أسوأ الأوقات، مما اضطرنى إلى القفز على غطاء محرك عربتى بكل ثقلى فى محاولة لتقويمه لعلنى بهذا أضرب المثل لضباطى وجنودى على الهدوء الذى يجب أن يحل بدل الفوضى المستشرية".

هكذا كان المصريون يقاتلون فى السابع من يونيو ١٩٦٧ لدرجة أن شارون لم يجد مفراً فى مذكراته من الاعتراف ببطولاتهم التى توهجت فى ليل الاحباط والتشتت والضياع الذى خيم عليهم. كذلك فنحن لانجد أثراً للعبقرية الاسرائيلية العسكرية التى طالما تباهى بها شارون وأمثاله من صقور اسرائيل، إذ أن القوات الاسرائيلية برغم المكاسب التى أحرزتها فى غيبة القيادة المصرية العليا، كانت ترتكب من الأخطاء الفاحشة ما يؤكد أن تلك العبقرية هى مجرد دعاية للاستهلاك المحلى والعالمى على حد السواء. فبعد أن أعاد شارون تنظيم صفوفه بصعوبة بالغة، يقول:

"أمرت الألوية أن تأخذ طريقاً آخر أبعد قليلاً إلى الشرق. لكن مشكلة أخرى طرأت: ظهر طابور دبابات إلى الغرب منقضاً علينا وفاتحاً كل حمم مدافعه. عرفناه فوراً: كان لواء فرقة يوفيه، عبر أبى عجيلة خلال المعركة. والأرجح أنه تابع تقدمه غرباً ثم انحرف إلى الجنوب والشرق على أمل شبيه بأملنا. قطع الطريق أمام المصريين المتهالكين على الوصول إلى ممر متلا، وعندما شاهدنا رجال اللواء من بعيد ظنونا الفرقة المصرية التى يتعقبونها فهاجمونا بقوة".

ومثل هذا الخطأ العسكرى الفادح، ترتكبه الفرق أو الألوية عندما تكون واقعة تحت وطأة ضغوط متصاعدة، تجعلها تبادر بالقصف لمجرد الشك

الطارئ فى القوات المواجهة دون التيقن من هويتها، لأن مثل هذا التيقن قد يستغرق زمناً يفقدها زمام المبادرة، خاصة إذا كانت قوات العدو لاتتوانى لحظة فى الضرب بمنتهى العنف والشراسة فى مبادرات خاطفة مثل تلك التى مارستها الفرقة المصرية السادسة فى مواجهتها. وقد يتساءل البعض عن السر فى عدم الاتصال لاسلكياً بالفرقة الضاربة، فيجيب شارون قائلاً:

"حاولنا تحذيرهم بالراديو لكننا فشلنا دون أن نتمكن من معرفة السبب. وتفاقمت الأمور بسرعة لدرجة أن احدى كتائب المدفعية المواجهة لخط رميهم تلقت قذائف خطرة. وبدأ آمر لواء المدفعية بتوجيه مدافعه تحسباً لمعركة ضد الدبابات، وهو يواجه معضلة مؤلمة: الرمى على قوات اسرائيلية أو التفرج مكتوف اليدين على تدمير فوجه. أمرته ألا يطلق النيران، لكننى كنت أسمعه عبر جهاز اللاسلكى أنه يتكبد خسائر:صحت مرتين:"لاتطلق النار !"، ثم أمرت ضابط عملياتى أن يركب الجيب ويتوجه لملاقاة دبابات يوفيه ليطلعهم على سوء تقديرهم المدمر. كانت المهمة تتطلب شجاعة نادرة فى مواجهة مدافع الدبابات الفاغرة فاها. لكن المناورة نجحت فجنبتنا كارثة".

وحتى فى يوم الجمعة التاسع من يونيو حين تحطمت القوات المصرية ولم يبق أمامها سوى الانسحاب بأسرع ما يمكن، كان الجنود المصريون فى تراجعهم حريصين بقدر الامكان على انزال أية خسائر فى أية قوات اسرائيلية فى طريقهم، وهذا ليس شأن الهاربين الذين يريدون بلوغ المناطق الآمنة بأسرع ما يمكن. يحكى شارون أنه كان على متن طائرة نحو بير تمادة فى الغرب حين أخبره الطيار أن عطلاً ما طرأ على المحرك ولابد أن يهبطوا.

يضيف قائلاً:

> **"حتى ذلك الوقت كنا نطير فوق الطريق لنبتعد عن مرمى المصريين المنسحبين المنطلقين بين الكثبان والنتوءات. ولكن بما أننا كنا نطير على ارتفاع منخفض أطلق علينا النار بعض الجنود المصريين فقابلناهم بالمثل حتى حطت الطائرة على الطريق، وللحظة تساءلت ما عسى أن يحدث لنا. يالسخرية القدر القاسية: قبل أقل من ساعة كنت فى أمان بين أفراد فرقتى، والآن أجدنى وحيداً متروكاً بين مئات المصريين المسلحين واليائسين".**

ويعترف شارون بخسائر اسرائيل فى الأرواح، وبانتصارها المرير برغم غياب القيادة المصرية التى لو كانت قد أدارتها بأقل قدر من التخطيط والتنسيق والتنظيم، لكان للمعركة برمتها شأن آخر. كان شارون كلما اتصل بزوجته هاتفياً، كانت تخبره بوفاة صديق قديم أو ابن له صرع فى المعركة. أى أن الانتصار الاسرائيلى كان فى حد ذاته محنة أو مأساة سرت بالجروح والآلام فى المجتمع الاسرائيلى، وإن كانت الدعاية الاسرائيلية قد حاولت أن ترسخ فى الأذهان أن عهداً جديداً حافلاً بالأمجاد والأحلام الكبار قد بدأ. وكان شارون فى مقدمة الذين ضربوا على هذه الأوتار الصاخبة المتفائلة، وخاصة أنه يؤمن بأن السلام ليس سوى "قصاصات ورق" - على حد قوله - ولايمكن المخاطرة بوجود الشعب اليهودى بالاعتماد عليها. فهو لايخفى نواياه الحقيقية حين يقول: "إن بقاءنا لايمكن أن يرتهن فقط بالثقة فى حسن نوايا الآخرين، فعلينا أن نرسى هذه الثقة على "وقائع"، أى على ترسيخ البلاد والدفاع عنها". وهو ما أكده بعد ذلك فى عامى ١٩٨٠ و ١٩٨١ حين اشترك فى المفاوضات مع مصر اذ قال إنه لايصدق المصريين، ولايضع ثقته فى قطعة ورق وقعوا عليها. فقد كان هذا هو احساسه فى عام ١٩٦٧، ثم فى

أعوام حرب الاستنزاف التى أكدت له أنه:

"مهما كانت طبيعة الاتفاق الذى نفكر فى الحصول عليه، ومهما كانت قيمته، كنت عاقد العزم على فعل كل ما كان فى وسعى لإرساء وقائع من شأنها أن تؤمن لنا سيطرة استراتيجية".

أى أنه لم يكن يريد ترسيخ السلام بل فرض الأمر الواقع والهيمنة الصهيونية، وأن أى اتفاق سلام فى نظر اسرائيل ليس إلا خطوة تكتيكية فى انتظار ظروف مواتية أفضل. وبذلك يصبح السلام استثناء من القاعدة التى تتمثل فى الصراع بمختلف صوره العسكرية والمادية على حد السواء، وإن بدا الموقف بصورة مغايرة. وقد تركزت هذه الأحاسيس والتوجهات عند شارون فى أثناء حرب الاستنزاف. لقد خالجه شعور بأن نصرهم لم يكن كاملاً بعد أن دفعوا ثمناً باهظاً لم يجعل المستقبل مشرقاً أمامهم. كما أن هذا النصر المكلف جداً كان شديد الهشاشة، والإبقاء عليه يكلفهم مجهودات ضخمة وصعوبات جمة.

ولذلك أفرد شارون فى مذكراته فصلاً كاملاً عن حرب الاستنزاف، مثله فى ذلك مثل معظم الزعماء والقادة الاسرائيليين الذين أفاقوا من أحلامهم الجميلة الرائعة فى أعقاب الخامس من يونيو على الاستنزاف الذى بدا فى أول الأمر حلماً مزعجاً سرعان مايزول بمجرد الاستيقاظ، لكن الأيام أثبتت أنه كابوس تشتد وطأته مع الأيام بعد أن استطاع عبد الناصر أن يرتفع بقواته المسلحة من درجة الصفر إلى مرحلة الصمود والتصدى والمواجهة والهجوم. ولذلك رأى شارون فى حرب الاستنزاف أخطر مشكلة تواجه قيادة الجبهة الجنوبية التى تسلمها فى نهاية ١٩٦٩ حين بلغت حرب الاستنزاف أوجها بعد سنتين من استمرارها وتصاعدها. يقول عنها:

"لم تكن هذه الحرب المقنعة تهدد وجود اسرائيل نفسه، لأنها تجرى بعيداً عن قلب البلاد الحيوى،

الذى عرف لأول مرة حياة سوية. فالبلاجات وأرصفة المقاهى كانت تعج بالناس الذى تذوقوا أخيراً هذا الترف النادر فى اسرائيل: السلام. ولكن على الجانب الآخر كان جنودنا على امتداد القناة يواجهون الموت باستمرار".

أى أن شارون يخدع نفسه أو يحاول أن يخدع الآخرين بقوله إن السلام قد جاء نتيجة لحرب يونيو ١٩٦٧، لأنه فى الوقت نفسه يعترف بأن جنود اسرائيل على امتداد القناة يواجهون الموت باستمرار، والسلام قيمة كلية لايمكن أن تتجزأ بهذه البساطة. وكان اصرار عبد الناصر على حرب الاستنزاف، تأكيداً عملياً ومتصاعداً لاسرائيل على ادراكه العميق لنواياها الاستراتيجية ككيان عدوانى بطبيعته، لايفرق بين السلام والاستسلام. إن لغة القوة هى اللغة الوحيدة التى تفهمها اسرائيل، ولذلك أعلنها عبد الناصر مراراً أن ما أخذ بالقوة لابد وأن يسترد بالقوة. وكانت اسرائيل فى الأيام الأولى بعد حرب يونيو ١٩٦٧ تسخر من هذا الشعار الذى اعتبرته مادة اعلاميةللاستهلاك المحلى، ومحاولة لاستعادة الثقة والكبرياء ورفع الهامات التى انحنت تحت وطأة الهزيمة، لكنها بعد أسبوع أو اثنين أدركت أن الشعار قد تحول إلى كابوس يزحف ليجثم على كاهل جنودها. يقول شارون:

"كان خط بارليف من منظور تاريخى، ثمرة الصدفة أكثر مما كان نتيجة خطة معدة. ففى نهاية حرب الأيام الستة توقف الجنود الاسرائيليون عند الضفة الشرقية لقناة السويس. وبعد أسبوع أو اثنين اضطروا إلى التخندق اتقاء لنيران المواقع المصرية المواجهة".

فى أثناء الحرب عارض موشيه دايان تقدم القوات الاسرائيلية أكثر من اللازم على أساس ضرورة التوقف عند خط ما على بعد عدة كيلو مترات من

القناة. كان يرى أنه ينبغى لهم أن يظلوا قريبين من القناة لصد كل محاولة مصرية لعبورها، ولكن بعيدين عنها إلى حد ما بحيث تأخذ الحياة مجراها السوى على الضفة المقابلة. لكنه نتيجة لظروف ومجرى العمليات العسكرية عند نهاية الحرب التى أوضحت مدى اصرار المصريين على الصمود والتصدى برغم جيشهم الذى تحول إلى فلول، اضطر دايان إلى ترك قواته تتقدم حتى الضفة الشرقية مع حرصه على انشاء خط محصن على بعد مسافة معينة من القناة. ولذلك توقف بالفعل عن اصدار الأوامر باعادة انتشار القوات المتمركزة على ضفة القناة إلى الخط المذكور.

كان قلق اسرائيل واضحاً لاستمرار عبد الناصر فى الحكم على أساس من إرادة شعبية ساحقة، بعد أن ظنت أنها قضت على أسطورته، وأجبرته على التنحى وبالتالى تحول مصر عن كل المبادئ التى نادى بها وسعى إلى تحقيقها. لكن عودته بهذه الشعبية الجارفة، لم تكن تعنى سوى مواصلة التحدى لكل انجازات اسرائيل ومكاسبها فى أعقاب الحرب واهدارها بكل الوسائل الممكنة. وكانت اسرائيل تحسب لعبد الناصر ألف حساب، ليس فقط للكاريزما الكاسحة التى يتمتع بها والتى يمكن أن تحيل الشعب إلى طاقة عاتية، بل للعقلية العلمية الحسابية الدقيقة سواء على المستوى الاستراتيجى أو التكتيكى، وهذا يعنى أن الأمور لن تسير على منوال الأحلام السعيدة التى راودت اسرائيل فى أعقاب انتصارها الذى اختطفه فى غفلة من الطرف الآخر. فعاد جنودها إلى التخندق والتشرنق ليجددوا ذكريات الماضى الذى تخندق فيه أجدادهم فى أحياء الجيتو الشهيرة فى مدن العالم المتناثرة.

وبرغم ادعاء اسرائيل للعبقرية العسكرية بمناسبة أو غير مناسبة، فإن انتصارها الخاطف المقتنص لم يساعدها على امتلاك النظرة الاستراتيجية الشاملة ذات المدى البعيد، بل ظلت تحل مشاكلها يوماً بيوم بناء على تحركات وخطوات الجانب المصرى الذى امتلك زمام المبادرة بعد أسبوع من هزيمته المنكرة. يقول شارون:

"وهكذا فى غياب نظرة شاملة وبعيدة المدى وجدت قواتنا نفسها معرضة للنيران المصرية من دون حماية أو ملجأ، فقررت من تلقاء نفسها بناء المعاقل. وبمرور الوقت اتسعت الانشاءات الدفاعية، وبحلول عام ١٩٦٨ تحولت إلى خط محصن حقيقى. لكنه فى العام نفسه تعرضت مواقعنا لاطلاق نيران كثيفة من المدفعية المصرية الثقيلة. سبب لنا خسائر جسيمة. بعد ذلك صار الانسحاب أو البقاء قضية كرامة، ولذلك كثر الجدال حول وسائل حماية الخط الذى فرضته الأحداث كأمر واقع لابديل عنه".

وهذه الأحداث كانت من صنع المصريين. كان عبد الناصر يؤكد لاسرائيل بكل خطواته المحسوبة استحالة الوضع الذى ترتب على حرب يونيو ١٩٦٧. وهو وضع لابد أن تدفع اسرائيل ثمنه من أرواح جنودها وأموال خزائنها، بحيث يستمر النزيف الاسرائيلى إلى أن تتأكد اسرائيل من عجزها عن مواصلة الانفاق وتحمل كل هذه الخسائر التى ترتبت على انتصارها المفاجئ والمفتعل. يحلل شارون الموقف فيقول:

"لم يحصل أول نقاش عميق حول الدفاع عن سيناء إلا قرب نهاية عام ١٩٦٨ بعد ما تكبدت قواتنا خسائر فادحة على ضفة القناة. وتمخض الجدل عن قرار ينص ليس فقط على البقاء حيث نحن بل على بناء اثنين وثلاثين موقعاً محصناً يمثل كل منها نوعاً من القلعة المصغرة القادرة على الصمود فى وجه القذائف المدفعية الأفقية. وتم انفاق أموال طائلة لبناء الشبكة الدفاعية المعتمدة على نظام من السواتر

الرملية العالية على امتداد القناة، والغرف المحصنة تحت الأرض، ومزالق الدبابات، ومخازن التموين والذخيرة، وطرق الدورية...إلخ. وكان المفروض بهذا المجمع أن يؤمن لنا السيطرة على الممر المائى".

ونظراً لخبرة شارون التى اكتسبها من قتاله ضد المصريين، كان يؤمن أن هذا الخط الدفاعى لن يقف فى وجه الكاريزما الناصرية، خاصة بعد أن امتلك عبد الناصر ناصية الأمور فى القوات المسلحة بتخلصه من مراكز القوى التى كانت السبب المباشر فى الهزيمة. ولذلك ظل شارون يعارض بشدة اقامة خط بارليف سواء قبل تعيينه قائداً للجبهة الجنوبية أو بعد ذلك، وكان يريد الاستعاضة عن قطاعاته وتحصيناته بمواقع دفاعية على التلال الواقعة إلى الشرق. وصدق حدس شارون، إذ أن قذائف المدفعية الثقيلة المصرية ظلت تنهمر عليه كالمطر الذى بلغ ذروته فى ربيع ١٩٧٠. يقول شارون:

"كانت المدفعية الثقيلة المصرية تقذف علينا حممها فى تلك الأيام. ولكى نخفى حضورنا بالعربات التى يمكن أن تثير سحابات من الغبار، كنا نضطر إلى ترك عربة القيادة على بعد مسافة من الحصن والسير على الأقدام. وكان دايان قد كسرت ساقه قبل عدة أيام وهو يقفز هابطاً من طائرة هيلوكوبتر، فكان يستند فى سيره إلى عكازين وهو يمشى بصعوبة بالغة. وكنا فى دورة تفقدية لأحد التحصينات المواجه لبور توفيق والمعروف باسم الرصيف. وكان "الرصيف"، مثل باقى التحصينات، محجوباً عن النظر بجدار سميك يلتف حول فناء داخلى. وفى نفس لحظة اجتيازنا السور،

بدأت القذائف المصرية تنهمر كالمطر.

"وعندما صفرت القذائف الأولى فوق رؤوسنا، تكالب الجميع للاحتماء بالغرف المحصنة تحت الأرض، باستثناء دايان الذى انبطح أرضاً لعجزه عن الجرى. وبصفتى قائداً للقطاع لم أكن أستطيع أن أسمح لنفسى أن أترك وزير الدفاع نفسه على هذا النحو دون أى حماية. لذلك انبطحت إلى جانبه. وعلى هذا الوضع الحرج، عندما كانت القذائف تنفجر حولنا، تلفت دايان ناحيتى قائلاً لى: "إريك، هذا النظام خطأ فادح. عليك أن تقنعهم بتغيير مفهومه من أساسه".

ولم يكتف المصريون بالقصف المدفعى واطلاق الصواريخ على المواقع الاسرائيلية، بل لعب الفدائيون المصريون دوراً متجدداً فى وضع الجنود الاسرائيليين فى حالة دائمة من القلق والتوجس والخوف، إذ لم يعرفوا من أين تأتى الضربات، سواء أكانت فى شكل هجمات ضد الدوريات وعربات التموين والامداد بالذخيرة، أو كمائن تصطاد الجنود الاسرائيليين أفراداً وجماعات. كان الفدائيون المصريون يعبرون قناة السويس تحت جنح الظلام فى مناطق لاتخطر ببال الاسرائيليين الذين يجدونهم فجأة بينهم كالأشباح التى تطلق القذائف وتلقى القنابل. وكان بعضهم يلتقى بالموت دون لحظة خوف واحدة فى حين كان البعض الآخر ينجح فى العودة إلى قواعده سالماً. ولاشك فإن الروح المعنوية عند الجندى الذى يجاهد لتحرير أرضه، تختلف تماماً عن الجندى الذى يحتل أرضاً ليست ملكه. ولذلك كانت نسبة الخسائر فى أرواح الجنود الاسرائيليين أعلى بكثير من الجنود المصريين بحكم امتلاكهم عنصر المفاجأة والمبادرة، وشعورهم بأنهم ينتقمون لزعيمهم عبد الناصر الذى خذلته الظروف فى ظرف تاريخى غير موات. ولذلك يقول شارون:

"خلال السنوات الثلاث لحرب الاستنزاف لم يتوقف المصريون عن اطلاق مدافعهم. ففى كل ساعة كانت قنبلة تنفجر فى قلب التحصينات، حيث ينشغل جنودنا باصلاح الأضرار وتحصين المواقع. وكانت هذه القنبلة أكثر من كافية لشل قدرتهم على الحركة والمبادرة. وكانت هذه المبارزات المدفعية اليومية، بالإضافة إلى اطلاق المدفعية الثقيلة من حين إلى آخر، وإلى الكمائن والغزوات ضد دورياتنا وعربات تموينا، تكلفنا أرواحاً غالية جداً".

ولولا إيمان المصريين بمقدرة عبد الناصر على استعادة كرامتهم التى أهدرت فى يونيو ١٩٦٧، لما خاضوا حرب الاستنزاف بهذه الشراسة بعد أسبوع أو أسبوعين من هزيمتهم على حد قول شارون. كانت الكاريزما التى يتمتع بها عبد الناصر وشخصيته المغناطيسية الآسرة سرعان ما تسرى كمس كهربى فى نفوس المصريين الذين التفوا حوله بنفس الثقة والإيمان والحماس الذى أحاطوه به من قبل فى كل نقاط التحول التاريخى التى اعتاد صنعها، سواء على المستوى العسكرى أو المدنى. ولذلك تحول الوجود الاسرائيلى فى سيناء إلى ضريبة فادحة لاتمت لنزهة المنتصرين بصلة. ومن هنا كان اعتراف شارون بأنه:

"كان واضحاً للجميع أن الجيش الاسرائيلى سيظل هناك حتى توقيع معاهدة سلام حقيقية. وهذه الضريبة الفادحة كانت تعتبر آنذاك جزءاً من المجهود الكلى الذى تبذله اسرائيل للوصول إلى تسوية سياسية مع مصر. وحين كانت المناقشات المحمومة تجرى حول مشاكل تكتيكية وحول أفضل

صيغة لتأمين الدفاع عن سيناء كان هناك اتفاق تام على المستوى السياسى بخصوص الاحتفاظ بمكاسبنا العسكرية حتى تحقيق الاتفاق".

لكن عبد الناصر لم يكن يسعى أبداً إلى صلح منفرد كانت اسرائيل تحلم به، بل كان يعلن باستمرار أن حقوق الشعب الفلسطينى وتحرير الجولان والضفة الغربية والقدس قبل تحرير سيناء الذى تسعى اسرائيل لمقايضته بصلح منفرد. ذلك أن مصر قادرة على تحرير سيناء دون التخلى عن قضاياها العربية القومية، وحرب الاستنزاف أكبر دليل مادى على هذه القدرة التى شكلت ضغطاً متزايداً سواء على الجبهة العسكرية أو المدنية فى اسرائيل، اذ برزت حركة احتجاج شعبية ضد سياسة الحكومة التى أصبحت تضحى بأبنائها من الجنود فى سبيل الاحتفاظ بأراض سوف تجلو عنها إن عاجلاً أو آجلاً. وهى الحقائق التى يعترف بها شارون عندما يقول:

"ولكن عندما كانت قائمة القتلى تطول، برزت إلى الوجود أمام أنظارنا حركة احتجاج شعبية ضد سياسة الحكومة. وبدأ كل شئ بسلسلة من الرسائل التى وجهها طلاب الصفوف النهائية فى بعض المدارس الثانوية إلى رئيسة الوزراء جولدا مائير. وعندما نشرت فى الصحف أثارت تحركات عميقة فى الرأى العام. كما عرضت على خشبة المسرح مسرحية نقدية، لاذعة، ساخرة عن حرب الاستنزاف، عنوانها "ملكة الحمام"، لكن الرقابة منعتها لأنها "تنسف معنويات الشعب".

أى أن اسرائيل التى تتباهى بأنها واحة الديمقراطية والحرية فى الشرق الأوسط تمنع مسرحية هدفها تنوير الجمهور فى قضية تمس مصيره فى الصميم بحجة أنها تنسف معنوياته. فإذا كانت الحقائق التى فرضتها حرب

الاستنزاف على المجتمع الاسرائيلى برمته بهذه الخطورة لدرجة أن مجرد تجسيدها فى عرض مسرحى كفيل "بنسف معنويات الشعب"، فلماذا واصلت القيادة الاسرائيلية عنادها باحتلال سيناء لمجرد أن تمتلك ورقة فى يدها اذا ما حان وقت مفاوضات السلام الذى كان يبدو بعيداً للغاية فى ظل ثبات عبد الناصر على مبادئه القومية العربية واستراتيجيته التى تتجاوز اللحظة الراهنة ولاتغرق بين طياتها. ولذلك صورت المسرحية سيناء على أنها حمام غرقت فيه اسرائيل وإن كانت تصر على أنها لاتزال ملكة الحمام، خاصة وأن الجبهة الداخلية الاسرائيلية غرقت فيه مع الجبهة العسكرية. ولم تفعل الحكومة الاسرائيلية شيئاً تجاه ضحايا الاستنزاف سوى امدادهم بأوهام البطولة والتصدى لكل ما يهدد مصير دولتهم. يقول شارون:

"أبطال الحرب الحقيقيون هم أولئك الجنود المجهولون الذين عاشوا أشهراً طوالاً، ليلاً ونهاراً، فى حصونهم تحت القصف وقذائف العدو المتواصلة. لكنهم لم يكونوا وحدهم. فثمة فرق عديدة من المدنيين كانوا يعملون فى تشغيل الجرافات والجرارات الآلية وغير ذلك من التجهيزات الثقيلة لبناء خطوطنا الدفاعية وتدعيمها بصفة مستمرة. فهؤلاء أيضاً كانوا معرضين دائماً لنار العدو، ومع ذلك بذلوا بلا حساب وبشجاعة وبطولة لايقلل من قيمتها عدم تسليط الأضواء عليهما فى حينه".

أى أن الحرب كانت استنزافاً للمجهود الحربى والمدنى على حد السواء. فطاقات مدنية كثيرة معطلة بسبب تكريسها للمجهود الحربى مما يؤثر بالسلب على الحياة الاقتصادية والتنموية فى اسرائيل بصفة عامة. وبرغم أن اسرائيل أدركت أن عبد الناصر يتصرف على أساس أنه خسر معركة ولم يخسر الحرب، فقد كان من الصعب عليها أن تنسحب من سيناء بلا مقابل، وبالتالى

وجدت نفسها فى مصيدة لاتستطيع الخروج منها بارادتها، ووطدت نفسها على مواصلة الحياة تحت وطأة هذا الكابوس مهما كانت الخسائر فادحة. وقد أخفت حقيقة هذه الخسائر عن الجبهة الداخلية حتى لايصيبها مزيد من التشقق، فى الوقت الذى بذل فيه الحاخام الأكبر للجيش جهوداً مضنية لرفع الروح المعنوية للجنود المهددين بالموت فى كل لحظة يقضونها فى الجبهة الجنوبية. يصف شارون الحالة المتدنية للجنود فيقول:

"كان الحاخام الأكبر للجيش، شلومو جورين، يزورنا باستمرار كى يصلى مع الجنود ويقضى الليل معهم. وعندما يتفق وجودى هناك أفاجأ بنفسى أصغى بأذن إلى الطقس وبالأخرى إلى انفجارات القذائف حولنا. سيظل سراً بالنسبة لى كيف كان هؤلاء الجنود يستطيعون أن يصلوا بصفاء. وهو صفاء كان جورين يفقده أمام وفاة بعضهم. فلقد شاهدته ذات يوم يحفر الأرض بيديه ليستخرج جثث بعض الجنود الذين دفنتهم فى حصنهم قذيفة سوفييتية من عيار ١٥٢ملم. أخرج الجثث الواحدة تلو الأخرى، رافضاً أى عون أو حضور إلى جانبه، وشاهدته منكباً على الرمال، يعمل تحت مظال صغيرة قد تتحطم فى أية لحظة".

كان عبد الناصر واعياً تماماً بالآثار المدمرة لحرب الاستنزاف عندما تجعل من الجنود والضباط الاسرائيليين هدفها الأثير. فلا شئ يصيب اسرائيل فى مقتل سوى خسارتها فى الأرواح البشرية التى لاتستطيع تعويضها، أما الخسائر فى السلاح والمال فيمكن تعويضها بسهولة من ترسانات وخزائن الولايات المتحدة المفتوحة على مصراعيها بلا مقابل وبلا حساب. كان عبد الناصر يهدف إلى نقل الحرب إلى كل بيت فى اسرائيل يموت فيه أو يصاب

أحد أبنائه، بحيث يمكن فى النهاية أن تتحول هذه البيوت إلى تجمع لاتستطيع الحكومة تجنب ثقله وتأثيره على مجريات الأمور العسكرية. أى أن عبد الناصر كان يضغط على اسرائيل من الخارج والداخل حتى تعاودها عقدة الجيتو أو الانعزال أو الحصار التى عانى منها اليهود فى حياتهم المتناثرة فى بقاع الأرض. يعلق شارون على هذه الاستراتيجية الناصرية ويقول:

"عندما أطلق المصريون حربهم الاستنزافية، كانوا يراهنون على الحساسية المفرطة عند الاسرائيليين لخسارة أرواح بشرية، ويأملون فى تكبيدنا ما يكفى من خسائر تجعل الوضع لايطاق فى نظر الشعب. وكنا على علم بما يراهنون عليه، ولذلك فعلنا المستحيل لنبرهن أن مصر هى أكثر عرضة للتجريح منا، وأن قصفهم المتواصل سيرتد عليهم. صحيح أن قوة نيرانهم على طول القناة كانت أقوى من قوتنا، لكننا لم نكن نكتفى بالقصف المدفعى للرد عليهم، ففى عام ١٩٦٩، قبل أن أتولى قيادة الجبهة، كانت قواتنا قد نجحت فى القيام بغارات مثيرة. فى ٢٩ يوليو قامت وحدة من الضفادع البشرية بغزو الجزيرة الخضراء وتدميرها، وهى نوع من الحصن على الطرف الشمالى لخليج السويس، فيها رادار وبطاريات مدفعية مضادة للطيران تسيطر على المجال الجوى".

كانت القيادة الاسرائيلية تحاول بقدر الامكان التخفيف من وطأة الضغط المصرى على الضفة الشرقية للقناة. فقد اضطرت للسيطرة والاحتفاظ بشبه جزيرة سيناء إلى تمركز أكثر من خمسين ألف جندى وضابط فى المواجهات

المختلفة أو الاحتياطى المحلى أو الاحتياطى التعبوى أو أفراد الشئون الإدارية والمواصلات الداخلية أو التخزين أو الورش والاصلاحات الميدانية المتقدمة. وقد أجبرت هذه الأعباء اسرائيل على تغيير وحداتها فى سيناء كل ثلاثة أشهر، والاستعانة بالجنود الاحتياطيين الذين كان معظمهم من اليهود الشرقيين من ذوى القدرة العسكرية المحدودة، حتى لاترهق القوات العاملة المدربة من جراء استمرارها فى هذه المواجهات وتحت وطأة الضربات التى لاتتوقف، سواء اتخذت شكل أعمال قصف أو نسف المنشآت الادارية ومخازن المياه فى سيناء على أيدى الدوريات المقاتلة. وكانت نتيجة هذه الضغوط والضربات والهجمات أن هبطت الروح المعنوية للجنود الاسرائيليين، مما أجبر موشيه دايان وزير الدفاع على زيارةالجنود على الجبهة المصرية يوم ١٥ يوليو ١٩٦٧ لتهدئة مشاعرهم، ولم يكن قد مضى على انتصار اسرائيل الخاطف أكثرمن أربعين يوماً. وكان من الطبيعى أن يشيد دايان بانتصارات الجيش الاسرائيلى فى يونيو ١٩٦٧، لكن الجنود ردوا عليه بقولهم إن هذا الانتصار مثل العملة الورقية ليس لها رصيد مضمون.

هكذا طبق عبد الناصر منذ البداية على اسرائيل المبدأ العسكرى الذى يقول: "إن احتلال الأرض شئ لكن الاحتفاظ بها شئ آخر". ولذلك لجأت القيادة الاسرائيلية إلى ضرب العمق المصرى بالطيران حتى تخفف الضغط على سيناء. وبلغت الغارات الجوية الاسرائيلية ذروتها فى عام ١٩٧٠ لتضرب أهدافاً عسكرية ومدنية فى العمق المصرى، وهى تدرك أنها غارات تستطيع أن تخترق الدفاع الجوى المصرى دون أخطار كبيرة لعدم امتلاك مصر لوسائل الردع الكفيلة بايقاف هذه الغارات عند حدها. ومع ذلك يعترف شارون بالحرف الواحد:

> **"غير أن هذه الغارات على قلب مصر نفسها كانت لاتزال غير كافية لاقناع عبد الناصر بايقاف الضربات والهجمات. بل على العكس، توجه مرة**

أخرى إلى حلفائه السوفييت طالباً منهم أن يزودوه بالوسائل الكفيلة بمتابعة إهراق الدم في المعسكر الاسرائيلى".

وبرغم مرض السكر الذى اشتدت وطأته على عبد الناصر، والنوبة القلبية الحادة التى أصابته، ظل صامداً وصلباً كالصخرة فى مواجهة كل الضغوط العسكرية الاسرائيلية. لم يعدم أبداً القدرة على المواجهة أو المناورة أو التخطيط أو ايجاد المنافذ والبدائل التى من شأنها تطوير استراتيجيته من مرحلة إلى أخرى. كان قادراً دائماً على تكوين قوة الدفع الكفيلة بتحويل قراراته إلى انجازات واقعية يلمسها الجميع. وبالفعل أرسل إليه السوفييت فى بداية ربيع ١٩٧٠ شحنات كثيفة من صواريخ سام ٣ المضادة للطائرات. وهى الصواريخ التى رأى شارون فيها أكثر الأسلحة تقنية فى ذلك الوقت، كذلك كان مايحنق شارون أن عبد الناصر تقبل وجود فرق من الخبراء السوفييت لتشغيل هذه الصواريخ بلا عقد أو حساسيات، مما يدل علي عقليته الحسابية والاستراتيجية التى تجنبه دائماً الدخول فى طرق مسدودة.

كذلك أصبح لدى سلاح الطيران المصرى حوالي مائة طائرة من طراز ميج ٢١، يقودها أطقم سوفييتية كاملة، أتاحت لعبد الناصر حماية جوية قوية، وبذلك استطاع بالسياسة أن يوقف الغارات الاسرائيلية على العمق المصرى بعد أن أدرك أن قدراته العسكرية لاتفى بهذا الغرض. بل إنه غيّر الموازين العسكرية فى المنطقة لغير صالح اسرائيل وأمريكا.

يحلل شارون هذه الخطوة الاستراتيجية فيقول:

"كانت تلك أول مرة يشارك فيها خبراء وضباط وجنود سوفييت، بأعداد ضخمة، مشاركة فعالة في حرب الشرق الأوسط. ولقد امتنعت اسرائيل عن كشف هذا السر أمام الجمهور العريض، وكذلك

فعل الاتحاد السوفيتى من جهته. غير أن الدور الجديد الذى بدأت موسكو تلعبه في الصراع كان يثير القلق برغم سريته. فقد سيطر خمسة عشر ألف جندى سوفييتى من مطلقى الصواريخ والفنيين والطيارين على الشريان الرئيسى التقليدى لأوروبا الغربية والذى يصل القارة الأوربية بالخليج الفارسى، وكان على اسرائيل أن تجابه عسكرياً، لأول مرة فى تاريخها، احدى القوتين العظميين".

وبذلك تلاشت سعادة شارون بالنتائج التى حققتها الغارات الاسرائيلية في العمق المصرى، لأن الفدائيين المصريين واصلوا عملياتهم على الخطوط الاسرائيلية بطول القناة، ثم وصل السوفييت ليغيروا تماماً كل المعطيات الميدانية. ذلك أن قواعد الصواريخ التى كانت من قبل تحمى العمق المصرى، شرع المصريون بتحويلها بالتدريج نحو القناة. وكانت طائرات الميج ٢١ تقوم بطلعات استكشافية لحماية المجال الجوى للقاهرة، موسعة بالتدريج منطقة طيرانها تجاه الشرق. ونظراً لأن الولايات المتحدة لم تتخذ موقفاً أو تبد رأياً بخصوص هذا الوضع الجديد، فقد الزم شارون الحذر الذى عبر عنه بقوله:

"لذلك أعطيت فى البدء أوامر لطيارينا بتجنب المواجهات المباشرة مع المطارادات السوفيتية، ولكن مع مرور الوقت أدركنا فى النهاية أن اسرائيل لاتستطيع أمام هذا الخيار إلا أن تظهر موقفاً حازماً. فعندما نسمح للطائرات والصواريخ السوفييتية أن تحمي ليس فقط العمق المصرى بل منطقة القناة أيضاً، نجازف بخسارة خطوطنا، ونفقد قدرتنا على مواصلة الضغوط على عبد الناصر لإيقاف حرب الاستنزاف، بالإضافة إلي تعريض دفاعاتنا

للخطر".

لذلك ضاعف شارون من قصف المواقع المصرية ، وشرع الكوماندوز الاسرائيليون فى عبور القناة إلى الضفة الغربية شمال القنطرة لتحطيم مايمكن الوصول إليه من مواقع، وحصلت مناوشات بين الطائرات الاسرائيلية وطائرات الميج السوفييتية. لكن الأمور لم تكن بهذه البساطة، إذ أن عبد الناصر شحن الموقف السياسى الدولى بحساسيات يمكن أن تتفاقم وتتحول إلى مواجهة بين القوتين العظميين اللتين تخشيان بطبيعة الحال مثل هذه المواجهة. والولايات المتحدة على استعداد أن تساعد اسرائيل إلي نهاية المدى باستثناء التورط فى المحظور الذى لايستطيع أحد أن يتكهن بنتائجه المخيفة. وكان عبد الناصر يضرب على هذا الوتر المشدود بحنكة بالغة، فلم يكن عبد الناصر بقبوله لتواجد الخبراء والضباط والجنود السوفييت مفرطاً فى السيادة المصرية، لأن نظرته الاستراتيجية كانت أبعد وأعمق من ذلك بكثير. فقد كان يهدف إلى إدخال اسرائيل في الطريق المسدود الذى لاتستطيع الخروج منه برغم مساعدة أمريكا الحميمة لها. ولذلك يعترف شارون بحساسية الموقف وحرجه فيقول:

> **"كان الموقف بالغ الدقة والحساسية. فلم نكن نستطيع غض النظر عن وضع تصير فيه الجبهة المصرية محمية بغطاء جوى سوفيتى، ويسمح للمصريين بمواصلة قصفهم المدفعى والاعداد بهدوء لما كان الرئيس عبد الناصر يسميه "مرحلة التحرير". ولكن من جهة أخرى كان الصدام المباشر مع القوى السوفيتية يحمل فى طياته خطر خلق ظروف جديدة تماماً، لايستطيع أحد التكهن بنوعية أخطارها المحتملة والمتوقعة".**

ودهش شارون عندما قبل عبد الناصر مبادرة روجرز فى ٧ أغسطس

١٩٧٠ برغم درايته بأسلوب عبد الناصر الذى يحمل فى طياته دائماً أكثر من مفاجأة وأكثر من مبادرة، إذ أن معينه من المناورة والمرونة لم ينضب حتى فى أصعب مراحل الحصار التى مر بها. وقبلت اسرائيل المبادرة الأمريكية على الفور وتوقفت المعارك بالفعل، وكانت سعادة اسرائيل بها غامرة لأن نزيف الدم اسرائيلى الذى كان يتفجر يومياً على خط بارليف قد توقف مما منح القادة الاسرائيليين فرصة لالتقاط الأنفاس، وحفظ ماتبقى من ماء وجوههم أمام المجتمع الاسرائيلى الذى أدرك منذ البداية أن عبد الناصر قد جعل من سيناء فخاً لاصطياد زهرة الشباب الاسرائيلى بصفة يومية.

كانت دهشة شارون ومعه القيادة الاسرائيلية كلها لقبول عبد الناصر بوقف اطلاق النار، نتيجة لمعرفتهم بأنه أصبح فى وضع أفضل لاستمرار القتال بعد المساندة السوفييتية التى حصل عليها أخيراً. لكن الدهشة سرعان ما تلاشت عندما حصلوا على المعلومات التي أكدت لهم أنه:

"فى خلال الأشهر الأخيرة كان الروس يدفعون إلى الأمام، خطوة خطوة، منصات اطلاق صواريخ سام ٣، موسعين بذلك مداها فى اتجاه القناة. وكان نقل المنصات هذا قد شكل الهدف الأول للطيران المصرى الذى تحول إلى "مدفعية طائرة". وعندما حاولت اسرائيل وقف تقدم المنصات، دفعت ثمناً غالياً بسقوط عدة طائرات لها. وعندما كان وقف إطلاق النار يدخل حيز التنفيذ، كانت صواريخ سام ٣ وطواقمها تُنقل إلى الشرق. وبدا واضحاً أن المصريين والروس قبلوا هذه الهدنة ليس بهدف التوصل إلى حل، كما نص الاتفاق مع وزارة الخارجية الأمريكية، بل كحيلة تسمح لهم باعادة انتشار صواريخ سام ٣ إلى الأمام دون أن

تتعرض - مؤقتاً على الأقل - لهجمات الطيران الاسرائيلي".

أى أن قبول عبد الناصر لوقف إطلاق النار كان مجرد وسيلة مؤقتة لغايات أشمل وأبعد في استراتيجيته ذات الأبعاد والأعماق المتعددة. وكانت الخطوة الأولى في هذه المرحلة من استراتيجيته تنهض على انتشار الصواريخ حتى يصبح المجال الجوى فوق القناة محظوراً على الطائرات الاسرائيلية التى يحددها شارون بطرازى الفانتوم والسكاى هوك. وبذلك يستطيع المصريون إعادة قصف القوات الاسرائيلية في شرق القناة بكل بطاريات مدافعهم دون أن تستطيع فى هذا الوضع الجديد أن ترد عليهم وبالاضافة إلي ذلك، يستطيعون استكمال استعدادتهم بلا خوف من عقاب، وإذا قرروا عبور القناة فان شارون لايستطيع أن يستخدم طيرانه لإيقافهم. ولذلك يعترف فى مذكراته بقوله:

"إذا قبلنا بهذا الوضع على مضض، نكون قد قبلنا خوض حرب جديدة لامفر منها".

هكذا وضع عبد الناصر اسرائيل فى موقف لاتحسد عليه بعد أن صور لها غرورها أنها كانت وستظل سيدة الموقف بلا منازع. والدليل على ذلك أن قادتها أصيبوا فى أعقاب وقف إطلاق النار بعصبية وتوتر وقلق بل وخوف لم يشعروا بمثله حتى تحت وطأة أشد الضربات المصرية التى كانت تنهال كالمطر على قواتهم. وبذلك أدركوا أن عبد الناصر خصم لايحيد عن أهدافه الاستراتيجية سواء أكانت الجبهة مشتعلة أم هادئة؟! إنه لايترك ورقة فى يده إلا ويلعب بها بمهارة فائقة، بل إنه يصنع الأوراق التى تحقق أهدافه حتى لو كانت يده خاوية من مثل هذه الأوراق. وهو قادر دائماً على تحريك الأمور لصالحه كلما بدت أنها دخلت فى طرق مسدودة وذلك من خلال ابتكاره المستمر للبدائل وقوى الدفع، وفتحه للثغرات والمنافذ التي يطل منها على العالم بمبادرات جديدة يصعب التكهن بأبعادها وآفاقها عند الوهلة الأولى. ولذلك

يعترف شارون بقوله:

"كان الوقت يعمل ضدنا، لذلك أسرعت قيادة الجنوب والأركان العامة إلى فتح باب النقاش حول الاجراءا ت الواجب اتخاذها. من جهتى أوصيت بعمل حازم قاطع. بينت أن علينا أن نجتاز القناة قرب القنطرة لهدم قواعد صواريخ سام في المنطقة ثم ننسحب، مع الاحتفاظ برأس جسر صغير على الضفة المصرية؛ على أن نعلن نيتنا صراحة بعدم التوغل أكثر من ذلك حتى لانشعل حرباً شاملة، مع الاشتراط بعدم قبولنا نشر صواريخ اضافية. وحازت الخطة القبول عندما عرضتها واعتمدتها قيادة الأركان".

لم يكن شارون واعياً بالمستجدات والمتغيرات السياسية التى أحدثها عبد الناصر فى المنطقة، وترتب عليها بطبيعة الأمر متغيرات عسكرية في الموازين السائدة. فقد كان يتصرف بنفس المنطق الذى ساد فكر القيادة الاسرائيلية فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧، ولم يدرك أن حرب الاستنزاف أحدثت من التغييرا ت الجذرية مايصعب تجاهله بهذا البساطة. وهذا دليل علي أنه كان من الصعب التخلص من الغرور والصلف الاسرائيليين اللذين ترسخا في العقيدة العسكرية الاسرائيلية بعد انتصارها الخاطف الذى كان استثناءً لن يتكرر. ولذلك شرع شارون بمنتهى الحمية والحماس فى دراسة النواحى العملية لعبور القناة بالقوة. تفحص بدقة المواقع المناسبة، ومنها القنطرة فى القطاع الجنوبى. وحرص على اختيار مواقع تحمى قوة العبور والانزال البحرى بعامل طبيعى أو أكثر مثل المستنقعات التى يستحيل عبورها عند القنطرة أو خليج السويس عند مدينة السويس. وهكذا يزداد تمكن قوة الانزال من اجراء اختراق محدود للجبهة، وهو ما كان شارون يوصى به دائماً.

وقع اختياره فى النهاية على القنطرة حيث تمتد إلى شمالها وغربها بحيرات ومستنقعات من شأنها أن تؤمن حماية أوسع من تلك التى يوفرها خليج السويس، وذلك بالإضافة إلى سهولة الدفاع عن رأس الجسر فى تلك المنطقة. وفى جنوب القنطرة يتصل أحد فروع النيل بقناة رى من المياه العذبة، موازية لخط المياه البحرية فى القناة. وكما تحمى المستنقعات الجناح الأيمن لقوة الانزال البحرى، كذلك تحمى قناة الرى جناحها الأيسر. وعندما يستقر رأس الجسر فى القنطرة يهدد معظم القوات المصرية المرابطة فى الجنوب.

لكن الحكومة الاسرائيلية كانت تملك من الوعى السياسى ما يفتقده شارون الذى كان كل همه أن يحقق بطولات عسكرية تخلد اسمه، بصرف النظر عما اذا كان فى الإمكان تحقيقها أم لا ؟! كانت الحكومة الإسرائيلية تدرك أبعاد الخطوة الجديدة التى اتخذها عبد الناصر فى مراحل استراتيجيته السياسية والعسكرية ذات النفس الطويل واللاهث فى الوقت نفسه. ولذلك صوتت الحكومة ضد عبور القناة برغم توصية الأركان، وذلك على أساس الاكتفاء بوقف اطلاق النار والسماح بنشر قواعد الصواريخ.

وكان هذا القرار مثار قلق ممض لمن يطلقون عليهم اسم "الصقور" وفى مقدمتهم شارون، اذ أنهم رأوا فى هذا القرار ضعفاً خطيراً، يمكن أن يكون بداية لإهدار كل الانجازات التى تحققت فى أعقاب يونيو ١٩٦٧. فلم يعد الوضع بطول القناة كما كان من قبل، بالإضافة إلى اعتبار خط بارليف بمثابة كارثة وثمرة لعقيدة حربية عفا عليها الزمن، على نمط خط ماجينو، ولايمكن قبولها فى عصر النفاثات والقوات المحمولة إلى أى مكان فى الجبهة. من هنا كان قرار مجلس الوزراء بعدم الرد على نقل المصريين للصواريخ إلى هذا القطاع ينم عن ضعف متناه لم يعهده أحد من قبل فى الجانب الاسرائيلى. وقد عبر شارون عن هذا التوجه فى رسالة إليه من حاخام كبير نشرها فى مذكراته للتدليل على تراجع الحكومة الاسرائيلية فى مواجهة عبد الناصر بدلاً من أن تحاول ردعه. يقول الحاخام لشارون:

"فى البدء كانت الأمور رهن مشيئتنا، لكنها فرضت علينا أخيراً. فمنذ سنة أو اثنتين كان القرار فى يدنا. ومع ذلك فإن الحكومة أنبأت الطرف الآخر من الصراع أن إسرائيل مستعدة لإعادة الأراضى "المحتلة" بدلاً من أن تقول "الأراضى المحررة". كان ذلك خطأ لأنه لايدل إلا على الضعف والاستكانة. فالحكومة الاسرائيلية بامتناعها عن الرد على نقل صواريخ أرض - جو إلى منطقة القناة، تستكين إلى هذا الموقف الجبان".

ويعترف شارون بأنه لم يكن يتابع الشئون السياسية فى تلك الفترة، ولذلك لم يكن فى قدرته الحكم على حتمية هذا القرار الذى أصرت عليه الحكومة، إذ أن عبد الناصر لايقدم على خطوة جديدة إلا بعد أن يكون قد درس كل احتمالاتها، وعمل حساباً دقيقاً لكل نتائجها، وأن ماجرى فى يونيو ١٩٦٧ كان مجرد استثناء من هذه القاعدة بدليل الأداء السياسى والعسكرى المتمكن الذى برز بعد أسبوع أو أسبوعين من الهزيمة التى ظنت إسرائيل أنها ستكون النهاية الحتمية لعبد الناصر، وبدليل المبادرة السياسية والعسكرية التى منحته من قوة الدفع فى ربيع ١٩٧٠ ماجعل الحكومة الاسرائيلية ترضخ لنشر قواعد الصواريخ المصرية دون أن ترد عليه، وتكتفى بوقف اطلاق النار الذى اعتبره شارون "قراراً يقص أجنحتنا من وجهة النظر العسكرية المحضة، وبعد ثلاث سنوات كلفنا وضعاً أدى بنا إلى كارثة خوض حرب كيبور" على حد قول شارون.

أى أن شارون يعترف أن عبد الناصر استطاع بطريقة أو بأخرى أن يقص أجنحة اسرائيل من وجهة النظر العسكرية المحضة. وهذا يعنى أنه لم يتوقف لحظة واحدة منذ يونيو ١٩٦٧ عن تطوير الموقف العسكرى والسياسى ثم تحويله وتصعيده لصالحه، طبقاً لاستراتيجية محسوبة المراحل ودقيقة

الخطوات وتضع كل الاعتبارات الممكنة فى حساباتها. لذلك لم يكن النداء الذى وجهه فى خطابه فى عيد العمال فى أول مايو ١٩٧٠ إلى الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون بمثابة استغاثة بالولايات المتحدة كى ترحمه من أهوال الحرب الجارية على القناة والعمق المصرى كما ظنت إسرائيل فى البداية، بل كان فى واقع الأمر يستخدم أمريكا كأداة لتنفيذ ما فعله فى الجبهة عندما نشر قواعد الصواريخ وغير ميزان الوضع العسكرى فيها دون أن تجرؤ إسرائيل على مهاجمته. وهو ما يفسر قبوله السلس لمبادرة روجرز فى ٧ أغسطس ١٩٧٠ بحيث لم تجد اسرائيل هى الأخرى بدأ من قبولها. أى أن عبد الناصر كان ممسكاً بزمام المبادرة فى يده وإن بدا غير ذلك، بدليل أن اسرائيل كانت ترقص على الأنغام الخفية التى يعزفها وهى تظن أنه بلغ حافة أو هاوية اليأس.

كذلك يعترف شارون أن عنصر المبادرة الذى امتلكته مصر عندما شنت على إسرائيل حرب اكتوبر ١٩٧٣، كان الفضل فيه يرجع إلى الوضع العسكرى الذى فرضه وخطط له عبد الناصر فى ١٩٧٠. فقد شكلت قواعد الصواريخ المنتشرة فى جبهة القناة ستاراً لحماية الجبهة الداخلية والعمق المصرى. وهى قواعد لم يكن من الممكن إقامتها فى فترة وقف اطلاق النار من ٧ أغسطس ١٩٧٠ إلى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وإلا كان من حق إسرائيل أن تشن حرباً وقائية متذرعة فى ذلك بخرق مصر لوقف اطلاق النار، أو باستعدادها لإستئناف الحرب. ولذلك يؤكد شارون أن كارثة اسرائيل فى أكتوبر ١٩٧٣ كانت قد بدأت فى أغسطس ١٩٧٠.

ولم تكن نهاية حرب الاستنزاف بمثابة نهاية لقلق اسرائيل وحيرتها، إذ أن عبد الناصر لم يمنحها أى أحساس بالأمان سواء تحت وطأة قعقعة الحرب أو فى ظل سكون وقف اطلاق النار. كانت تشعر دائماً أن سيناء عارية أمامه ويمكن أن يضرب المواقع الإسرائيلية سواء بالمدفعية الثقيلة أو الصواريخ ذات المدى البعيد أو بالفدائيين أو بالطائرات فى مرحلة تالية، لدرجة أن موشيه

دايان وزير الدفاع فكر مراراً فى سحب كل قوات إسرائيل من منطقة القناة. يقول شارون:

"عندما انتهت حرب الاستنزاف فى أغسطس ١٩٧٠ بحثنا، مرة أخرى، عن أفضل صيغة لحماية سيناء. وهنا أيضاً كنت على خلاف عميق مع معظم ضباط الأركان. لكن موشيه دايان، وقد زادته الحرب خبرة، كان يصرح أكثر فأكثر أنه سيسحب كل قواتنا من منطقة القناة. وكان تفكيره يجمع بين البساطة والمنطق، ذلك أننا إذا بقينا حيث نحن، فإننا نخاطر باشعال مجابهة مسلحة جديدة سيعقبها بالضرورة ضغوط دولية، خاصة وأن اغلاق قناة السويس كان يتسبب فى مشكلات جسيمة للملاحة الدولية. وفى المقابل، فإننا اذا سمحنا لمصر باعادة فتحها، فإننا قد نشجع الرئيس عبد الناصر على احترام عملية السلام معنا".

وعلى الرغم من اقتناع دايان بسلامة هذا التفكير وإيجابية هذا التوجه الذى كان يحلو له صياغته بتصريحات متعددة وملائمة فى لقاءاته مع رفاق السلاح، فإنه، كعادته، كان يتجنب أن يأخذ موقفاً واضحاً ومحدداً، وبالتالى لم تُحل المشكلة اطلاقاً واكتفى بترميم خط بارليف الذى أحدثت فيه المدفعية الثقيلة المصرية أضراراً فادحة، ولكن بلا تجهيز جديد للحصون والمواقع أو تزويدها بأعداد اضافية من الجنود. وظل الموقف فى نظر شارون كثير التقلب وقد ينقلب جذرياً فى أية لحظة.

وكان شارون محقاً فى قلقه وخوفه من أن ينقلب الميزان لغير صالح اسرائيل فى أية لحظة، إذ أن خبرته التى اكتسبها من حرب الاستنزاف أكدت له أن عبد الناصر لايترك الأمور أبداً لتجرى فى أعنتها، بل إنه دائم التفكير

والتخطيط والتصميم والتطوير والتصعيد بلا هوادة، وبايقاع جعل اسرائيل تلهث باستمرار. فمنذ يونيو ١٩٦٧ واسرائيل فى حالة حرب ساخنة لم تشهد مثيلاً لها من قبل. فبعد نهاية العمليات العسكرية بقليل بدأ المصريون سلسلة من التراشق المدفعى المكثف مقرونة بكمائن ضد القوات الإسرائيلية المرابطة على الضفة الشرقية للقناة. ثم جاء مؤتمر القمة العربى فى الخرطوم فى بداية سبتمبر ١٩٦٧ حيث اتفق الملوك والرؤساء العرب على ما سمى "بسياسة اللاءات الثلاثة": لا للمفاوضات مع اسرائيل، لا للاعتراف باسرائيل، لا للصلح مع إسرائيل. ويعلق شارون على ذلك بقوله:

"كانت النتيجة العملية والمباشرة لمؤتمر الخرطوم تصعيد جهود الحرب المصرية التى كانت حتى ذلك الوقت متقطعة وتجريبية. وفى منتصف سبتمبر وزع المصريون مدفعيتهم الثقيلة، مستهلين بذلك تراشقاً مدفعياً عبر القناة، وفى ٢١ أكتوبر أغرقت صواريخ مصرية البارجة الاسرائيلية ايلات، التى كانت تقوم بأعمال الدورية فى المياه الدولية، مع طاقمها المؤلف من سبعة وأربعين رجلاً. وعلى سبيل الانتقام دمرت مدفعيتنا، بعد أربعة أيام، المجمع البترولى والبتروكيماوى الواقع فى ضاحية مدينة السويس.

"ثم عادت الأعمال العدائية إلى وتيرتها السابقة، التى يمكن احتمالها نوعاً ما، ولكن خلف هذا الهدوء النسبى كانت مصر تعمل بسرعة فائقة على إعادة بناء جيشها وطيرانها، مع مساعدة كثيفة من الروس، وبتجهيزات شديدة التعقيد. وكان كل هذا العتاد الحربى يرسل مرفقاً بمستشارين عسكرين

سوفييت. . . . . . . وفى تلك الأثناء كانت الفرحة العارمة فى إسرائيل آخذة فى الهبوط، وبات واضحاً للجميع أن قناة السويس ستصبح الآن حدوداً متفجرة".

من هنا نبتت فكرة بناء خط بارليف الذى كان شارون رافضاً له بكل إصرار. كان هذا الخط بطول القناة رداً على قصف المصريين المدفعى المتواصل وعلى مشاريعهم الهجومية، وحماية للقوات الإسرائيلية من المدفعية المصرية، وتأمين فى الوقت نفسه مراكز مراقبة متقدمة لها. وفى حالة الهجوم تستطيع هذه التحصينات أن تصد القوات المصرية على خط المياه، وتمنعها من إقامة رأس جسر فى شبه جزيرة سيناء. أما على المستوى السياسى فهى كفيلة بابراز السيطرة الاسرائيلية الفعلية على كل سيناء.

كان شارون ضد هذا المشروع لأنه يفرض على القوات الاسرائيلية دفاعاً استاتيكياً ثابتاً، يجعل منها أهدافاً مثالية ثابتة لاتبعد أكثر من مائتى متر عن الخطوط المصرية، ويسهل مهمة المصريين فى المراقبة المستمرة لكل مواقعها وتحركاتها، كما يعرض دورياتها الاستكشافية وقوافلها المحملة بالمؤن والذخائر للكمائن والألغام وقذائف المدفعية. وكان شارون يرى أنه فى حالة أى هجوم مصرى محتمل تشترك فيه مختلف القوات، فإنه من الممكن جداً إسكات مصادر النيران الاسرائيلية على طول الضفة، موقعاً بعد الآخر، لأن المواقع ستصبح معزولة حتماً، وهو ما يقتضى من اسرائيل مجهوداً ضخماً لإخلائها قبل أو بعد تدميرها، بدلاً من أن تستثمر قواتها فى الهجمات المضادة الملحة.

أى أن خط بارليف فى نظر شارون لم يكن سوى تحصين سيكلوجى للجنود الإسرائيليين فى مواجهة الضربات الموجعة والمرعبة للقوات المصرية.

وفى مقابل رفضه للمشروع يقول شارون:

"لذا اقترحت تنظيم دفاعنا على الخط الطبيعى للتلال والكثبان الموازية لخط المياه والواقعة على قرابة خمسة وعشرين أو ثلاثين كيلومتراً من القناة، على سفوح الجبال التى يقود ممراها - متلا والجدى - إلى داخل سيناء. وبين القناة وخط الدفاع الأول تتجول دوريات متحركة باستمرار، وبلا أوقات منتظمة تجنباً للكمائن وحتى لاتصبح أهدافاً للرماة المهرة وللمدفعية المصرية".

ويعترف شارون بأن الضغط المتصاعد الذى مارسته المدفعية المصرية على القوات الاسرائيلية أوقع ما بينه وبين بارليف، بل وأحدث انقساماً فى القيادة ذاتها، خاصة بعد هجوم كبير مباغت للمدفعية المصرية فى ٨ سبتمبر ١٩٦٨، كلفهم خسائر فادحة، فبلغت علاقاتهما، التى لم تكن حسنة أبداً، عتبة الانفصال، وتحولت إلى مجابهة بين أغلبية يمثلها بارليف وأقلية يتقدمها شارون، لدرجة أن حاييم بارليف بصفته رئيساً للأركان. رفض أن يجدد عقد شارون تمهيداً لطرده نهائياً من الجيش، لكنه تراجع فى قراره خشية أن ينتقل شارون إلى الحياة السياسية ومنها يستطيع أن يوجه سهامه إلى كل خصومه. ولذلك اضطر بارليف إلى اعادته إلى الجيش، ولكن لعدم وجود وظيفة مناسبة شاغرة، كلفه بمهمة خاصة جداً، وهى التجول فى عواصم العالم، خاصة الولايات المتحدة، ليلقى المحاضرات ويزور المخيمات والمعاهد العسكرية. وزوده الجيش بتذكرة طيران دولية وصفتها شركة العال بأنها أكبر تذكرة قطعتها لراكب. وكان المكان الوحيد الذى لاتخوله هذه التذكرة حق النزول فيه هو إسرائيل.

هذا هو التأثير العميق والحاسم الذى مارسته حرب الاستنزاف على كل قطاعات المجتمع الإسرائيلى من قمته إلى قاعدته، وسواء على المستوى العسكرى أو المدنى. وهو تأثير لم يستطع شارون أن يتجاهله برغم أنه أحد

صقور اسرائيل الذين يحاولون وضع اليهود على قمة الكفاءة بل والعبقرية فى حين يصورون المصريين على أنهم نماذج متكررة من الفشل والتخلف. وهذا التوجه العنصرى يؤكد لنا أن ما ذكره لابد أن يكون جزءاً يسيراً من الحقيقة الشاملة، اذ لايعقل أن يكون موضوعياً بحيث يسجل كل التفاصيل والوقائع والأحداث التى تثبت بلا منازع البطولات والملاحم المصرية فى حرب الاستنزاف التى يكفيها شرفاً أنها أجبرت هذا العدو اللدود لمصر ولقواتها المسلحة على أن يفرد لها فصلين طويلين فى مذكراته الضخمة الناضحة بالفكر العنصرى والتعصب العرقى.

الفصل الثانى

شهادة سياسية



(١) جولدا مائير

فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ شغلت جولدا مائير منصب السكرتير العام لحزب العمل الاسرائيلى الموحد. وبعد موت ليفى أشكول فى عام ١٩٦٩ تولت رئاسة الحكومة حين كانت حرب الاستنزاف فى أوجها. وقد أدركت بحسها السياسى العميق وخبرتها الطويلة التى تعود إلى عام ١٩١٥ حين التحقت بحزب عمال صهيون مع بن جوريون وغيره من زعماء الحركة الصهيونية التى ظهرت فى روسيا فى أواخر القرن الماضى، ثم انتشرت فى أوربا والولايات المتحدة وفلسطين، أدركت أن الضغوط التى تمارسها حرب الاستنزاف على المجتمع الاسرائيلى قد أحدثت به شروخاً، وأشعلت فيه صراعات مصحوبة بخوف وقلق واضحين بعد أن تلاشت نشوة الانتصار الخاطف فى يونيو ١٩٦٧. ولذلك سارعت فى نفس عام توليها رئاسة الوزارة (١٩٦٩) إلى تشكيل ما أسمته "بحكومة الوحدة القومية" بعد أن أجرت انتخابات خصيصاً لهذا الهدف. كانت تهدف إلى تماسك المجتمع الاسرائيلى فى مواجهة ضغوط حرب الاستنزاف التى أوشكت على اقتلاع جذور الثقة التى ترسخت فى التربة الاسرائيلية فى أعقاب حرب يونيو.

كانت تدرك جيداً أن عبد الناصر يضغط على اسرائيل من خلال ضربه المتجدد للقوات الاسرائيلية على الجبهة الجنوبية، أى على المستوى الاقليمى أو المحلى. لكنه فى الوقت نفسه كان يضغط عليها خارجياً ودولياً بتكتل الدول النامية والصديقة ضدها حتى يكتسب التوازن الدولى الذى يمكنه من حرية الحركة فى المنطقة. ولذلك أعطت جولدا مائير ثقلاً متزايداً لتطوير العلاقات الاسرائيلية الخارجية مع الدول النامية وبالذات فى أفريقيا، بجانب اهتمامها بتوثيق التعاون مع الولايات المتحدة بطبيعة الحال. وفى الوقت نفسه احتفظت بصلات قوية مع الاتجاهات الاشتراكية الديمقراطية فى أوروبا الغربية، وهى الاتجاهات التى كان من المحتمل أن تنظر إلى الصراع العربى الاسرائيلى نظرة موضوعية تعتبرها اسرائيل فى غير صالحها. فقد كانت اسرائيل - ولازالت - بالمرصاد لأية محاولات - ولو هزيلة - للضغط عليها بطريقة أو

أخرى .

ولقد نجحت مائير ـ إلى حد ما ـ فى العمل على تماسك المجتمع الاسرائيلى فى مواجهة ضغوط حرب الاستنزاف التى أصر عبد الناصر على تصعيدها من مرحلة إلى أخرى . وقد أظهرت استفتاءات الرأى العام فى اسرائيل أثناء حرب الاستنزاف أنها تتمتع بشعبية واضحة ، خاصة وأن نشاطها فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ كان واضحاً للجميع . تقول فى مذكراتها التى نشرتها تحت عنوان "حياتى":

> **"بعد الحرب ، طرت إلى الولايات المتحدة لبضعة أيام ، وتكلمت أمام جمع غفير فى "سكويرجاردن" تلبية لدعوة من التجمع اليهودى . كان برنامجى مكثفاً ، وكنت أرغب فى مقابلة آلاف من الشبان اليهود فى أمريكا ، الذين كانوا يتجمهرون ـ أثناء اندلاع القتال وقبله ـ أمام السفارة الاسرائيلية معلنين عن رغبتهم فى الانضمام إلينا فى الحرب . وأردت أن أدرك السبب الذى دفعهم لطلب ذلك مع غيرهم من اليهود المقيمين فى بريطانيا والذين تجمهروا أيضاً فى المطارات مطالبين بالانتقال إلى اسرائيل على متن طائرات شركة "العال". بالطبع لم يكن حديثاً رومانسياً ذلك الذى كان ينتظرهم منى ، لقد وضع على حدودنا جهاز جبار للقتل والتدمير ، وهو يقترب منا بالتدريج لكى يخنقنا . وبرغم المحاولات اليائسة ، لم يستطع اليهود المقيمون بالخارج ، المشاركة فى الحرب ، فقد منعتهم ادارة الولايات المتحدة من السفر".**

إن جولدا مائير بكل عنجهيتها الصهيونية التى تضخمت بطبيعة الحال فى

أعقاب انتصار يونيو ١٩٦٧، وبرغم الهزيمة العربية المأساوية، فإنها كانت تشعر بأن الآلة الحربية المصرية قد أضحت فى أسبوع أو أسبوعين - على حد تعبير أرييل شارون - جهازاً جباراً للقتل والتدمير، وهذا رقم قياسى قل أن نجد له مثيلاً فى حروب حديثة، خاصة اذا علمنا أن مصر فقدت فى يونيو ١٩٦٧ أكثر من ٩٠٪ من أسلحتها المختلفة. وكانت مائير بحسها السياسى المدرب تدرك أن هذا الجهاز المصرى الجبار لن يقتصر على الدفاع عن مصر، بل لابد أن ينمى طاقته ويطور أسلوبه ليحرر سيناء فى أسرع وقت ممكن. وهى تعتبر هذا التحرير نوعاً من القتل والتدمير لاسرائيل !! خاصة وأن عبد الناصر أعلن عن استراتيجيته بصراحة عندما رفع شعارى "إزالة آثار العدوان" و "ماأخذ بالقوة لابد وأن يسترد بالقوة".

لم تكن فرحة مائير بالانتصار خالصة، بل كانت مشوبة بالخوف من عبد الناصر الذى لم تفقده الهزيمة إرادة الصمود والتحدى والهجوم بعد أن ظنت اسرائيل كلها أنه قضى عليه فى الخامس من يونيو ١٩٦٧. كان يتصرف كزعيم أو قائد خسر معركة ولم يخسر الحرب التى كانت فى نظره مثل حلبة ملاكمة لايمكن الفوز فيها بالضربة القاضية ولكن بالنقط التى يمكن أن يحرزها تباعاً. وكانت حرب الاستنزاف أكبر دليل مادى على هذا التوجه الذى أحرز به عبد الناصر نقطاً فاصلة مثل معركة رأس العش، واغراق المدمرة ايلات فى ٢١ اكتوبر ١٩٦٧، وضربات المدفعية الثقيلة على الضفة الشرقية للقناة فى نوفمبر ١٩٦٧، ومعارك الصواريخ فى ٢٧ ديسمبر ١٩٦٩، وأسبوع تساقط الفانتوم فى يوليو ١٩٧٠... الخ. بالإضافة إلى النقط التى لم تنل حظها من الأضواء الاعلامية مثل عبور الفدائيين المستمر لقناة السويس، وهجماتهم ضد الدوريات الاسرائيلية، ونصب الكمائن لها، وزرع أماكن ومواقع تنقلاتها بالألغام.... الخ.

وبالاضافة إلى قلق مائير من صمود عبد الناصر ومواصلته للتحديات والهجمات، كانت تشعر بقلق آخر مصدره قلة عدد الجنود الإسرائيليين

الأكفاء، بحيث اضطرت القيادة الإسرائيلية إلى تغيير الوحدات كل ثلاثة شهور، واستخدام جنود احتياطيين معظمهم من اليهود. الشرقيين ذوى القدرة العسكرية المحدودة حتى لاتجهد القوات العاملة المدربة فى المواجهات البعيدة، وذلك بالإضافة إلى أن استمرار بقاء هذه القوات فى سيناء، يعوق برامج الإنتاج والتنمية التى لاتستطيع اسرائيل البقاء بدونها. ومن هنا كانت رغبة مائير الحارقة فى ضم أكبر عدد ممكن من المتطوعين اليهود المقيمين فى أوروبا وأمريكا إلى الجيش الاسرائيلى، خاصة بعد أن أدركت أن هدف عبد الناصر لم يكن ضرب التحصينات والخطوط والمواقع الاسرائيلية بقدر ما كان قتل أكبر عدد ممكن من الجنود لثقته أنه بهذا يوجه ضربات إلى المجتمع الاسرائيلى ككل عندما يتحول أكبر عدد ممكن من بيوته إلى دور لتلقى العزاء، وبذلك يتحول فرح إسرائيل الكبير إلى مأتم أكبر، وهو وضع لايمكن احتماله لمدة طويلة. تقول جولدا مائير فى مذكراتها:

"انتهت الحرب خلال ستة أيام، وشعرت بحاجة ملحة للاجتماع فى نيويورك بأولئك الشبان المتحمسين للتطوع فى صفوف جيشنا والذين يبلغ عددهم ٢٥٠٠ يهودى. وضم لقائى بهم حوالى ألف شاب، وبدأته بسؤالى: ما هو سبب رغبتكم فى الذهاب إلى اسرائيل؟ هل هى رغبة ملحة نابعة من أنفسكم، أم حباً فى المغامرة؟ أم لأنكم ولدتم فى ظروف معينة دفعتكم إلى مثل هذا التفكير أم لأنكم صهاينة؟ ترى ماذا كانت مشاعركم عندما وقفتم قبل الحرب وأثناءها فى صفوف طويلة تنتظرون سفركم إلى إسرائيل؟

"لم أتلق جواباً عن سؤالى بل أسئلتى، ولكن جواب أحد الشبان كان تلخيصاً لإجاباتهم جميعاً حين

قال: مسز مائير . . لاأعرف كيف سأشرح الأمر لك، لكننى أعلم أن حياتى لم تكن كما بدأت من قبل. إن الانتصار فى حرب الأيام الستة، وابقاء اسرائيل فى الوجود قلب الأمور كلها وغيرها، لم يعد الأمر بالنسبة لى أو لأهلى وجيرانى كما كان سابقاً".

واضح أن مثل هذا الشاب كان متأثراً تماماً بالحملة الاعلامية المدوية التى فجرتها اسرائيل فى العالم الغربى على وجه الخصوص فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ . وهى الحملة التى صورت إسرائيل على أنها إعصار عات أطاح أمامه بكل الأصنام الرملية التى تعبد العرب طويلاً فى محرابها، وأن الحرب مع العرب ليست سوى لعبة مسلية ومثيرة وإن كانت تنتهى سريعاً لعدم تكافؤ الطرفين. ولذلك لم تكن أسئلة جولدا مائير لهؤلاء الشباب أسئلة بريئة. كانت تريد أن تتيقن من حقيقة ما يدور فى أذهانهم. هل يمكن أن يكونوا قد مروا بعملية غسيل مخ نتيجة للحملة الإعلامية الدولية المدوية التى صورت الحرب على أنها نزهة مسلية، ولذلك فإنهم يريدون الانضمام إلى جيش اسرائيل على سبيل المرور بهذه المغامرة الممتعة ؟! أم أن حماسهم كان نتيجة لإيمان حقيقى وراسخ بالصهيونية بدليل وقوفهم فى صفوف طويلة أمام السفارة الإسرائيلية فى انتظار السفر إلى إسرائيل ؟! وبذلك عندما يخوضون غمار الحرب على جبهة قناة السويس، فإنهم لن يصدموا أو يذهلوا عندما يجدون القذائف والقنابل والصواريخ تنهال عليهم كالمطر ليل نهار ؟! خاصة وأن إجابة الشاب عن أسئلة جولدا مائير، وهى الإجابة التى وصفتها بأنها غير منمقة أو غير متسقة، توحى بأنه لايدرك الأبعاد الحقيقية والأخطار المهولة التى أحالت الحياة على الجبهة إلى كابوس متجدد ليل نهار.

إن جولدا مائير تريد شباباً مؤمناً إيماناً أعمى بحتمية حروب إسرائيل التوسعية ضد العرب لاكتساب أعماقها الاستراتيجية التى تجعلها فى مأمن

ومنأى عن ضرباتهم، وللتمهيد لإقامة دولتها المنشودة من النيل إلى الفرات. واصرار عبد الناصر على تحرير سيناء هو فى حقيقته إلغاء لأهم عمق استراتيجى أصبحت اسرائيل تتمتع به بعد حرب يونيو ١٩٦٧ وهى تدرك جيداً أن عبد الناصر لايحيد أبداً عن استراتيجية آمن بها وخطط لها، ولن يعدم الوسائل والمناهج والأدوات لتنفيذها إن عاجلاً أو آجلاً من خلال مراحلها المتتابعة التى تعتمد على تسلسل الأسباب والنتائج.

وكانت جولدا مائير قلقة من اهتزاز ايمان الشباب اليهودى بهذه القضية اذا مارزحوا تحت وطأة كابوس الضربات المصرية المتلاحقة على جبهة القناة. خاصة وأن عبد الناصر غير تماماً أسلوبه الإعلامى بعد حرب يونيو، مما أدى إلى اهتزاز إيمان الشباب الاسرائيلى الذى ولد وعاش بالفعل فى اسرائيل، وهو إيمان لابد أن يكون أقوى وأرسخ من إيمان الشباب اليهودى المتطوع والقادم من الولايات المتحدة وأوروبا. كان الإعلام العربى عامة والمصرى خاصة إعلاماً محموماً قبل وأثناء حرب يونيو، يضرب على الأوتار الحماسية والانفعالية عند الجماهير بعيداً عما يدور على أرض الواقع. وعندما انتهت الحرب وتكشفت الحقائق البشعة والأوضاع الكابوسية التى ترتبت عليها، أصيب العرب باحباط لم يمروا بمثله من قبل. فقد كان مادار فى ميادين المعارك يناقض تماماً ما دار على موجات الأثير المسموعة والمرئية، وما نشر على صفحات الجرائد والمجلات. ولكى يتجنب عبد الناصر النكسة الاعلامية مرة أخرى أصدر تعليماته بأن تكون الرسالة الاعلامية أصغر حجماً وأخفت صوتاً من معارك حرب الاستنزاف التى لم تتوقف على مدى ثلاث سنوات. وأحياناً كان يتم التعتيم على بعض الضربات الخطيرة التى تشنها القوات المصرية على الجبهة الشرقية خوفاً من ألا تصدقها الجماهير نتيجة لفقدان أجهزة الإعلام لمصداقيتها فى حرب يونيو.

أما إسرائيل، قبل الحرب، فقد ملأت الدنيا صراخاً بأن عبد الناصر سوف يلقى بها فى البحر، برغم أنه - للحقيقة والتاريخ - لم ترد على لسانه مثل

هذه العبارة أبداً، التى روجت لها أجهزة الإعلام الاسرائيلية والغربية حتى جعلت منها حقيقة ثابتة من حقائق السياسة المصرية فى مواجهة اسرائيل. ومن السهل اثبات هذه الأكذوبة الاسرائيلية لأن كل ما نطق به عبد الناصر تم تسجيله بكل أدوات التسجيل الاعلامية المسموعة منها والمرئية والمطبوعة. لكن اسرائيل أرادت أن تكتسب عطف العالم الغربى وخاصة الولايات المتحدة عندما تبدو كحمل وديع وسط الذئاب العربية، أو كواحة للحضارة والديمقراطية وسط صحارى التخلف والفاشية العربية، لدرجة أن هيوبرت همفرى نائب الرئيس الأمريكى ليندون جونسون كان قد صرح قبل حرب يونيو بعدة أيام بأن إسرائيل هى واحة الديمقراطية فى الشرق الأوسط وأن الحفاظ عليها هو حفاظ فى الوقت نفسه على كل المكاسب الديمقراطية.

لكن مصر واسرائيل بعد الحرب تبادلتا الأدوار الإعلامية. أصبحت إسرائيل هى التى تتشدق بأنها أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط، وأن ذراعها العسكرية من الطول بحيث تصل إلى أى بلد عربى فى زمن قياسى، فى حين اقتصرت مصر على إصدار البيانات العسكرية التى لاتزيد فى مساحتها على أسطر معدودة، والتصريحات المختصرة التى كانت تغطى وتعتم أكثر من أن تعرى وتفضح. وتصور الشباب الاسرائيلى أن الأمور قد دانت تماماً لإسرائيل فى المنطقة، وأن الأوضاع التى ترتبت على حرب يونيو هى فى مجملها أوضاع نهائية، فى حين أن حرب الاستنزاف كانت تثبت عملياً ويوماً بعد يوم أن اسرائيل دخلت مصيدة سيناء بقدميها.

من هنا كان قلق جولدا مائير من الصدمة التى يمكن أن تصيب الشباب اليهودى القادم من الغرب للتطوع فى الجيش الاسرائيلى عندما يكتشف أن الإعلام الإسرائيلى يطنطن بأحلام وأوهام لاتمت بصلة إلى ما يدور على أرض الواقع. والمأساة أن الإعلام الاسرائيلى لايستطيع أن يغير من هذه النغمة لأنه يحاول قدر الإمكان التعتيم على الخسائر الفادحة فى أرواح جنود اسرائيل حتى يتجنب إحداث شروخ فى المجتمع الاسرائيلى لايمكن ترميمها،

وقد تتحول إلى ضغوط تجبر القيادة السياسية والعسكرية على الانسحاب من سيناء وبذلك يتحول النصر الاسرائيلى إلى أكذوبة فاضحة ومأساوية لأنها كلفت إسرائيل أرواحاً كثيرة دون أى مقابل. ولذلك كان على إسرائيل أن تواصل التواجد فى مصيدة سيناء الميتة، وعليها فى الوقت نفسه أن تستورد الشباب اليهودى من الخارج كوقود جديد لاستمرار الحرب، وذلك بعد أن تغسل مخه ثم تشحنه بأوهام العظمة الصهيونية التى يتشرف بأن يستشهد من أجلها !! وكان على الإعلام الاسرائيلى أن يقوم بهذه العملية لغسيل المخ حتى يعوض أو يسد الفجوة بين ما يعلنه وما يدور على أرض الواقع، ويتجنب بذلك صدمة الشباب اليهودى المتطوع عندما يجد نفسه فى جحيم سيناء بلا مبرر معقول.

ويتجلى منظور مائير الموتور من عبد الناصر فى طيات مذكراتها عندما تردد بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ما كانت تردده قبلها من أن هدفه الاستراتيجى هو تهديد وجود اسرائيل فى صميمه، لكنها قررت ألا تعيد مذبحة النازيين - على حد قولها - ولن يحمى وجودها إلا الشباب اليهودى المتحمس لها والمؤمن بها من جميع أنحاء العالم. ومن هنا كان على مائير أن تحقق المعادلة الصعبة التى تجمع بين سيطرة أو سطوة إسرائيل على مقدرات المنطقة، وبين خوفها وتوقعها لتهديد جماعى من العرب بحيث تقنع يهود العالم بصفة خاصة، والعالم بصفة عامة بأن التهديد مستمر برغم انتصارها وفرضها نفسها على مجريات الأمور فى المنطقة. ولذلك رأت جولدا مائير منذ صيف ١٩٦٧ أن رئيس الوزراء ليفى أشكول لم يعد صالحاً لهذه المهمة المعقدة لأنه لايملك أية لمحة من الكاريزما التى يتمتع بها عبد الناصر، حتى بعد هزيمته. تقول فى مذكراتها:

"إن تكتل الأمة وتجمعها لتقف ضد تهديد جماعى، يمكن أن يقدم قوة دفع متجددة لاتحاد جميع القوى السياسية، ماعدا الشيوعيين، وأيضاً

لوضع الحقيبة الوزارية فى يد شخص آخر عملى ومجرب أكثر من ليفى أشكول. أما أنا فلم أساند أحداً على حساب المبدأ، اذا كان وجوده يتنافى مع المبدأ. أما اذا لم أكن مقتنعة به تماماً فى حين أنه يسعى لتطبيق المبدأ قدر طاقته المحدودة، فلا بأس من مساندته خاصة إذا كانت البلاد تمر بظرف استثنائى. والاتحادات الوطنية كانت تمثل عندى تجربة يمكن أن تنجح فى الظروف العادية حين يكون لدينا متسع من الوقت للمناقشات الطويلة حول نقاط الاختلاف فيما بيننا، أما اذا كان من الضرورى تقوية حكومة مثل حكومة أشكول فى زمن الحرب، فأظن أن ذلك يمكن اتمامه دون تغيير الشخصيات أو الاتجاهات لبعض المسئولين".

كانت جولدا مائير ومن معها من المسئولين الاسرائيليين يدركون أن عبد الناصر - برغم كل أعماق وأبعاد الهزيمة التى خاضها - لايزال قادراً على الامساك بزمام المبادرة فى مواجهة ليفى أشكول. لكن حجب الثقة عن حكومته فى الوقت نفسه لايعنى أمام العالم سوى فشله فى ادارة المواجهة ضد عبد الناصر فى حربه الاستنزافية، ولذلك فضلوا تقوية الحكرمة ومساندتها دون تغيير الشخصيات. ومع ذلك حدثت شروخ وانقسامات فى المجتمع الاسرائيلى سواء على المستوى السياسى أو الاقتصادى أو العسكرى أو الاجتماعى أو حتى الدينى تحت وطأة حرب الاستنزاف المتصاعدة بحسابات دقيقة. وبدلاً من حجب الثقة عن ليفى أشكول، جاء الحل السعيد عندما مات فى عام ١٩٦٩. وكان من الطبيعى أن تخلفه جولدا مائير التى سرعان ما أجرت انتخابات كونت بعدها ما أسمته "بحكومة الوحدة القومية" فى محاولة محمومة لترميم الشروخ ورأب التصدعات التى أحدثتها حرب الاستنزاف فى بنية المجتمع

الاسرائيلى.

وكان غرور جولدا مائير قد صور لها أن الانتصار الاسرائيلى الساحق في يونيو ١٩٦٧ قد جعل من هذه الحرب آخر الحروب ضد العرب. تقول فى مذكراتها:

> **"كثير من الناس لايفهمون أننا حاربنا بنجاح تام، لا لأننا خلقنا لنحارب ونقاتل، بل لأننا عقدنا العزم من أعماق قلوبنا على أن نربح الحرب لتكون آخر حرب نخوضها، ولنلقن جيراننا درساً بعدم الانصياع لباقى الدول العربية، وبأن أولادنا وأهلنا وحياة جميع الناس كانت ثمينة، كما أن حياة أولادهم هى ثمينة أيضاً".**

من هنا كانت حرب الاستنزاف ضرورة تاريخية وحضارية ملحة لكسر هذا الصلف والغرور الاسرائيليين. وتكمن دلالتها الحقيقية أنها بدأت بعد حرب الخامس من يونيو بأيام معدودة لتؤكد للعدو أن حرب يونيو لن تكون آخر حرب تخوضها اسرائيل، بل عليها أن تتحمل تداعيات ونتائج هذه الحرب التى ألقت على كاهلها أثقالاً لاتستطيع حملها طويلاً. واذا كانت جولدا مائير تتصور أن اسرائيل لقنت جيرانها العرب درساً بعدم الانصياع للدول العربية البعيدة عن خطوط المواجهة، فإن حرب الاستنزاف التى شنتها مصر قد لقنت اسرائيل درساً بأن حرب يونيو قد فتحت عليها أبواب الجحيم التى لايعلم أحد متى يمكن إغلاقها مرة أخرى.

واذا كانت جولدا مائير تسخر من انصياع دول المواجهة: مصر وسوريا والأردن لباقى الدول العربية التى ورطتها فى حرب يونيو، فإنها تعترف فى الوقت نفسه بأن هذه الدول بعينها وقفت صفاً واحداً خلف دول المواجهة، تمدها بالعون الاقتصادى والسياسى والعسكرى، وهو ما وصفته مائير بقولها:

"تجرى الرياح بما لاتشتهى السفن" وهى تعلق على نتائج مؤتمر قمة الخرطوم:

"فى أغسطس عام ١٩٦٧ عقد مؤتمر قمة فى الخرطوم، وناقش المؤتمرون الوضع الراهن، وأقروا باصرار ثلاث لاءات (لا صلح، لا اعتراف، لا مفاوضات مع اسرائيل)، وأكدوا على وجوب انسحاب اسرائيل دون قيد أو شرط من الأراضى التى احتلتها فى حرب حدود ١٩٦٧".

ثم تعترف جولدا مائير بأن صور الجنازات إلى جميع أنحاء اسرائيل لاتبارح مخيلتها. كان معظم الذين سقطوا فى حرب يونيو وحرب الاستنزاف من الشباب الذين سقط آباؤهم أو أخوتهم من قبل فى حرب ١٩٤٨ التى تسميها مائير وغيرها من الاسرائيليين حرب الاستقلال، وكذلك حرب ١٩٥٦ التى تصفها بأنها "الحرب التى جرفنا إليها"، وكأن اسرائيل طفل ساذج غررت به بريطانيا وفرنسا، ولم تكن غارقة فى التآمر معهما حتى أذنيها. كانت تظن أنها بنصر يونيو ١٩٦٧ قد تخلصت من هذا الكابوس إلى الأبد، لكنها مع بداية حرب الاستنزاف ونجاح مؤتمر قمة الخرطوم تعترف قائلة:

"لقد أصابنى اليأس الشديد، ولكن هناك رداً واحداً ممكناً: لن تنسحب إسرائيل من شبر واحد طالما أن العرب لايريدون وضع حد للنزاع. لقد قررنا رغم ما كلفنا ذلك، من مال وقوة، وبرغم الضغوط التى مورست علينا، قررنا أن نتحمل، ونقف بثبات على خطوط وقف اطلاق النار، منتظرين حتى يدرك العرب أن البديل الوحيد للحرب هو السلام فقط، وأن الطريق الوحيد للسلام

هو المفاوضات".

والسلام الاسرائيلى فى نظر مائير لايعنى سوى الاستسلام العربى، ولذلك كانت حرب الاستنزاف هى الرد الوحيد الذى يجسد اللاءات الثلاثة التى أعلنها مؤتمر الخرطوم فى أغسطس ١٩٦٧. ولذلك مع حلول عام ١٩٦٨ نسيت مائير أو صرفت النظر عن هذا السلام الذى تتشدق به لأن إسرائيل مقبلة على أيام صعبة صورها إفرايم كيشون وزميله لوش فى كتابهما "آسفون لأننا فزنا" وهو الكتاب الذى تستشهد به مائير فى مذكراتها:

"بعد حرب الأيام الستة أصدر الكاتب والناقد اللاذع إفرايم كيشون مع رسام الكاريكاتير لوش كتاباً أسماه "آسفون لأننا فزنا". كان عنواناً يعبر عن المرارة، لكنه ليس بخاف عن القراء الاسرائيليين، أنه يلخص الطريق الذى شرعنا فى السير عليه بحلول عام ١٩٦٨، وهو أننا إذا أردنا تحسين وتطوير أنفسنا وبلدنا، فيجب أن ننسى كل ما يتعلق بالسلام. لقد ارتكبنا جريمة فى حق أنفسنا عندما كنا نقول للعرب دائماً: "دعونا نتفاوض" فى حين كان يجب علينا أن نقول: "هذه هى الخريطة الجديدة بخطوطها التى سنتشدد فى الحفاظ عليها، ثم تعالوا لنتفاوض".

لكن فى مواجهة هذا التشدد الإسرائيلى كانت حرب الاستنزاف تنهال بحممها على رأس اسرائيل حتى تتأكد أن مثل هذا التشدد لايعنى سوى المزيد من الوبال عليها. تقول مائير:

"كان الوضع يسير من سيئ إلى أسوأ، اذ أعلنت مصر عن إعادة تجهيز قواتها بالعتاد الروسى

الثقيل، وأنها باتت على استعداد لخوض غمار حرب التحرير، كما صرح الرئيس عبد الناصر:

"عندما يحين الوقت، نستطيع أن نضرب حتى النهاية، فلا مفاوضات ولاسلام ولااعتراف باسرائيل".

وفى ربيع عام ١٩٦٩ تأكدت مائير أنه لم يعد فى إمكان الإسرائيليين العيش فى سلام مع العرب. وقد تجنب القادة والمسئولون الاسرائيليون تقديم تقرير عن الضربات الموجعة والمتواصلة التى تنهال بها المدفعية المصرية الثقيلة على القوات الاسرائيلية المرابطة فى شرق القناة، بالاضافة إلى غارات الفدائيين المتسللين عبر القناة، وكمائنهم المميتة للجنود الاسرائيليين، وزرعهم الطرقات والمواقع بالألغام. كان الاسرائيليون يسمعون الشائعات المترددة عن وقائع حرب الاستنزاف فى جلسات الثرثرة المسائية، خاصة بعد تشييع جنازة أحد قتلى هذه الحرب، وكان أثرها على الروح المعنوية سلبياً بطبيعة الحال. وأى تقرير رسمى عن هذه الحرب من شأنه أنه يزيد الطين بلة، ويضاعف من التأثير النفسى السيئ على الاسرائيليين بصفة عامة. وقد ساعد المسئولين الإسرائيليين على هذه التغطية أو التعمية أن إعلام عبد الناصر نفسه كان قد تخلى عن النبرة الزاعقة الحماسية التى ميزته فى حرب يونيو، وأصبح عقلانياً بل ومتحفظاً فى أحيان كثيرة لدرجة أن الخسائر الإسرائيلية الواردة فى بياناته كانت أقل، فى معظم الأحيان، من الواقع، حتى تسترد هذه البيانات مصداقيتها التى فقدتها فى حرب يونيو. تقول جولدا مائير:

"إن أحداً لم يكتب تقريراً عن العنف والتحرشات المصرية لإبطال وقف اطلاق النار. ووجدنا أنفسنا مضطرين لبناء خط بارليف ليحمى قواتنا المرابطة على ضفة القناة. وعندما وجدت المنظمات الفدائية العربية نفسها غير قادرة على اقناع أو حتى

تحريض الشعب العربى فى الأرض المحتلة للمبادرة فى حرب ضد إسرائيل، وذلك برغم مظاهرات الاحتجاج التى اندلعت فى جنين والخليل، قرر الفدائيون القيام بعمليات من خارج إسرائيل وعلى بعد مئات الأميال من حدودنا، اذ كان أسلم لهم وأسهل اصطياد ركاب الطائرات الأبرياء، بالإضافة إلى قدرتهم على تشديد ضرباتهم فى الأراضى المحتلة لإشاعة الرعب بين اليهود، طالما أن الرئيس عبد الناصر يغدق عليهم الدعم المعنوى والمادى، ليؤدوا دورهم الكبير فى تحطيم العدو واراقة دمائه".

وقد نجح عبد الناصر فى أن يضع اسرائيل فى مأزق حقيقى اعترفت به مائير فى مذكراتها. فقد أصبحت حرب الاستنزاف كابوساً يطاردها ليل نهار، لكنها فى الوقت نفسه لاتستطيع الانسحاب هرباً من هذا الكابوس، وإلا انهارت القيادة السياسية والعسكرية على أساس أنها ورطت اليهود فى حرب لاناقة لهم فيها ولاجمل، ناهيك عن الخسائر الفادحة فى الأرواح والأموال والأسلحة. ولذلك تقول مائير:

"إزاء ذلك كله، صممنا على الدفاع عن خطوط وقف اطلاق النار، دون الرضوخ لتهديدات الرئيس عبد الناصر أو منظمة "فتح"، وسنظل نبحث عن السلام باصرار لاتراجع فيه. وعلى أية حال، حاولنا أن نتكيف مع كل شئ دون أن نخسر الأمل، فشبابنا يعملون من أجل إسرائيل، ومستعدون للبقاء أسابيع فى "جبل حيرون" أو فى سيناء أو فى نهر الأردن، يحرسون تلك الحدود بكل يقظة وحذر.

ودعونـا لانسيئ فهم أهمية التضحيـة. فهذا الجـيش مؤلـف مـن: احـتياطـيين، ومـزارعـين، وخـدم، وطـلاب، وحـرفيين وغيرهـم، أى أنـهم لـيسـوا عسكريين محـترفين. إنهم رجال لبـوا نداء السلاح، وقاموا بـواجباتهـم ببراعة، وهـم بالتالـى فى منتـهى الشوق للعودة إلى بيوتهم".

وهذا المنطق حافل بالتناقض، إذ أن الجيش الذى يعتمد على الاحتياطيين أكثر من اعتماده على المحترفين، جيش قصير النفس وغير قادر على خوض حروب الاستنزاف الطويلة، وهذه ليست ميزة أو بطولة كما تحاول مائير أن توهمنا. ذلك أن عجلة الانتاج فى الجبهة الداخلية لابد أن تتعثر أو تكاد تتوقف لأن الكل مشغول فى الحرب. ومن هنا كان حرص اسرائيل المحموم على أن تكون معاركها خاطفة. وهى الخاصية التى حرمها منها عبد الناصر بحرب الاستنزاف التى استمرت ثلاث سنوات، بل إنه أعلن فى أثنائها أنه قادر على تجنيد مليون جندى، وهى قدرة حقيقية ليست للاستهلاك المحلى، ولها صداها الموجع فى المجتمع الإسرائيلى الذى لم يزد تعداده فى تلك الفترة عن ثلاثة ملايين نسمة.

وكانت جولدا مائير بالمرصاد لأية صراعات أو انقسامات يمكن أن تقع بين أجنحة القيادة السياسية أو العسكرية، إذ كانت تؤكد للقادة دائماً أنه "يكفينا حربنا مع العرب وفى كل لحظة". ولذلك لم تكن سعيدة على الاطلاق بالسنوات الخمس التى قضتها كرئيسة وزراء:

"فقد بدأ منصبى بحرب وانتهى بحرب أيضاً. لقد بدأت حـرب الاستنزاف المصرية مـع مطلـع مارس من عام ١٩٦٨. واستمرت تتصاعد بضـراوة حتى صـيف عـام ١٩٧٠. وبـدلاً مـن أن يحـاول الاتحـاد السوفييتـى الضغط على الرئيس عبد الناصر لايقاف

حربه، قام بدفع المئات من الخبراء السوفيت لجمع وتدريب الجيش المصرى المشتت، وساعده بفيض من المعدات الحربية".

ولانعلم نوعية المبرر الذى تفترضه مائير والذى يزين للاتحاد السوفييتى أن يضغط على عبد الناصر ! إن هذا الضغط لايعنى سوى تخلى الاتحاد السوفييتى عن ورقة من أهم أوراق صراعه مع الولايات المتحدة التى تساند اسرائيل دائماً بالعون المادى والعسكرى والمعنوى. وكان عبد الناصر مدركاً لهذه الحقيقة، وكان يتصرف على أساسها بثقة واضحة برغم عدم كونه شيوعياً، بل كان موقفه من الشيوعية معلوماً للخاصة والعامة. فإذا كانت المعركة هى معركة عبد الناصر على المستوى الوطنى والقومى، فهى معركة الاتحاد السوفييتى على المستوى الكونى أو الدولى. أى أن الاتحاد السوفييتى كان يحارب معركته أيضاً ولم يكن متفضلاً على مصر بأية حال من الأحوال. ولذلك لم يكن هناك محل لدهشة جولدا مائير وهى تقول:

"لقد سمعنا بآذاننا أن ثلثى الدبابات المرسلة بالمئات والمقاتلات الجوية التى وردتها روسيا إلى منطقة الشرق الأوسط مباشرة بعد حرب الأيام الستة، قد خصصت لمصر على أمل مواجهة جنودنا، وكسر شوكتنا حتى لانستطيع الاحتفاظ بمركزنا ووضعنا على القناة، وبعد أن يتحقق ما يريدون، سنرضى بالانسحاب دون الحصول على سلامنا المنشود أو أية تسوية للنزاع.

"لقد خطط الروس والمصريون للأمر نظرياً، فإذا ما استمروا بضرب مواقعنا وتحصيناتنا على طول ضفة القناة الشرقية، محولين حياتنا إلى جحيم، فسنصرخ ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ قائلين

"إرحمونا"، وبعدها لن يكون خافياً عليهم، أن يتحول كل شهيد اسرائيلى، بل وكل احتياطى وكل ميت فى جنازة تقام فى اسرائيل، وكل أسرة فقدت عائلها، سيتحولون جميعاً إلى سكين فى قلب الأمة كلها. لذلك كنت أدرك تماماً اصرار الرئيس عبد الناصر وإيمانه الواثق بأننا سنستسلم فى النهاية بدون شك. ولكننا لم نفعل لأننا لم نرد ذلك".

لكن الخطط المصرية السوفييتية لم تكن نظرية كما ادعت جولدا مائير، إذ أن عبد الناصر كان يتحرك بناء على تمكنه من أدوات علم الحساب الاستراتيجى. ولم تكن حرب الاستنزاف فى نظره مظاهرة حماسية لحفظ ماء الوجه، بل نهضت على دراسة واعية وشاملة لكل معطيات الموقف، وأكدت أن مقتل اسرائيل يكمن فى قصر نفسها، ذلك أن جوهر المعركة يكمن فى أنها معركة فى طول النفس. وهذا ليس مفهوماً نظرياً للمعركة بل هو حساب علمى عملى يتجاوز اللحظة الراهنة إلى المستقبل بكل امكاناته واحتمالاته، كما يضع الماضى أيضاً فى اعتباره، فيوازن بين أمة يتجاوز تاريخها الأنثروبولوجى العشرة آلاف سنة، كما أنها صنعت أول حضارة إنسانية فى التاريخ منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، وبين توليفة من البشر تم استيرادها وتجميعها من مختلف بلاد العالم للاقامة فى فلسطين، ولارابط فيما بينها سوى الدين اليهودى. قد يستغرق الصراع أجيالاً متتابعة لكنها بمنطق الزمن ليست سوى لحظات فى تاريخ الأمم العريقة. ومن الواضح أن كفة الميزان فى النهاية لابد أن تميل لصالح الكتلة الأكبر مهما طال الزمن لأنه لايصح إلا الصحيح.

كان هذا هو منظور عبد الناصر الحضارى على المدى الطويل، فإذا لم يستطع أن يحققه فى حياته، فيمكن لمن يخلفه القيام بهذه المهمة حتى لو جاء بعد قرن من الزمان. ولم يكن عبد الناصر يقصد بهذا المنظور القاء اسرائيل فى البحر كما ادعت الدعاية الاسرائيلية والغربية كثيراً، فعبد الناصر بحكمته

وخبرته ودهائه وعقليته الحسابية ومنظوره الاستراتيجى لم يكن لينطق بهذه الشعارات الجوفاء، وإنما كان يقصد أن تكون السيادة فى المنطقة لأصحابها الذين يشكلون الأغلبية الساحقة، وليست للأقلية الضئيلة التى تم استيرادها وتجميعها من الخارج. كذلك لايستطيع أحد أن يتهم عبد الناصر بعدائه لليهودية لأن تسامحه الدينى كان علامة مميزة لمنهجه فكراً وسلوكاً، أو بعدائه للسامية لأن المصريين فى مقدمة الأجناس السامية ولايمكن أن يكونوا معادين لأنفسهم، وهى التهمة المملة والسخيفة التى كثيراً ما شهرتها الصهيونية فى وجه كل من يجرؤ على الاختلاف معها.

وكان حلم اسرائيل أن تهدأ الجبهة المصرية ولو لأيام معدودة حتى يشعر الإسرائيليون أن حرب يونيو قد أتت أكلها، وأن الأمور فى طريقها إلى الاستقرار الذى يميز الأمر الواقع. لكن الحلم لم يتحقق تحت وطأة حرب الاستنزاف المتواصلة مما اضطر اسرائيل إلى الانتقام الذى وجدت فيه جولدا مائير الرد الوحيد لحفظ ماء وجه اسرائيل:

"وهكذا بدأنا انتقامنا بالضرب فى الأعماق مستعملين طائراتنا لقصف المطارات العسكرية قرب مدينة القاهرة، حتى يدرك الشعب المصرى أنه لن يصطاد عصفورين بحجر واحد: محاربتنا، والحصول على السلام. وبعد ذلك جرت وقائع حرب الاستنزاف بشكل مكثف ومتعدد بحيث لايستطيع أحد الإلمام بكل ما جرى فيها وكل ما قيل عنها. فقد كانت حرب الاستنزاف بالنسبة لنا حرباً حقيقية، بذلنا فيها كل ما نستطيع من تصميم وشجاعة وجهد، وخاضها جنودنا وطيارونا بكل ما لديهم من مهارة للوقوف ثابتين وصامدين على خطوط وقف اطلاق النار، محاولين صد تقدم حاملات

الصواريخ وقواعدها التى ثبتها الروس والمصريون بالقرب من هذه الخطوط. وقد كلفهم هذا الصمود فى مواجهة هذا الزحف المصرى ثمناً غالياً".

ولم تجد جولدا مائير، بصفتها رئيسة الوزراء، مفراً من اللجوء إلى الحليف التقليدى لاسرائيل وهو الولايات المتحدة، وبذلك نجح عبد الناصر فى تدويل الصراع، والانتقال به إلى موازين أشد حساسية فى صالحه. ذلك أنه بدون حرب الاستنزاف، لظل الصراع داخل حدود المنطقة، وأصبح العالم الخارجى مجرد متفرج ينفعل أو يساند أو يشجب ثم يمضى إلى حال سبيله تاركاً الحلف الأمريكى الاسرائيلى بكل ثقله فى مواجهة العرب. لكن حسابات الولايات المتحدة اختلفت تماماً مع الضغط المتصاعد لحرب الاستنزاف على اسرائيل، واضطرار الاتحاد السوفييتى لمساندة مصر حتى لاتلقى به الولايات المتحدة بعيداً عن المياه الدافئة التى حلم دائماً بالتواجد قربها، خاصة بعد أن نجحت مصر فى استمالة فرنسا وتحييد بريطانيا، وهو التوازن الجديد الذى دفع بأمريكا إلى التفكير جدياً فى السلام، مع وضع الاعتبارات الدولية قبل الاعتبارات الاسرائيلية فى الحسبان، بعد أن أثبتت حرب الاستنزاف أن اسرائيل تخوضها بالقوة الأمريكية لأن قوتها الذاتية لم تعد أهلاً لذلك. تقول جولدا مائير:

"كان هناك فى الواقع حد لايمكن تجاوزه فى خوض تلك المعركة وحدنا، إذ يجب علينا الحصول على المساعدة المالية والمساندة العسكرية فى مجال كل الأسلحة الجوية والأرضية والبحرية. ويجب أن يتم ذلك بأسرع ما يمكن. فكان لابد من اللجوء إلي صديقتنا وحليفتنا التقليدية الولايات المتحدة التى كانت تبيع لنا الطائرات، لكنها تتفهم أبعاد موقفنا تفهماً كاملاً فى تلك الفترة، وخشينا أن تقطع عنا

مساعداتها، برغم أننا نرى في الرئيس نيكسون أكثر من صديق، لكن لم يقبل نيكسون ولا مستر وليم روجرز وزير الخارجية رفضنا لأى حل لمشكلة الشرق الأوسط يفرض علينا من قبل الآخرين، كما لم يقبلا اعتراضى الشديد لما طرحه روجرز حلاً لتلك المشكلة، وذلك بعقد اجتماع يضم روسيا وأمريكا وانجلترا وفرنسا لايجاد حل أو تسوية معقولة بيننا وبين العرب.

"أخبرت مستر روجرز أن تلك التسوية يمكن أن تفى بمتطلبات الاتحاد السوفيتى، لكنها لاتعطى ضمانات لأمن اسرائيل وسلامها. كيف يمكن أن تتم مثل هذه التسوية والروس يساعدون بل ويحرضون مصر على الحرب. كذلك فان الفرنسيين يقفون مع العرب مثل الروس فى حين لم تعارض انجلترا فرنسا. أما الولايات المتحدة فكانت الوحيدة التى حافظت وتحافظ على بقاء اسرائيل".

لقد أدركت جولدا مائير أن حرب الاستنزاف لم تمارس ضغوطها على الجبهة العسكرية والمجتمع الاسرائيلى فحسب، بل امتدت لتشمل السياسة الدولية، خاصة العلاقات بين القوتين العظميين. ولذلك أصيبت مائير بخيبة أمل كبيرة عندما وجدت الولايات المتحدة مشغولة باهتمامات دولية ملحة بالإضافة إلى الشأن الإسرائيلى الذى لم يعد فى بؤرة الوعى الأمريكى كما كان قبل حرب يونيو ١٩٦٧ وفى أثنائها وأعقابها. كما لم يعد الشغل الشاغل لفرنسا وانجلترا. ولاشك أن هذه الضغوط الدولية التى مارستها حرب الاستنزاف قد أثرت بالسلب على الحجم والثقل اللذين اكتسبتهما اسرائيل فى أعقاب حرب يونيو. وقد أدركت جولدا مائير هذه الحقائق الجديدة فى الموقف

فتجنبت ممارسة أى ضغط على الإدارة الأمريكية لأنها على حد قولها:

"إذا واصلنا الضغط أو حتى الإلحاح على الرئيس نيكسون ومستر روجرز، فاننا يمكن ألا نحصل على السلاح".

وعندما بحثت جولدا مائير عن بدائل للمناورة وللخروج من مأزق حرب الاستنزاف، شرعت فى التلويح بالسلام والسعى للاتصال المباشر بالدول العربية، وأعلنت أكثر من مرة

"إننا على استعداد لمفاوضات مباشرة من أجل السلام مع جيراننا في أى يوم من الأيام وفى جميع الحالات".

وقبل مرور ٧٢ ساعة على تصريحها - كما تقول - أعلن عبد الناصر:
"لاصوت يعلو على صوت المعركة".

ولم يكن رفض عبد الناصر للمفاوضات من منطلق العناد والتصلب فى الرأى بل كان على أساس استراتيجى يفرق بين السلام والاستسلام. فقد ذكر الكاتب الفرنسى جان لاكوتير في كتابه القيم "عبد الناصر" مقابلة صحفية جرت بين عبد الناصر وإريك رولو مراسل جريدة "لوموند" الفرنسية الذى خاطبه متسائلاً:

"إن معظم الإسرائيليين مقتنعون بأن رفضكم للمفاوضات يمليه فى الحقيقة عزمكم على هدم دولتهم".

أجاب ناصر:

"هذا تفكير سخيف. مع العلم بأن معاهدة صلح يمكن أن تخرق بعد ساعات من عقدها. إن مانركز عليه أن يعرف الرأى العام العالمى أنه لايمكن

مفاوضة اسرائيل مادامت تحتل ٢٠٪ من الأراضى المصرية، و٧٠٪ من أراضى الأردن، و١٥٪ من الأراضى السورية، لأن المفاوضات فى ظل هذا الوضع لاتؤدى إلى صلح بل إلى الاستسلام الأعمى. وأنا لاأريد أن أكون (بيتان) مصر".

ولم يكن عبد الناصر يعلن هذا لمجرد حفظ ماء الوجه، ذلك أن جان لاكوتير فى كتابه "عبد الناصر" يسرد كيف أنه فى أواخر عام ١٩٦٩ ومطلع عام ١٩٧٠، توالت غارات الطيران الإسرائيلى داخل مصر، ذلك أن حكومة جولدا مائير ظنت أنها بهذه الطريقة تستطيع القضاء على ناصر ونظامه. وكان من الطبيعى أن تسبب هذه الغارات ازعاجاً كبيراً لكنها زادت ناصر تصميماً على عدم الرضوخ. وفي ٢٢يناير ١٩٧٠، بعد تعرض جزيرة شدوان المصرية، لغارة وحشية عنيفة، توجه ناصر سراً إلى موسكو عاقداً محادثات مع بريجنيف وكوسيجين ليخبرهما بقوله:

"إما أن تساعدونى أو أتخلى عن كل شئ".

لكن يبدو أن حرب الاستنزاف قد فعلت مفعولها، فقد نجحت الزيارة، وتسلمت مصر صواريخ سام التى لعبت دوراً مهماً فى صيف ١٩٧٠ حين اصطادت طائرات الفانتوم الاسرائيلية تباعاً وأسقطتها فوق الأراضى المصرية.

وتصر جولدا مائير على الادعاء بأن أهداف اسرائيل هى أهداف حضارية وانسانية فى المقام الأول. فهى لاتخوض الحرب إلا دفاعاً عن كيانها المهدد بحيث لايستطيع أحد أن يجادلها فى حق الدفاع عن النفس. أى أن احتلالها لأراض تعادل مساحتها قبل حرب يونيو سبع مرات هو من قبيل الدفاع عن النفس؟! كذلك فهى تتحلى بروح الفروسية التى لاتسعى لإذلال الخصم وإنما لإعادة ميزان العدالة لكفتى الصراع!! أى أن هدفها لم يكن إذلال عبد الناصر، وكأنها كانت تملك القدرة على إذلاله لكن كرم أخلاقها

منعهـا!! وهى التى كانت تتـمنى سحقه تمـاماً وليس مجرد إذلاله إذا تمـكنت من ذلك. لكن خروج الجماهير الغفيرة الهادرة فى ٩و١٠ يونيو ١٩٦٧ لمبايعة عبد الناصر، أثبت لاسرائيل منذ البداية أن جذور عبد الناصر فى الأرض المصرية هي جذور الشعب المصرى نفسه، ولذلـك فهى لن تحارب عبد الناصر المعزول عن شعبه وإنما ستحارب الشعب المصرى بأسره. ولذلك تقول جولدا مائير:

"كان الناس فى الخارج يسألوننا خلال إندلاع الحرب، إذا كان هدفنا حقاً هو إذلال الرئيس عبد الناصر وتحقيره، وكأننا نحن الذين رفعناه إلي فوق، ونخطط لإنزاله إلي تحت. كانوا يسألوننا دائماً إذا كان ضربنا للعمق المصرى ضرورياً حقاً، أم أنه سبيل للدفاع عن النفس، وكأن الإنسان يجب أن ينتظر حتى يصل الموت إليه وهو قابع فى بيته، قبل أن يجد مخرجاً يدفع عنه ذلك الموت المحتم، خاصة وأننا ندرك تماماً نوايا الرئيس عبد الناصر".

والموت الذى تتحدث عنه جولدا مائير لـم يتوقف عن بلوغ الاسرائيليين القابعين فى بيوتهم بعد حرب يونيو، بل واصل تدفقه طوال فترة حرب الاستنزاف التى وصفتها بأنها

"كانت فترة عصبية للغاية".

كا ن عبد الناصر يؤكد لاسرائيل بسلوكه العملى أن نصرها فى يونيو ١٩٦٧ سيتحول بالتدريج إلي محنة سترزح تحت وطأتها ليل نهار، وكابوس لن تفيق منه إلا بعد انسحابها إلي حدود ٤ يونيو ١٩٦٧. بل إنها شعرت أنها أصبحت تابعة ذليلة للولايات المتحدة بعد أن كانت الطفل المدلل، إذ أثبتت لها حرب الاستنزاف أن وجودها مرتهن فى صميمه بمساندة أمريكا لها، وبالتالى فليس لها وجود حقيقى وفعلى نابع من ذاتها. تقول مائير:

"إنه على الرغم من وقوف أمريكا بجانب اسرائيل وحقها فى الوجود، فنحن في أشد الحاجة أيضاً إلي السيدين نيكسون وروجرز، أكثر مما هما فى حاجة إلينا، ولايمكن العيش على أمل تبنى الجاليات اليهودية فرض مايلزمنا على نيكسون، وارغامه علي تغيير موافقه منا".

ومنطق مائير هذا يدحض تماماً فكرة إلقاء اسرائيل في البحر، وهى الفكرة التى حاولت الدعاية الصهيونية دائماً إلصاقها بعبد الناصر، إذ أن هذه المسألة بيد أمريكا وليست بيد العرب. أى أن إلقاء اسرائيل في البحر هو قرار أمريكى تماماً وليس عربياً علي الإطلاق. فعلى الرغم من مساعدة السوفييت للعرب فان العرب لايمكن أن يقدموا على مثل هذه الخطوة المستحيلة من وجوه عديدة. ومن هنا كان قلق اسرائيل الدائم تجاه أمريكا نفسها التى لابد أن تغريها قوتها الكونية بأن تجعل من اسرائيل مجرد أحد الاهتمامات التى تشغلها، وليست شغلها الشاغل كما كانت تظن من قبل. ولذلك قررت جولدا مائير أن تسافر إلى الولايات المتحدة فى أغسطس ١٩٧٠:

"وسط تلك الأجواء المشحونة بالاضطراب، قررت السفر إلى الولايات المتحدة بنفسى لأتحدث مع الرئيس نيكسون ومع أعضاء الكونجرس لأقف على وجهة نظرهم، ووجهة نظر الأمريكيين عامة بالنسبة لاسرائيل، وأتبين مدى قدراتهم علي مساعدتنا. لكننى لم أنجح في تغيير رأى مستر روجرز والداعى إلى إشراك الروس في تسوية مسألة الشرق الأوسط، مع أننى حاولت مافى وسعى لاقناعه".

لقد صنعت حرب الاستنزاف ثقلاً للسوفييت في المنطقة وبالتالى فى

القضية برمتها بحيث أصبح من المستحيل تجاهلهم ، وبذلك أعادت التوازن المنشود إلي القوى العسكرية والسياسية في المنطقة ، فلم يكن من المعقول أن يقف المصريون وحدهم فى مواجهة الترسانة الأمريكية التى تبحث عن ميادين مفتوحة لاجراء تجاربها علي أسلحتها الجديدة للتعرف علي إمكاناتها الحقيقية وسلبياتها التي يمكن تجنبها في الانتاج الجديد. وإذا كان سباق التسلح بين القوتين العظميين قائماً علي قدم وساق في تصاعد خطير ومخيف ، فليكن الشرق الأوسط جبهة مفتوحة حديثاً لهذا السباق حتى يدرك العالم أجمع ، وفي مقدمته أمريكا ، أن اسرائيل تلعب بالنار التى يمكن أن تحرق الكبار قبل الصغار. فعلى الرغم من أن حرب الاستنزاف كانت حرباً محلية لكن آثارها وتداعياتها كانت دولية ومنذرة بمخاطر يتحتم على الجميع تحاشيها. من هنا كان القلق الذى ساور مائير في مباحثاتها مع نيكسون حتى اطمأنت إلى

"عزم الإدارة الأمريكية لمتابعة سياستها في مساعدتنا لايجاد توازن عسكرى فى ميزان التسلح فى المنطقة".

ثم تضيف قولها:

"أذكر أن أحد الصحفيين سألنى عما إذا كانت اسرائيل ستستخدم السلاح النووى إذا تعرض بقاؤها في الوجود للخطر؟ وكانت اجابتى على السؤال: لم يحدث أن أسأنا استخدام السلاح العادى بشكل خطر ضد الآخرين ، حتى نفكر فى استخدام السلاح النووى".

وهذا دليل آخر علي أكذوبة إلقاء اسرائيل في البحر ، التى حاولت الدعاية الصهيونية إلصاقها بعبد الناصر ، إذ كيف يعلن عبد الناصر على العالم أجمع مثل هذه الفكرة المستحيلة وهو يضع في حساباته الاستراتيجية الدقيقة

والتفصيلية أن اسرائيل تملك مفاعلاً نووياً فى ديمونة، وأن فى امكانها استخدام السلاح النووى كورقة أخيرة تجدد بها ذكريات شمشون عندما استخدم قوته للمرة الأخيرة وهدم المعبد علي نفسه وعلى أعدائه، خاصة وأن اسرائيل مغرمة بتجديد ذكريات أنبيائها وأبطالها نظرياً وعملياً!! أما إدعاء مائير بأن اسرائيل لم تستخدم السلاح العادى بشكل خطر، فإدعاء كاذب من أساسه ومفضوح لاعترافها هى بنفسها بضرب المدنيين فى مدن القناة ثم الانتقال إلي ضربهم فى العمق المصرى بشراسة شملت عمال مصنع أبى زعبل وأطفال مدرسة بحر البقر علي سبيل المثال لاالحصر. فإذا كان هذا استخداماً غير خطر للسلاح في نظر جولدا مائير، فماذا يمكن أن يكون الاستخدام الخطر للسلاح العادى؟! وهل سيكون استخدام اسرائيل للسلاح النووى غير خطر أيضاً؟! وهل يمكن أن يصل الاستخفاف بالعقول إلى هذا الحد؟! إن الطفل المدلل هو وحده الذى يستطيع أن يقول كل ما يعن له من شطحات دون أن يحاسبه أحد!! إن دلال جولدا مائير ليس نابعاً من سحرها الشخصى أو جبروت أمتها ولكن من الجدار الأمريكى الذى تستند إليه! وهذا دليل كاف على نوعية العدو الذى كان عبد الناصر يحاربه علي طريقة مكره أخاك لابطل. فقد كان عبد الناصر يتمنى أن يتفرغ للبناء الداخلى لبلده، لكن عوامل الضغط والتشتيت كانت أكثر من أن تحصى عدداً ونوعاً. كان عليه أن يحارب فى أكثر من جبهة في وقت واحد.

كانت حرب الاستنزاف تؤكد لاسرائيل في كل لحظة أنها لن تهرب بالغنيمة التى اقتنصتها فى يونيو ١٩٦٧. ولعل نيكسون كان واعياً بهذا الكابوس الجاثم على كاهل اسرائيل حين طمأن جولدا مائير فى لقائها به فى أغسطس ١٩٧٠ في البيت الأبيض قائلاً لها:

"إن الشعب في اسرائيل قد ربح السلام بدون عقود أو مواثيق، السلام الدائم، وسنقوم بجهودنا

من أجل تثبيت هذا السلام الذى يعنى الكثير للشعب الاسرائيلى، ولشعوب المنطقة، وكذلك لشعوب العالم".

لكن نيكسون لم يفصح عن الجهود التى سيبذلها من أجل تثبيت هذا السلام، لأن السلام لايمكن أن يفرض علي شعوب المنطقة بقوة اسرائيل المدججة بالسلاح حتى أسنانها. وحرب الاستنزاف لم تشتعل لمدة ثلاث سنوات متصلة إلا لقهر هذا الاستسلام الذى يحاول فرض الأمر الواقع الناتج عن حرب يونيو ١٩٦٧. وإذا كان السلام الذى يتكلم عنه نيكسون يعنى الكثير لشعوب العالم أيضاً، فلابد أن يكون سلاماً قائماً على العدل، أما السلام بهذا المعنى الأمريكى الإسرائيلى فلايعنى سوي التمهيد الفعلى لحرب قد تمس القوتين العظميين في الصميم، وهو ماوقع بالفعل في أكتوبر ١٩٧٣.

ومع ذلك كانت جولدا مائير منتشية بحديث نيكسون معها لأن كل مايهمها أن تظل الأمور على ماهى عليه بأى شكل كان، إذ أنها كانت تظن، مثل معظم الاسرائيليين، أن العرب كالأطفال الذين ينفعلون ويثورون في البداية ضد وضع لايعجبهم، لكنهم مع مرور الأيام واستقرار الواقع الجديد يستكينون لهذا الوضع ويصبح جزءاً لايتجزأ من حياتهم. ولذلك كانت حرب الاستنزاف هى الكابوس الذى يؤرق حياتها في الصحو والمنام، مما جعلها تهرع إلى نيكسون لعله يساعدها في تثبيت الواقع الجديد بالتخلص من منغصات عبد الناصر التى أحالت حياة اسرائيل إلى جحيم. ولذلك نضحت كلمات جولدا مائير بالسعادة وهى تقول لنيكسون :

"سيدى الرئيس، أشكرك جداً ليس فقط من أجل ضيافتك، أو لهذا اليوم العظيم، أو لكل لحظة قضيتها بينكم، بل أشكركم أكثر لإتاحة الفرصة لى كى أعود إلى بلادى، وأخبر الشعب هناك أن له صديقاً، وصديقاً عظيماً فى البيت الأبض، سيساعدنا

في التغلب علي مصاعبنا".

وعادت جولدا مائير إلى اسرائيل، ولم يكن في استطاعتها الإعلان عن صفقة الطائرات الفانتوم إذ أنها هى التى طلبت ألا يصدر بيان مشترك في أعقاب المباحثات لتجنب أية إثارة هى فى غنى عنها، خاصة وأنها كانت واثقة من إتمام هذه الصفقة :

"فحرب الاستنزاف كانت ماتزال مستمرة، والنشاط الفدائى لم يتوقف بعد، وتزايد تردد وتواجد الشخصيات السوفييتية في العواصم العربية، مع توارد الطائرات المقاتلة، وصواريخ أرض - جو، كل ذلك كان يعنى أن السلام بعيد عن متناولنا".

وفى شهر أغسطس نفسه عام ١٩٧٠، أعلن عبد الناصر موافقته على مبادرة روجرز. وهى موافقة أثارت مزيداً من الارتياح والقلق في الوقت نفسه داخل مائير التى كانت تؤكد دائماً ادراكها الواعى بنوايا الرئيس عبد الناصر. كان الارتياح لأنه أصبح فى استطاعة اسرائيل أخيراً أن تلتقط أنفاسها اللاهثة وأن تضمد جراحها بعد ثلاث سنوات من النار المصرية التى اصطلتها، لكن القلق كان نتيجة لأن موافقة عبد الناصر على وقف اطلاق النار لمدة تسعين يوماً لابد أن تكون لتغطية وحماية خطوة جديدة يخطط لها ليواصل تنفيذ استراتيجيته ذات الأبعاد والأعماق المتعددة. والدليل علي ذلك دفع منصات اطلاق الصواريخ إلي أقرب خطوط من القناة عشية وقف اطلاق النار، مستغلاً في ذلك قبول اسرائيل للمبادرة وعجزها عن ضرب هذه القواعد بعد أن تهيأت المنطقة كلها ومعها العالم لهدنة الشهور الثلاثة.

لكن ارتياح مائير يزداد في حين يتناقص قلقها بوفاة عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بعد أن أنهكته الأحداث والأهوال الجسام التى مر بها، وبتولى

الرئيس السادات رئاسة الجمهورية من بعده. فقد كانت ترى فى السادات سياسياً أكثر منطقية وعقلانية من عبد الناصر، ويمكن أن يؤمن السلام لشعبه، بالإضافة إلى دلائل كثيرة أكدت أنه لم يكن على علاقة طيبة مع السوفييت مما يرجح ميله بالتدريج إلى الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة.

شعرت جولدا مائير أن وفاة عبد الناصر كانت هدية من القدر أو السماء. وهى فى هذا الشعور مثل معظم اليهود، تؤكد بأن السماء ترعى اسرائيل رعاية خاصة، برغم أحداً لايستطيع أن يدرك السر فى هذه الرعاية أو أن يفسرها تفسيراً علمياً، سوى أن اليهود هم شعب الله المختار، وهو تفسير غيبى وخرافى لايمت إلى التفكير العلمى بصلة.

وإلى هنا تنتهى شهادة جولدا مائير عن حرب الاستنزاف، وهى الشهادة التى كتبتها فى مذكراتها التى نشرتها بعنوان "حياتى" وفيها تعترف صراحة بأن حرب الاستنزاف كانت كابوس اسرائيل فى صحوها ومنامها. كابوس حرمها من قطف ثمار نصرها فى يونيو ١٩٦٧، وأثبت للعالم أجمع إن مصر التى كانت في أشد حالاتها ضعفاً وهزالاً في أعقاب حرب يونيو، استطاعت أن تتحدى كل المعوقات والإحباطات والحملات المسعورة المضادة، وأن تمسك بزمام المبادرة حتي عاد التوازن العسكرى والسياسى إلى وضعه الصحيح في المنطقة، وأصبحت اسرائيل في حالة دفاع دائم عن نفسها. وهذا دليل مادى دامغ على مدى منطقية وعقلانية الاستراتيجية العلمية والعملية التى ابتكرها عبد الناصر وسار علي هديها برغم محاولة جولدا مائير التقليل من شأنه فى هذا المجال. والله وحده يعلم ماالذى كان يمكن أن يفعله عبد الناصر بعد انتهاء هدنة التسعين يوماً إذا امتد به العمر. ومع ذلك فان استراتيجيته، وفكره، ومنهجه، وقدرته علي المبادرة، واحساسه المتأجج بالكرامة القومية، وتفوقه في ضبط الحسابات التى تربط بين كل الاعتبارات والاحتمالات في منظومة زاخرة بالتفاعل والتناغم، وحشده لكل طاقات الأمة المعنوية والمادية، ونظرته الشاملة إلى معطيات السياسة الخارجية والدولية سلباً أو إيجاباً، كل هذا وغيره من

شأنه أن يؤكد لنا زحف عبد الناصر بخطى ثابتة واعية علي طريق التحرير واستعادة الكرامة القومية لو امتد به العمر. لكن الأهوال التى حملها علي كاهله والتى يمكن أن تنوء بها الجبال، أطبقت فى النهاية على أنفاسه، فخر شهيداً فى سبيل الحفاظ على الشرف العربى وعلي مستقبل الأمة العربية كلها.

(٢) ييجال آلون

ييجال آلون من القادة الاسرائيليين الذين نالوا حظاً وافراً من العلم والثقافة بالاضافة إلى خبرته العسكرية التى تبلورت منذ أن تولى قيادة المنطقة العسكرية الجنوبية في حرب ١٩٤٨ وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره. وعقب قيام الدولة الصهيونية، اتجه إلى الدراسة فى الجامعة العبرية وجامعتى لندن وأوكسفورد. وكان أحد نجوم حزب العمل، وأصبح وزيراً للعمل عام ١٩٦١ ثم نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً لاستيعاب المهاجرين ثم وزيراً للتعليم والثقافة. وهو من أكثر الزعماء الإسرائيليين ترويجاً لفكرة الحدود الآمنة غير المحددة التى تبلور فكرة الأمن بشكل جغرافى، وتسقط العنصر التاريخى كلية، بحيث أصبح الاسرائيليون يتصورون أنه عن طريق الاستيلاء على قطعة أرض ما أو على هذا الجزء من العالم العربى أو ذاك، فإنهم يحلون مشكلة الأمن ويصلون إلى الحدود "الآمنة" فى مفهومهم. ولكن الهجمات الإسرائيلية التى كانت ترمى لتحقيق الأمن كانت تؤدى دائماً إلى نتيجة عكسية، حتى بلغت التناقضات قمتها مع انتصار يونيو ١٩٦٧. فقد تكفلت حرب الاستنزاف على مدى ثلاث سنوات متصلة باثبات أن الحدود الآمنة هى فى حقيقتها حدود قاتلة.

وفى أثناء حرب الاستنزاف ارتبط اسم آلون بمشروع للتسوية يبرر التوسع الاسرائيلى الاقليمى ويتضمن اقامة كيان سياسى هزيل للفلسطينيين يخضع لسيطرة اسرائيل. كما يرفض آلون الدمج الاقتصادى الكامل بين اقتصاد اسرائيل واقتصاديات المناطق العربية المحتلة، ويحذر من اختلال التوازن السكانى لصالح العرب فى الأراضى التى تحتلها اسرائيل. وقد عبر آلون عن هذه التوجهات فى عدة كتب من تأليفه، أهمها "بناء الجيش الاسرائيلى"، و "الستار الرملى" الذى ألفه فى أثناء حرب الاستنزاف فى محاولة مستميتة لامتصاص آثارها السلبية سواء على الجبهة العسكرية أو الجبهة المدنية، وذلك بتذكير أبناء جلدته بانتصاراتهم المجيدة التى حققوها فى يونيو ١٩٦٧ لأسباب يحللها بالتفصيل حتى ترسخ فى أذهانهم، ويتمسكوا بها

فى مواجهة التهديد المستمر والمتصاعد الذى تمثله حرب الاستنزاف .

كان آلون يهدف إلى جعل كتابه هذا نوعاً من خط بارليف معنوى وفكرى وعقيدى حتى يقاوم الجنود الاسرائيليون المرابطون على خط النار كل مظاهر اليأس والاحباط التى تنهال عليهم مع قنابل وقذائف المدفعية الثقيلة المصرى ، وهجمات وكمائن الفدائيين المصريين . ولعل هذا هو سبب تسمية الكتاب "الستار الرملى" لكى يكون مرادفاً سياسياً وفكرياً للساتر الرملى المعروف باسم خط بارليف . ولاشك أن آلون أقنع القادة الاسرائيليين بمعظم ما جاء فى كتابه الذى لقى صدى وهوى فى نفوسهم وعقولهم .

ويرى آلون أن الزعامات الصهيونية التاريخية كانت على حق عندما أصرت على اعتماد الأمن الإسرائيلى دائماً على قوة عظمى ما ، لأن الظروف التى أدت إلى ظهور زعيم معاد وعنيد وصلب وخطير مثل عبد الناصر يمكن أن تتكرر مرة أخرى . ولهذا حرصت اسرائيل دائماً على أن تكون علاقاتها ممتازة باحدى الدول الامبريالية الكبرى كوسيلة لضمان أمنها . لكن حرب الاستنزاف أثبتت أن أهم عناصر الأمن الإسرائيلى هو العنصر العسكرى الذى لولاه لاجتاحت القوات المصرية سيناء مرة أخرى .

ويركز آلون على خمسة عناصر لاغنى عنها للاستراتيجية العسكرية لنظرية الأمن الإسرائيلى ، وتتمثل فى مبدأ التفوق والردع الذى يفترض ضرورة تمتع اسرائيل بالتفوق العسكرى المطلق ، ومبدأ الحرب الخاطفة التى تتطلب التركيز على سلاح الطيران ونقل الحرب إلى أرض العدو فى أول فرصة ممكنة ، ومبدأ الهجوم المضاد الاجهاضى وهو ضرورة أن تكون الحرب الخاطفة مباغتة ، ومبدأ الحرب القصيرة بسبب ضعف الموارد الاسرائيلية ، ومبدأ الاعتماد على القوة الذاتية .

وكان قلق آلون صادراً من أن حرب الاستنزاف استهدفت هذه العناصر أو المبادئ الخمسة فى محاولات مستميتة من عبد الناصر لضربها فى مقتل . فقد

اهتز مبدأ التفوق والردع تحت وطأة المبادرات العسكرية المتتابعة للمدفعية والصواريخ المصرية وهجمات الفدائيين المتصاعدة. كذلك لم تعد الحرب خاطفة بحيث يمكن نقلها إلى أرض العدو فى أول فرصة ممكنة، إذ أن اسرائيل أجبرت على أن تخوض لأول مرة فى تاريخها حرباً ممتدة لثلاث سنوات متصلة، مع استحالة نقلها إلى أرض العدو لأنها كانت تدور بالفعل على أرض العدو، ولايمكن التوغل فى بحار الكثافة السكانية المصرية التى يمكن أن تبتلعهم عن بكرة أبيهم. أما مبدأ الهجوم المضاد لإجهاض قوة العدو الضاربة من خلال حرب مباغته فقد أصبح مستحيلاً لأن العدو أصبح فى حالة يقظة دائمة تتحول فى معظم الأحيان إلى مبادرة شديدة الوطأ. أما مبدأ الحرب القصيرة بسبب ضعف الموارد الاسرائيلية فقد تحولت الحرب إلى استنزاف متجدد ومتصاعد لهذه الموارد مما أثر بالسلب على برامج الانتاج والتنمية لانغماس القوى البشرية فى المجهود الحربى الذى لم يقتصر على فقدان الوقت والجهد الانتاجى فحسب بل امتد ليشمل فقدان الأرواح واصابة الأحياء بالعاهات والعجز. أما المبدأ الأخير وهو الاعتماد على القوة الذاتية فقد أثبتت حرب الاستنزاف أن اسرائيل لاتملك قوة ذاتية للاعتماد عليها، بل هى تستمد قوتها العسكرية والسياسية بل والاقتصادية من الولايات المتحدة الأمريكية، بدليل توافد المسئولين الاسرائيليين على واشنطن بصفة منتظمة، خاصة عند اشتداد الضربات المصرية على الخطوط الاسرائيلية، مثلما فعلت جولدا مائير فى زيارتها لأمريكا فى أغسطس ١٩٧٠.

لقد ضربت حرب الاستنزاف نظرية الأمن الإسرائيلى فى الصميم فى حين ظن الاسرائيليون أنهم حصلوا على الحدود الآمنة باحتلالهم الخطوط التى بلغوها فى حرب ١٩٦٧. فقد تضاعف احساسهم بأنهم كيان مزروع بلا جذور لأنه مستورد وممول من الخارج، ولايمكن أن يتفاعل مع الواقع التاريخى العربى المحيط به. وبالتالى لابد أن يواصل حياته العسكرية كمعسكر دائم ومتأهب للقتال بحيث تنتفى الفواصل بين الشعب والجيش.

وخطورة حرب الاستنزاف فى نظر آلون أنها تعيد للمصريين والعرب ثقتهم بنفسهم، ووعيهم بالمزايا التى يمتلكونها وتحقق لهم قدرة عسكرية فائقة مثل الأغلبية الساحقة فى مواجهة أقلية ضئيلة هم اليهود فى اسرائيل، وإحاطة الأرض العربية باسرائيل من كل جانب بحيث يمكن أن تفرض عليها حصاراً خانقاً، وامتلاك العرب لنصف احتياط البترول العالمى فى حين لاتملك إسرائيل سوى موارد طبيعية هزيلة، وسهولة اتصال العرب بعضهم ببعض فى مواجهة اسرائيل التى كتب عليها أن تعيش معزولة فى المنطقة التى زرعت نفسها فيها قسراً، وقد ضاعفت حرب الاستنزاف من وطأة هذا الشعور المرير واليائس لأن التهديد لم يعد متوقعاً فحسب بل أصبح قائماً بالفعل وبصفة يومية.

لكن آلون يعزى شباب إسرائيل بقوله إنه فى مقابل كل هذه المزايا العربية، فإن اسرائيل تتمتع بميزة واحدة تحقق لها التفوق على البلاد العربية مجتمعة، وهى الممارسة الديمقراطية التى جعلت من اسرائيل واحة الديمقراطية فى الشرق الأوسط على حد قول هيوبرت همفرى نائب الرئيس الأمريكى ليندون جونسون عشية حرب يونيو ١٩٦٧. ذلك أن بناء إسرائيل الاجتماعى والسياسى يجمع بين التوجهات الحضارية التى تمزج بين الحرية الديمقراطية والعدالة الاشتراكية فى مواجهة نظم حكم متخلفة. كذلك يحاول آلون التخفيف من آثار حرب الاستنزاف على المقاتل الاسرائيلى، بالتأكيد على تفوق إسرائيل فى نوعية الشعب ومحاربيه، وفى الروح القتالية، والمستوى العلمى والثقافى والتكنولوجى، والقدرة التكنيكية لجيش الدفاع الإسرائيلى والموهبة القيادية التى تضع لإسرائيل نظرية أمن تضمن لها الوجود ومواجهة كل المتربصين بها.

لكن آلون يعترف فى الوقت نفسه بأن اسرائيل لاتعيش بالديمقراطية وحدها، بل بالجيش القوى ذى الذراع الطويلة التى تبطش بكل من يجد فى نفسه القدرة على تحديها وتهديدها، لدرجة أنه يصعب التفرقة بين الجيش والشعب لأنهما فى الواقع كيان واحد. أى أن المجتمع الإسرائيلى مجتمع غير

طبيعى لأنه يعيش فى معسكر دائم لايعرف فيه القادة سوى إصدار الأوامر، ولايعرف فيه المقودون سوى تنفيذ الأوامر. فهذه هى طبيعة الحياة العسكرية. فكيف لمجتمع عسكرى مثل إسرائيل أن يكون ديمقراطياً ؟ هل يجرؤ أى اسرائيلى مثلاً على المناداة بعودة اليهود إلى البلاد التى أتوا منها وترك الأرض لأصحابها الأصليين سواء أكانوا من الفلسطينيين أم من اليهود ؟! أو مجرد المناداة بالانسحاب من سيناء حتى لاتتعرض حياة الشباب الاسرائيلى للخطر ؟! فمن الطبيعى ألا يجرؤ أحد على تحدى المؤسسة العسكرية التى تعد الحاكم الحقيقى والفعلى فى إسرائيل منذ نشأتها. واذا كانت هناك نقمة على الحرب الجارية، فليست هذه النقمة تعبيراً ديمقراطياً عن الوضع العسكرى والموقف السياسى بقدر ما هى تنفيس عن مرجل البخار الذى يكاد ينفجر نتيجة لحرب الاستنزاف.

وقد أدرك آلون أن حرب الاستنزاف تهدف بالتدريج إلى سلب اسرائيل من ثمار انتصاراتها فى يونيو ١٩٦٧، وهى الانتصارات التى ترتبت على سرعتها الخاطفة فى شن غاراتها الجوية الأولى على الطائرات المصرية الرابضة فى قواعدها، والتى أفسحت الطريق بعد ذلك للقوات البرية كى تصل إلى الضفة الغربية لقناة السويس. وبذلك اكتسبت اسرائيل من العمق الاستراتيجى والموارد الطبيعية ما يحرم أعداءها من ميزتى المبادرة والمفاجأة. لكن هذا العمق الاستراتيجى فى حد ذاته تحول فى حرب الاستنزاف إلى مصيدة لاسرائيل. فإذا كان سلاح الطيران المصرى قد دمر فى يونيو ١٩٦٧، ولم تستطع مصر تعويضه قبل عام ١٩٧٠ بحيث لم يستطع شن غارات جوية على سيناء، ناهيك عن العمق الاسرائيلى، فإن القوات الاسرائيلية المرابطة فى جبهة سيناء كان هدفاً يومياً للمدفعية الثقيلة والصواريخ المصرية، ولهجمات الفدائيين الذين يعبرون القناة ليلاً والذين يعدون الكمائن ويزرعون الألغام. وبالتالى ضاع عنصر المبادرة والمفاجأة لأن القوات المسلحة المصرية فى حالة تأهب كامل، ودروس يونيو ١٩٦٧ لايمكن أن تنسى، والحرب التى حسمتها

إسرائيل فى عدة أيام تحولت إلى حرب كتب عليها أن تخوضها فى عدة سنوات.

وبرغم هذه الأوضاع والحقائق الواضحة التى صنعتها حرب الاستنزاف، فإن آلون ظل يطمئن جنود اسرائيل لامتلاكهم القدرة على المبادرة الاستراتيجية التى تجعلهم دائماً مهاجمين يجبرون العدو على التزام موقف الدفاع الضعيف، والتى بفضلها أمنت إسرائيل مستقبلها بل وضمنت مستقبل اليهود فى العالم أجمع. ذلك أن القدرة الهائلة على الاختراق، وقوة النيران وكفاءتها، والتقدم السريع فى المناطق الوعرة، مكنت القوات البرية بمساعدة القوات الجوية من التقدم بسرعة خاطفة صوب الممرات وفى مؤخرة العدو لسد طرق انسحابه إلى قناة السويس. ولذلك يبشر آلون شعبه وجيشه أن النصر العسكرى الكبير الذى تحقق فى يونيو ١٩٦٧ لابد أن يتحول من مجرد نصر عسكرى إلى كسب سياسى ثابت طويل الأجل، وذلك باحتواء كل الآثار السلبية التى يمكن أن تحدثها حرب الاستنزاف فى البنية العسكرية والمدنية ثم الرد عليها بمنتهى العنف والبطش فى أية بقعة يمكن أن تؤلم المصريين وتؤثر فى ارتباطهم الوثيق بعبد الناصر الذى زادت صلابته واصراره وصموده وتحديه بعد الهزيمة التى ظنت إسرائيل أنها ستكون نهايته المحتومة، وبعدها يأتى الاستسلام المصرى كله على طبق من فضة. لكنه بحرب الاستنزاف أثبت أنه لم ينحرف بعيداً عن رؤيته الاستراتيجية، ولم يتعثر فى خطواته التكتيكية برغم تدهور حالته الصحية سواء الجسدية أو العصبية أو حتى النفسية.

ويدعى آلون أن جيش اسرائيل قادر دوماً على حمايتها دون الاعتماد على المساعدة الأجنبية، لأن الارتباط العسكرى يجر وراءه الارتباط السياسى الذى يحد من حرية استخدام القوة حتى فى حالة الدفاع عن النفس. وهو يتجاهل بهذا كل رحلات القادة الإسرائيليين - وفى مقدمتهم جولدا مائير رئيسة الوزراء - إلى واشنطن لاستجداء كل أنواع السلاح. وأمريكا لاتبخل أبداً على اسرائيل بكل ما تطلبه، ليس من السلاح فحسب، بل من المعونة المادية

والتكنولوجية، لأنها تدرك جيداً أن وجودها الفعلى رهن بهذه المساعدة. وهذا الكرم الأمريكى ليس صادراً عن عشق أو تدله أو غرام أو نزق أو طيش، بل عن حسابات استراتيجية دقيقة تؤكد أن اسرائيل كقاعدة أمريكية فى قلب الشرق الأوسط أرخص تكلفة بكثير مما لو أرسلت الولايات المتحدة أساطيلها وحاملات طائراتها لكى تفرض سيطرتها على المنطقة. هذا طبعاً بالإضافة إلى أن الجنود الاسرائيليين هم الذين يصابون أو يخرون صرعى فى المعارك المتجددة مع العرب بدلاً من الجنود الأمريكيين. ولذلك فإن عبء الاستنزاف يقع أساساً على إسرائيل، فى حين أنه يشكل تنشيطاً لدورة رأس المال الأمريكى، وتطويراً لنوعيات السلاح الأمريكى بعد تجريبه العملى فى ميادين المعارك. ذلك أن مصانع السلاح تتخلص من الفائض لديها وتتجه إلى تصنيع أسلحة أكثر تطوراً، فتدور عجلة الانتاج والابتكار، ويعم الخير كل الأطراف المعنية باستثناء إسرائيل التى لاتتوقف عن تشييع جنازات القتلى فى حرب الاستنزاف.

ثم يشعر آلون بوطأة حرب الاستنزاف التى يحاول أن يخفف منها فى كتابه "الستار الرملى"، فيذكر الإسرائيليين بحكمة "سن تزو" فيلسوف الحرب الصينى القديم عندما قال: "لاتركن إلى مجرد الأمل بأن العدو لن يهاجمك بل كن على استعداد دائم لمواجهته. هذه هى الحكمة التى علمتنا الحرب إياها". فما بالك إذا كانت الضربات الصاروخية والمدفعية والهجمات الفدائية قادمة على قدم وساق، ليل نهار ؟

ويبدو أن تفاؤل آلون بنتائج حرب يونيو ١٩٦٧ كان وطيداً وراسخاً فى أعماقه، أو ربما كان مفتعلاً لبث الأمل فيمن حوله، لذلك يبشر آلون الاسرائيليين بأن المرحلة التالية لحرب يونيو ١٩٦٧ ستكون مرحلة عقد معاهدات صلح مع الدول العربية، وتهيئة ظروف وترتيبات مناسبة لمنع نشوب حرب أخرى. وكأن حرب الاستنزاف ليس لها وجود فى تلك الفترة. فقد أصر على معايشة وهمه الجميل كأنه حقيقة واقعة، لكن الوهم الجميل

بطبيعته لايصمد فى مواجهة الحقائق والأوضاع الراسخة، ولذلك سرعان ما ينتقل آلون من مرحلة التفاؤل بالمستقبل المشرق إلى مرحلة التمنى وتعليل النفس باقتراب هذا المستقبل، وبدلاً من استخدام تعبيرات مثل "لقد حققنا كذا وكذا، وأنجزنا كيت وكيت"، نجده يلجأ إلى تعبيرات مثل "كان يمكن أن . . . ." وهو يدرك فى أعماقه أن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. يقول:

> **"كان المنطق يشير إلى أن نتيجة الحرب الأخيرة (حرب يونيو ١٩٦٧) كان يمكن أن تتيح ظروفاً مناسبة لتحقيق السلام كهدف ضرورى وحيوى. وعلى الرغم من أن الزعماء العرب - وفى مقدمتهم عبد الناصر - يرفضون انتهاج سياسة واقعية محبة للسلام، فإن تداعيات الحرب كان يمكن أن تؤدى إلى ما يسمى "بلحظة مواجهة الحقيقة". وهذا يؤدى بالتالى إلى دفع بعض القيادات والحكومات العربية للاعتراف بأن وجود إسرائيل فى المنطقة هو حقيقة واقعة، وبأن دولة اسرائيل وجدت لتبقى بحيث لايمكن ازالتها بهذه البساطة، وأن مصير أية محاولة أخرى لإنهاء وجودها، لابد أن تصل إلى نفس النتيجة التى بلغتها فى المحاولات السابقة".**

إن لحظة مواجهة الحقيقة التى يتحدث عنها آلون لاتعنى سوى لحظة قبول الاستسلام والخضوع والخنوع والذل. فهل كان آلون يظن أن عبد الناصر بكل أمجاده وانتصاراته التاريخية التى تركت بصماتها غائرة وواضحة على تاريخ العالم المعاصر، يقبل بهذه البساطة ما يسميه "لحظة مواجهة الحقيقة" ؟! لكن الحقيقة التى يتحدث عنها آلون لها ألف وجه وألف قناع، ومع ذلك يتمنى آلون أن تتوحد نظرته إلى الحقيقة مع نظرة عبد الناصر بهذه البساطة !! إنها مخايل الغرور والعنجهية التى أصابت القيادات

الاسرائيلية فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧، والتى كانت حرب الاستنزاف هى الرد الوحيد عليها.

كذلك يسدى آلون بنصائح عجيبة وغريبة إلى القادة العرب، يعرب فيها عن حرصه الشديد على المصالح الاقتصادية والاجتماعية للبلاد العربية، وخوفه الممض من كل ما يهدد سيادتها وحريتها نتيجة انفاقها الباهظ على التسليح، ووقوعها تحت وطأة الفروض التى تهدد اقتصادها وكيانها وحريتها!! ولنأخذ جانباً من نصائح آلون الذهبية أو بالأحرى تمنياته أو أوهامه بأنه يمكن أن يحدث كذا وكذا. يقول:

> **"كان من الممكن أن يسود المنطق أيضاً فى اقناع البلاد العربية بأن السباق المحموم للحصول على أسلحة على درجة عالية من التطور العلمى والتكنولوجى بالاضافة إلى الاحتفاظ بجيوش ضخمة لاتحتملها ميزانياتها، لابد أن يضر ضرراً بالغاً بمصالحها الاقتصادية والاجتماعية. كذلك فإن هذا التوجه يعمق من علاقاتها بالدول الأجنبية التى تمنحها السلاح، والتى تهدد بالتالى استقلالها الذى كافحت من أجل الحصول عليه كفاح الأبطال !! ذلك أن الخبراء والفنيين والمستشارين الأجانب المتدفقين على مصر وسوريا فى أعقاب شحنات الأسلحة، يمثلون خطراً كبيراً يهدد سيادتهما وحريتهما !!".**

أى أن الخبراء والفنيين والمستشارين السوفييت الذين جاءوا إلى مصر وسوريا لدعم وتطوير مجهودهما الحربى فى مواجهة الاحتلال الإسرائيلى لأراضيهما، هم فى حقيقة أمرهم رموز فعلية لاحتلال اقتصادى واجتماعى وسياسى، يجعل مصر وسوريا تدوران فى الفلك السوفييتى، ويشكل استنزافاً لمواردهما المالية، وانتشاراً للأفكار الشيوعية المدمرة، أما الاحتلال الإسرائيلى

فلا خوف منه على السيادة العربية لأنه المقدمة الطبيعية للسلام الحقيقى، وتركيز الجهود العربية فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية وفى تدعيم الاستقلال السياسى. وهكذا يستهين آلون بالعقل العربى إلى هذه الدرجة، وكأن حرب يونيو قد جعلت من العالم العربى مسرحاً للعرائس التى يمسك بخيوطها لكى يتلاعب بها كما يشاء. يقول بلا خجل:

> **"فإذا نظرت البلاد العربية نظرة موضوعية إلى مصالحها الاقتصادية والاجتماعية من جهة، ومصالحها السياسية القومية من جهة أخرى، فإن هذه النظرة الموضوعية يمكن أن تؤدى إلى التخلى عن فكرة الحرب من أجل تركيز الجهود القومية فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية وفى تدعيم الاستقلال السياسى. وتأسيساً على ذلك يصبح الصلح مع إسرائيل، مفتاحاً وحيداً للتقدم بالنسبة لشعوب المنطقة، وضماناً أكيداً لسيادتها الوطنية".**

لكننا نكتشف أن ما يقوله آلون هو من باب التمنيات والأوهام وليس من باب معالجة الوقائع الحية والأوضاع العملية. إذ أنه يعود إلى استخدام مصطلحات أو تعبيرات مثل "كان يمكن أن يحدث كذا وكذا". ذلك أن حرب الاستنزاف كانت الرد العملى على هذه الاستهانة المتجددة بالمصير العربى، مما يوضح لنا أن عبد الناصر كان يقرأ بامعان ما يدور فى عقول القيادات الإسرائيلية، ويطبق شعاره الذى أعلنه "ما أخذ بالقوة لابد وأن يسترد بالقوة"، لأن القوة هى اللغة الوحيدة التى تفهمها إسرائيل. أما ما يقوله آلون فهو من باب الهراء الذى قد يجوز على الجنود الإسرائيليين فى الجبهة وعلى رجل الشارع فى إسرائيل لأغراض الاستهلاك المحلى، أما عبد الناصر فلم يكن لديه رد على اسرائيل سوى الصواريخ والقنابل والألغام والمدفعية الثقيلة والغارات الجوية والهجمات والكمائن الفدائية توطئة لحرب التحرير الشاملة. ومع ذلك

يقول آلون عن أوهامه وتمنياته التى يعترف بتلاشيها تحت وطأة حرب الاستنزاف:

"هذا هو المنطق الذى كان يمكن أن يسود ويفرض نفسه، لكن الواقع الفعلى يؤكد أنه لايوجد أى احتمال لذلك. ولعل السبب فى هذا التوجه الذى لايمت بصلة إلى المنطق العقلانى، يرجع إلى عجز الزعماء العرب عن الارتفاع إلى مستوى مسئولياتهم القومية. ولذلك فإنهم - على النقيض تماماً من تمنياتنا - ضاعف بعضهم من تشدده، بل عاد إلى ترديد نغمة الحرب الكريهة، فاستبدل شعار "تصفية إسرائيل وتحرير فلسطين" بشعار آخر يعنى نفس التوجه وهو "ما أخذ بالقوة لابد وأن يسترد بالقوة".

ولايذكر آلون اسم عبد الناصر لأنه من الواضح أنه يصيبه بحساسية شديدة، وربما كان ذا وقع غير مرغوب فيه على قراء كتابه من الإسرائيليين. بل إن التزييف بلغ حداً جعله يرادف بين "تصفية اسرائيل وتحرير فلسطين" وبين استرداد الحق العربى المسلوب بالقوة. أى أنه يرجع - بلا خجل - إلى ترديد النغمة السخيفة التى كررتها إسرائيل كثيراً فى محاولة محمومة للتأكيد على أن عبد الناصر لايهدف إلا إلى إلقاء اسرائيل فى البحر، على الرغم من أنه لم ينطق طوال حياته بمثل هذا التصريح الزائف. فعبد الناصر الذى غير مسارات تاريخ العالم المعاصر بعبقرية كاريزمية فذة، لم يكن من السذاجة بحيث ينطق بمثل هذه الشعارات الجوفاء التى تضعه فى موقف حرج هو فى غنى عنه، خاصة وأن التنظير عنده لاينفصل عن التطبيق. فلم يحدث أن شن عبد الناصر حرباً على إسرائيل، بل كانت هى البادئة دائماً بالحرب، فى عام ١٩٥٦ بالتواطؤ مع بريطانيا وفرنسا، وفى عام ١٩٦٧ بالتواطؤ مع الولايات

المتحدة الأمريكية. ذلك أن عبد الناصر كان من أكبر الدعاة للسلام القائم على العدل، السلام الذى يعيد للفلسطينيين حقوقهم المغتصبة، ويوقف التوجهات العنصرية الإسرائيلية عند حدودها حتى لاتصبح بؤرة صديدية لانفجارات العنف والتدمير والحقد والكراهية. وكانت كل أدوات ووسائل عبد الناصر لتطبيق هذه الاستراتيجية من النوع السياسى السلمى الذى يرى فى الرأى العام العالمى، وحركات التحرير من الامبريالية، وتجمع دول عدم الانحياز أودول العالم الثالث، قوة ضاغطة وفاعلة فى إعادة الحق لأصحابه. وهى الأدوات والوسائل والأسلحة التى استخدمها فى عدوان ١٩٥٦، واستطاع بها أن يرد بريطانيا وفرنسا وذيلهما إسرائيل على أعقابها. ومن هنا كان دوره الريادى فى مجال حركات التحرير، وتدعيم حركة عدم الانحياز، ومحاربة التوجهات العنصرية.

لم يكن عبد الناصر داعية حرب أبداً لأن خبرته العسكرية كانت تؤكد أن الحرب لاتحل المشكلات بل تضاعفها وتزيدها تعقيداً وتشعباً. وأن دول العالم الثالث هى فى أشد الحاجة للسلام والاستقرار حتى تتفرغ للتنمية والتطوير والتقدم والازدهار. أما اسرائيل فكانت دائماً بؤرة العدوان والحرب فى المنطقة، لأنهما الأساس الذى نهضت عليه منذ البداية ولاحياة لها بدونهما. والسلام الذى تتشدق به بلا ملل هو الاستسلام العربى فى أبشع صوره. ولذلك عندما شن عبد الناصر حرب الاستنزاف عليها، لم يكن يبحث عن بطولات ضائعة، أو عن خطوات يحفظ بها ماء وجهه على دقات طبول الحرب، بل كان يرى أن القتال قد كتب عليه وهو كره له، فلم يكن أمامه سوى الاختيار بين الاستسلام والخضوع والخنوع والذل وبين المقاومة والقتال والصمود والتصدى لإزالة آثار العدوان على حد قوله. وحقائق التاريخ التى لاتقبل الجدل العقيم توضح إلى أى جانب كان عبد الناصر ينحاز. لكن إسرائيل التى تحدت دائماً حقائق التاريخ بالقوة والبطش والكذب والخداع صورت عبد الناصر من خلال أجهزة الدعاية الصهيونية العالمية على أنه هتلر

جديد جاء ليعيد مأساة اليهود الذين حرقوا فى أفران الغاز الألمانية التى اخترعوها من بنات أفكارهم وأوهامهم وأكاذيبهم، ثم باعوها للعالم على أساس أنها حقائق رهيبة لابد أن يكفر الجميع عنها. وعندما قام بعض المفكرين والباحثين فى فرنسا على وجه الخصوص بتعرية هذه الأكاذيب التى تؤكد أن النازيين أحرقوا ستة ملايين يهودى، وذلك باللجوء إلى الوثائق والمستندات التى تثبت أن عدد اليهود فى ألمانيا فى أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات لم يزد على مليون ونصف يهودى، قامت الدنيا ولم تقعد، لدرجة صدور قانون فرنسى يجرم كل من يشكك فى هذه "الحقائق" اليهودية، ولم يلق هؤلاء المفكرون والباحثون سوى الويل والثبور وعظائم الأمور.

إن هذا يوضح لنا بشاعة الطوفان الذى تصدى عبد الناصر له. لم يكن يواجه اسرائيل بمفردها لأنها ضمن شبكة أخطبوطية عالمية من المنظمات الصهيونية والمصالح الإمبريالية والتكتلات الاقتصادية والأجهزة الإعلامية والدعائية. ومن هنا كانت روعة حرب الاستنزاف التى تحدت كل هذه الضغوط والتكتلات الدولية فى ظل ظروف تكاد تكون مستحيلة، ومع ذلك أثبتت للعالم أجمع أن إرادة الشعوب لايمكن قهرها طالما أنها احتشدت لتقرير مصيرها. ولذلك يقول آلون فى كتابه "الستار الرملى" وقد تلاشى غروره وعنجهيته وأمنياته وأوهامه تحت وطأة حرب الاستنزاف التى نضحت بالمرارة على لسانه وهو يقول:

"ولايقتصر الموضوع على مجرد شعارات فحسب بل استطاعت الجيوش العربية أن تستعيد قوتها، ومازالت شهيتها مفتوحة للمزيد من الأسلحة لزيادة طاقاتها العسكرية سواء من ناحية الكم أو الكيف. وفى الوقت نفسه تعمل جادة لاستيعاب أسلوب الدفاع المضاد للطائرات استيعاباً كاملاً، بالاضافة إلى الحظائر والمخابئ التى تم انشاؤها

لحماية الطائرات، والدبابات البرمائية التى وردت لعبور قناة السويس أو لإنزالها على السواحل. ولم يقتصر الأمر على شراء صواريخ أرض - أرض وبحر - بحر، بل ركزت الدول العربية على انتاجها أيضاً لاقتناعها باستحالة الإغارة على التجمعات السكنية والصناعية فى اسرائيل بالمقاتلات والقاذفات من الجو، إذ من المستحيل مواجهة تفوق السلاح الجوى لإسرائيل ونظام دفاعها الجوى. لذلك فإنه من الأضمن للعرب أن يحققوا أهدافهم بأسلوب "الضغط على الأزرار" أى إطلاق الصواريخ".

أى أن آلون يعترف بأن حرب الاستنزاف ليست مجرد شعارات مرفوعة. وهذا اعتراف له دلالته إذ أن اسرائيل كثيراً ما ادعت على عبد الناصر أنه يرفع الشعارات البراقة التى لايطبقها، وها هو آلون يعدد الإنجازات العسكرية التى تحققت فى ظل حرب الاستنزاف برغم الظروف الصعبة التى مرت بها القوات المصرية والتى سعت اسرائيل دائماً لجعلها ظروفاً مستحيلة. فقد كانت انجازات برية وبحرية وجوية مما ينبئ بحرب طويلة الأمد لم تعتدها اسرائيل من قبل وقد لاتحتملها. فلا يستطيع مجتمع هش مثل المجتمع الاسرائيلى أن يعيش حالة طوارئ بلا أمل فى نهاية قريبة أو بعيدة لها. ولذلك يقول آلون بمنتهى المرارة:

"وبسبب كل ذلك فإن إسرائيل تتوقع فترة طوارئ قد تمتد إلى سنوات قليلة، إذ أنه كتب على إسرائيل ألا تستريح فى المستقبل أيضاً. ومع استمرار هذه الحالة الممضة فإنه يتحتم على إسرائيل تقوية جيشها سواء من ناحية الكم أو الكيف".

وهذا هو الهدف الاستراتيجى الذى كان عبد الناصر يقصده من حرب

الاستنزاف . فقد جعل إسرائيل تشعر أن ما وقع فى يونيو ١٩٦٧ كان مجرد استثناء من قاعدة راسخة ليس من السهل التلاعب بها ، وأن الوضع الذى ترتب على هذه الحرب الشاذة ليس وضعاً طبيعياً بل مجرد فترة طوارئ على حد قول آلون الذى تمنى أن تمتد إلى سنوات قليلة فقط ، لكى يشيع الأمل والتفاؤل فى نفوس جنود اسرائيل المرابطين على خط النار المشتعل بصفة متجددة . لكن الواقع الذى فرضته حرب الاستنزاف كان يرهص بتداعيات لاتبشر بأى أمل أو تفاؤل لإسرائيل التى وجدت فى انتصارها فى يونيو ١٩٦٧ مفارقة غريبة . فالتاريخ يروى مراراً وتكراراً عن الثمار التى قطفتها الجيوش والدول المنتصرة وعادت عليها بالخير العميم ، أما ثمار حرب يونيو ١٩٦٧ فقد أصبح مذاقها كالعلقم فى فم اسرائيل . فالسلام الذى ظنت أنه فرض نفسه أخيراً كأمر واقع لايمكن تحديه ، أصبح أبعد منالاِ . والحرب الباردة المراوغة بين مصر وإسرائيل تحولت إلى حرب ساخنة بالمواجهة المباشرة المشتعلة والمتفجرة بينهما ، لدرجة أن آلون نفسه بكل غروره وعنجهيته يخشى من القصف المصرى الاستراتيجى ضد التجمعات السكنية والصناعية فى إسرائيل ، ولذلك يكشر عن أنيابه قائلاً:

"وإذا فكرت القيادة المصرية أو أية قيادة عربية - خلال فترة الطوارئ هذه - فى القيام بالقصف الاستراتيجى ضد التجمعات السكنية فى إسرائيل فلابد أن تجلب بذلك كارثة على شعبها وذلك بتعريض عشرات الملايين من المصريين لقصف مماثل ، وضرب السدود والجسور والقنوات والمراكز الصناعية المركزة فى شريط ضيق من وادى النيل والدلتا ، فهى تشكل هدفاً سهلاً لقصف استراتيجى مضاد . وذلك بالإضافة إلى أن تجارب الحرب العالمية الثانية وحرب فيتنام أثبتت أن

القصف الاستراتيجى لايحقق النصر ضد شعب مصمم على الدفاع عن نفسه، خاصة إذا لم يتبعه جيش برى تحت مظلة من القوات الجوية لحسم الموقف. وهذه إمكانات ليست فى قدرة الدول العربية وطاقتها".

هكذا بلغ الرعب بالقيادة الإسرائيلية بعد مالقيته قواتهم فى حرب الاستنزاف، فى حين أن عبد الناصر كان قد أعلن صراحة أن هدفه الاستراتيجى هو إزالة آثار العدوان وانسحاب القوات المعتدية إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧. وكانت كل خطواته التكتيكية تسير فى هذا الإطار وذلك لحصر المعركة فى الحدود التى تتيح له تحقيق هدفه الاستراتيجى بكل تركيز ممكن وبعيداً عن أية عوامل للتشتيت أو فتح جبهات أخرى هو فى غنى عنها. وهذا أكبر دليل عملى على منهجه العقلانى الذى يخضع كل معطيات الموقف لحسابات دقيقة لاتفسح مجالاً للانفعالات أو العنتريات. ومع ذلك عبر آلون عن مخاوفه من احتمال أن تخوض إسرائيل معركة دفاعية برغم أنها كانت البادئة بالهجوم دائماً. يقول:

" ومع أهمية الحصول على السيطرة الجوية والحفاظ عليها، فإنه ينبغى علي جيش إسرائيل أن يكون مستعداً لخوض معركة دفاعية في حالة عدم تمكنه من الحصول على السيطرة الجوية لسبب أو لآخر".

وبالإضافة إلي حرص آلون على الحفاظ علي التفوق الاسرائيلى العسكرى براً وبحراً وجواً، فانه يمس نقطة استراتيجية أكثر خطورة وتتمثل فى مجال التفوق العلمى والتكنولوجى خاصة فيما يتصل بالطاقة النووية، إذ يتحتم علي إسرائيل الحفاظ على المستوى الرفيع الذى بلغته فى مجال الأبحاث النووية لأغراض التنمية والسلام. ولذلك ينبه آلون إلى أن التوازن النووى

- إن حدث فى فى المنطقة - لابد أن يحرم إسرائيل من ميزة تفوقها في الأسلحة التقليدية.

ومن الملاحظ أن آلون يتحدث فقط عن أبحاث إسرائيل النووية لأغراض التنمية والسلام، ولايشير من قريب أو بعيد إلى أغراضها فى الحرب والتدمير، وهى المجتمع الذى نهض على القوة العسكرية وعاش بها. ولذلك أيدتها الولايات المتحدة الأمريكية فى عدم توقيعها لاتفاقية حظر الأسلحة النووية، وأغمض العالم الغربى عينيه عن ضربها للمفاعل النووى العراقى جهاراً نهاراً لإجهاض أية محالة لإيجاد نوع من التوازن النووى فى المنطقة. وهذا يدل على أن أهداف إسرائيل واحدة وثابتة منذ إنشائها وحتى يشاء الله أمراً كان مفعولاً. فقد أوشكت علي اتمام نصف قرن من عمرها، لم تحد فيه عن الاستراتيجية التى خطها لها زعماء الصهيونية قبل إنشائها. قد يتغير الأسلوب أو الوسيلة أو الأداة أو الواجهة لكن الغاية أو الهدف يظل كما هو. ولذلك حرص عبد الناصر أن تكون حرب الاستنزاف موجهة ضد الغاية أو الهدف، ومتجنبة للتشتت والضياع بين مختلف الأساليب والوسائل والأدوات والواجهات التى برعت إسرائيل في ابتكارها كى تستنفد طاقة أعدائها.

ولايمل آلون من الربط بين السلام الاسرائيلى والاستسلام العربي، فيوضح أنه منذ الدقيقة التى بدأت فيها حرب يونيو ١٩٦٧، انتهى العمل باتفاقية الهدنة التى عقدت عام ١٩٤٩، وبذلك أصبحت خطوط الهدنة لاغية بعد أن استبدل بها خطوط وقف إطلاق النار الذى تم بموافقة الطرفين بعد حرب الأيام الستة. وكأن العرب هم الذين بدأوا بالحرب وبالتالى عليهم أن يكفروا عن سيئاتهم بالتخلى عن أراضيهم، فى حين أن اسرائيل هى التى بدأت العدوان الفاضح وأصبحت ترى أن من حقها الحصول علي ثماره الحلوة. ولذلك كان هدف حرب الاستنزاف أن تجعل مذاق هذه الثمار مراً كالعلقم. فلايعقل أن تفوز إسرائيل بكل هذه الغنيمة التى لاتستطيع ابتلاعها لضخامتها، وذلك فى غفلة من الزمن، ثم نضع نحن أيدينا على خدودنا لنندب حظنا العاثر

كالعجائز لنحظى برثاء العالم أو تشفيه!! ولذلك فإنها إذا كانت حرب استنزاف لإسرائيل، فإنها كانت حرب استعادة للكرامة العربية. صحيح أن ثمن الكرامة غال للغاية، لكن تظل الكرامة أغلى. وهو الدرس الذي طبقه عبد الناصر عملياً حتى رحيله دون الطنطنة به في أجهزة الإعلام. فقد كانت أصوات الصواريخ والقنابل والمدفعية الثقيلة أعلى من أية أبواق إعلامية أو دعائية.

والحدود الآمنة في نظر آلون هى حدود متحركة بطبيعتها لالتهام المزيد من الأرض العربية والابتعاد بقدر الامكان عن العمق الاسرائيلى. وأية اتفاقيات يمكن أن تعقد بين إسرائيل والعرب لإقرار السلام لابد أن تضع فى اعتبارها الحدود الجديدة، فلايمكن أن تكتفى إسرائيل من الغنيمة بالإياب. ولذلك يقول:

> **"وسوف تصبح خطوط وقف إطلاق النار الحالية (بعد يونيو ١٩٦٧) بمثابة حدود فاصلة إلى أن يتم الوصول إلى اتفاقيات أخرى يتم عقدها بين الأطراف المعنية . ولابد أن يستمر الوجود الإسرائيلي فى المناطق التى تم احتلالها لأنه العامل الوحيد الذى سيجبر الدول العربية علي إجراء مفاوضات مع إسرائيل. أما إذا أصرت هذه الدول على رفضها العنيد لإجراء هذه المفاوضات، فإنه يتحتم على إسرائيل أن تتمسك بالتالى بحدود وقف إطلاق النار حتى يتم الاتفاق علي حدود آمنة ومعترف بها وترتكز على أوضاع طبوغرافية سليمة في نطاق اتفاقيات سلام".**

وبذلك يربط آلون مرة أخرى بين السلام الإسرائيلى والاستسلام العربى لأن المفاوضات التى يقترحها ستتم تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلى

للأراضى العربية. ومعروف أن مايدور على مائدة المفاوضات هو مرآة محدبة أو صورة مصغرة لما يدور علي أرض الواقع، ولذلك لابد من تغيير الواقع أولاً حتى يمكن إجراء المفاوضات من منطلق الكرامة واحترام الذات. ومن هنا كانت حتمية مبدأ أن ماأخذ بالقوة لابد وأن يسترد بالقوة لأنه لايمكن أن يسترد بالمفاوضات. خاصة وأن آلون يؤكد أن إسرائيل أخطأت عام ١٩٤٩ ثم عادت فكررت الخطأ عام ١٩٥٧ عندما تركت قيادها للأمم المتحدة لتسوية النزاع العربى-الإسرائيلى بأساليبها المجحفة لإسرائيل التى لن تقبل هذه المرة بأقل من معاهدات سلام، وتسويات أمن متبادلة وراسخة، وإقامة علاقات متبادلة وتعاون كامل مع الدول العربية، وذلك باجراء مفاوضات مباشرة-سرية أو علنية-دون شروط مسبقة باستثناء الاحترام المتبادل لاتفاقيات وقف اطلاق النار. ويلخص آلون مقترحاته هذه فى أن الهدف منها هو ضمان أن تكون حرب الأيام الستة هى آخر حرب لإسرائيل مع البلاد العربية، على أساس ترسيخ وتدعيم الحدود الآمنة التى تراها إسرائيل.

وتحت وطأة حرب الاستنزاف يكشف آلون بصراحة عن أوراقه أو أوراق إسرائيل، موضحاً مفهومه الحقيقى لمعاهدات السلام التى لايمكن أن تضمن الأمن الإسرائيلى. فهى فى أحيان كثيرة حبر على ورق بدليل أن معظم الحروب فى التاريخ نشبت بين دول سبق لها أن اتفقت على أن تعيش فى سلام بعضها مع بعض. وبالتالى فان أمن إسرائيل لايتحقق بمعاهدات السلام، ولابنزع سلاح المناطق المحتلة، ولابضمان الهيئات الدولية أو الدول العظمى، ولابالقوات الدولية المرابطة علي الحدود، وإنما يتحقق أمن إسرائيل بالحصول على المزيد من الأرض، الذى يضمن لها العمق الاستراتيجى والمواقع الطبوغرافية الملائمة للدفاع. وهذا ينطبق على الوجود الإسرائيلى سواء أكان عسكرياً أو مدنياً أو سياسياً. إن أمن إسرائيل لايمكن ضمانه إلا بعد أن تضع إسرائيل قدمها الراسخة على الأرض المناسبة التي تكفل لها الأمن الحقيقى أولاً وقبل أى اعتبار آخر، ثم يأتى فى المرتبة التالية من الأهمية نزع

سلاح مناطق معينة كجزء من تسويات الأمن التى تتيحها معاهدات السلام. أما إسرائيل فلها الحق كل الحق فى أن تظل مدججة بالسلاح حتى أسنانها، بما فى ذلك السلاح النووى، وعلى من حولها أن يرضخوا لنزع السلاح بعد التفريط فى أجزاء من أراضيهم حتى ترضى عنهم وتمنحهم السلام!!!

هذا هو منطق إسرائيل الذى تضعه دائماً نصب عينيها، مما يؤكد أن حرب الاستنزاف كانت الرد الوحيد علي كل هذه الادعاءات والافتراءات التى تجعل إسرائيل وحدها هى القادرة علي أن تحدد لنفسها ماتريد، وليذهب الآخرون إلى الجحيم. من هنا كان إصرار عبد الناصر على أن يذيقها لفحات الجحيم بحرب الاستنزاف التي لم يخمد أوارها طوال ثلاث سنوات متتابعة، إذ أن آلون لايخجل من الاعتراف بأن إسرائيل تفضل أن تتبع سياسة تضمن لها تحقيق التفوق الاستراتيجى حتى لو أدى ذلك إلى الإقلال من عطف العالم عليها، إذ يمكن لوسائل الإعلام والدعاية الواعية معالجة مثل هذا الموقف بعد ذلك. أى أن هدفها الاستراتيجى أن توجد الحقائق المادية الملموسة، وأن تفرض الأمر الواقع، وبعد ذلك يأتى دور خلق المبررات التي دعت إسرائيل إلي ذلك، وهى لن تعدمها لأن باعها طويل فى هذا المضمار.

وكانت إسرائيل تحلم بأن احتلالها لسيناء بكل مساحتها الواسعة ووضعها الاستراتيجى قد منحها القدرة فى بعض الأحيان على أن تترك القوات البرية المعادية لتتقدم فى قطاعات معينة، وأن تسمح لها بالقيام بالضربة البرية الأولى علي قواتها التى تحتل مواقع دفاعية في العمق، لكن عندما تصبح جيوش العدو مكشوفة فى أثناء تقدمها، توجه إليها إسرائيل ضرباتها القاصمة التى تقوم بها قواتها الجوية مع المدرعات والمدفعية المضادة للدبابات تمهيداً للقيام بالهجوم العكسى الشامل، وذلك علي حد قول آلون.

ونغمة كتاب "الستار الرملى" تتراوح بين التفاؤل المحلق فى سماوات الأمل والمستقبل المشرق عندما يجتر آلون انتصارات إسرائيل فى يونيو ١٩٦٧، وبين الضيق والاكتئاب والتشاؤم عندما يذكر حرب الاستنزاف التى

تهبط به من بين سحب السعادة والغرور علي أرض الواقع الكئيب حيث يتحول أبطال يونيو إلي قتلى حرب الاستنزاف، مما جعله يذكر الولايات المتحدة بفضل إسرائيل عليها، هذا الفضل الذى يجب على الولايات المتحدة أن ترده في كل الأشكال المكنة حتي تواصل إسرائيل الصمود في حرب الاستنزاف، ذلك أن أمريكا ترى فى عبد الناصر عدوها الأول في منطقة الشرق الأوسط وربما فى العالم أجمع. وهو عدو عنيد وصلب وذكى ومناور بل وداهية سياسية وقيادة عسكرية قديرة، وعداوته مكلفة للغاية، والدليل علي ذلك حرب الاستنزاف، لكن إسرائيل هي التى تدفع ثمن هذه العداوة من دماء جنودها وحياتهم، أما أمريكا فتواجه هذه العداوة بالمال والسلاح فقط، ومهما كانت قيمتهما فإنها لن ترتفع إلى قيمة الدم المهدر علي رمال سيناء. ولذلك يقول آلون:

"على الرغم من أن إسرائيل لم تقم فى المنطقة علي أساس الحفاظ على مصالح دولة بعينها، فإن وجودها فى قلب منطقة الشرق الأوسط التى تطل منها على البحر المتوسط جعل منها قاعدة حيوية للحفاظ على المصالح الأمريكية فى هذه المنطقة دون أن تضطر إلى أن تخسر دماء أبنائها فى سبيل ذلك كما يحدث لها فى الشرق الأقصى، إذ تنهض إسرائيل بمهمة الدفاع عن المصالح الأمريكية دون أن تكلفها قطرة دم واحدة. ومن مصلحة الولايات المتحدة الإبقاء على الوضع الراهن فى منطقة الشرق الأوسط بدرجة تفوق احتفاظها بالأمر الواقع فى الشرق الأقصى. ولذلك لاتتأخر الولايات المتحدة عن تقديم كل المساعدات التى تطلبها إسرائيل. ولولا الأهمية السياسية لإسرائيل فى نظر الاستراتيجية

الأمريكية لما قدمت لها أدنى نوع من المساعدات حتى في ظل اتفاقية دفاع مشترك تنهض في أساسها على المصلحة المتبادلة بين الدولتين".

أي أن عبد الناصر عندما أعلن في أثناء حرب الاستنزاف أن أمريكا هي إسرائيل وإسرائيل هي أمريكا، كان يعبر ببساطة عن حقائق الوضع الراهن. وهذا يعني أنه كان يحارب أمريكا وإسرائيل في الوقت نفسه، أمريكا بمساعداتها المالية الضخمة ومعوناتها العسكرية الحديثة، وإسرائيل بأنفارها الذين ترسلهم إلي جبهة القتال. وهنا يعرى آلون عنجهيته بنفسه لأنه يعترف أن إسرائيل هي "مقاول أنفار" لأمريكا التي تدفع لهم أجورهم وتلبي حاجاتهم. ولو ظل هؤلاء "الأنفار" مع أسرهم في البلاد التي جاءوا منها لما مروا بهذه المحن القتالية التي تضع حياتهم ومستقبلهم علي كف عفريت، خاصة وأن جميع اليهود الذين تمسكوا بالحياة في بلادهم الأصلية، ورفضوا الهجرة إلى إسرائيل يتمتعون بحياة الرفاهية التي تجعلهم من نجوم المجتمع ونماذجه الناجحة والمتفوقة. فلايوجد يهودي خارج إسرائيل يعاني من العوز أو الحاجة أو الفشل، بل ويعيش حياة مستقرة ومزدهرة يحسده عليها اليهودي البسيط الذي آثر الهجرة ألي أرض المعاد أو جنة التوراة فلم يجد فيها سوى القلق والخوف والضيق والكآبة والإصابة في الجبهة عندما تندلع الحرب.

ولعل تحليل آلون للعلاقة بين أمريكا وإسرائيل يوضح لنا أن إنشاء إسرائيل كان استراتيجية غربية كما أنه مخطط صهيوني. فالغرب يدرك جيداً أن الأقليات اليهودية المنتشرة بين ربوعه، ليست أقليات منفتحة علي المجتمعات التي تعيش فيها. وهي أقليات يصعب اختراقها أو السيطرة عليها أو تذويبها في المجتمع، ولذلك فهي تشكل مصادر أخطار غامضة قد يصعب تلمسها والتكهن بها، لأنها قادرة علي الوصول إلى مراكز العصب الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والفني والاعلامي، والتأثير بطريقة أو بأخرى في مجريات الأمور في الدول التي تعيش فيها، وهو تأثير قد يكون خفياً وغير مباشر لكنه

يمكن أن يكون مضاداً للتوجهات القومية. من هنا كانت ضرورة ابتكار لعبة سياسية وعسكرية كبيرة تضرب علي الأوتار التاريخية والدينية والأسطورية عند اليهود، بحيث تصبح الشغل الشاغل لهم، حتي بالنسبة للذين لم يهاجروا، إذ يتحتم عليهم المساندة الأدبية والمادية لإسرائيل بصفة متجددة. وبذلك تتحول مراكز الأقليات اليهودية المتناثرة بين بلاد العالم إلى مركز أساسى فى إسرائيل، يسهل التعامل معه على بعد، وفى الوقت نفسه يصبح بؤرة قلاقل متجددة ومحسوبة فى منطقة كانت دائماً مطمعاً لكل الإمبراطوريات الكبرى عبر التاريخ.

أى أن إنشاء إسرائيل بالنسبة لليهود كان تحقيقاً لأحلام وأساطير قديمة ليس إلا، فى حين أنه كان بالنسبة للبلاد الغربية مغنماً مادياً ملموساً سواء على المستوى السياسى أو العسكرى أو الاقتصادى. وهذا يفسر لنا الدور المشبوه الذى قامت به الأجهزة الإعلامية فى الغرب فيما يتعلق بعلاقة النظام النازى فى ألمانيا باليهود المقيمين فيها، بحيث أشاعت وأكدت ورسخت الادعاء الذى ينادى بأن هتلر حرق ستة ملايين يهودى فى أفران الغاز فى حين أن الوثائق الرسمية تشهد بأن عدد اليهود الألمان فى تلك الفترة لم يزد عن مليون ونصف. ولم يكن هذا سوى تمهيد إعلامى من الغرب لإنشاء دولة إسرائيل بصفتها حامية حمى اليهود من مثل هذه المحارق والمجازر، في حين أن شعوباً وفئات أخرى عانت أضعاف مايمكن أن يكون اليهود قد مروا به، ولم يتعاطف معها أحد ولو بكلمة عابرة.

ويبدو أن آلون بذكائه وخبرته العملية وفكرته الاستراتيجية يدرك أن مصلحة الغرب فى إنشاء إسرائيل قد تزيد علي مصلحة اليهود أنفسهم. ولذلك يذكر الولايات المتحدة بفضل إسرائيل التى جنبتها التورط فى معركة أخرى من طراز فييتنام التى فقدت فيها مايربو على خمسين ألف جندى أمريكى، بالإضافة إلى أن أهمية الشرق الأوسط بالنسبة لأمريكا، تفوق بمراحل أهمية الشرق الأقصى. فأمريكا يمكنها أن تحتمل الطرد من الشرق الأقصى ـ وقد

طردت منه شر طردة على أيدى الفييتناميين ـ لكنها لاتستطيع أن تحتمل الطرد من الشرق الأوسط، لأن هذا يعنى تهميش دورها إلي أقصى حد. ولولا وجود إسرائيل فى هذه المنطقة، لكان للعرب شأن آخر مع أمريكا التى تدين بالكثير لإسرائيل. وكان آلون قد كتب هذا الكلام في كتابه "الستار الرملى" وأمريكا في قاع تورطها فى المستنقع الفييتنامى .

فى الوقت نفسه يذكر آلون إسرائيل وأمريكا بأن حرب الاستنزاف لاينبغى أن تصيبهما باليأس من الحصول على السلام، وأن الرغبة العارمة فى الحصول على السلام لاينبغى أن تحول نظر إسرائيل عن الاستعداد الدائم للحرب وذلك بالعمل على زيادة قوتها العسكرية، خاصة وأن حرب الاستنزاف التى لاتهدأ تؤكد أن احتمالات الحرب أكبر بكثير من احتمالات السلام، برغم أن آلون حاول فى معظم فصول كتابه التقليل من شأنها ومن الضغوط التى مارستها سواء علي الجبهة العسكرية في سيناء أو على الجبهة المدنية الداخلية فى إسرائيل. لقد أثبت عبد الناصر ـ برغم هزيمته وانكساره ـ أن مصر قادرة دائماً على استرداد كرامتها حتى فى ظل أصعب الظروف التى يمكن أن تمر بها. ولم تكن هناك ظروف أصعب وأقسى من تلك التى مرت بها مصر فى أعقاب نكسة يونيو ١٩٦٧، لكنها سرعان ماستعادت الإمساك بقدراتها، وشرعت فى استنزاف إسرائيل التدريجى تمهيداً لمعركة التحرير الكامل بازالة آثار العدوان. كانت هذه آخر قضية قومية نذر لها عبد الناصر حياته برغم صحته العليلة، وقلبه المجهد، والسكر الذى دمر جسمه، لكن شيئاً من هذا لم يؤثر علي إرادته الحديدية، والتزامه بمبادئه، بل وقسوته على نفسه، مثلما فعل فى آخر مؤتمر للقمة العربية عقده، وتمكن به من تجاوز أزمة أيلول الأسود. فقد بذل فيه مجهوداً خرافياً أتى على البقية الباقية فى صحته، وأصيب بآخر أزمة قلبية بعد أن قام بتوديع أمير دولة الكويت الذى كان آخر الملوك والرؤساء العرب الذين غادروا القاهرة بعد انتهاء مؤتمر القمة. لكن أزمته القلبية الحادة، لم تصرفه عن متابعة نشرة أخبار الساعة الخامسة مساء

من إذاعة القاهرة لمعرفة ماتم بشأن المناورة التى قامت بها أقوى قطع الأسطول السادس أمام نابولى في ايطاليا وحضرها الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون بنفسه لتهديد جمال عبد الناصر وايقافه عند حده، إذ أنه كان ينوى محاربة إسرائيل بعد هدنة التسعين يوماً. لكن عبد الناصر لم يسمع شيئاً عن هذه المناورة فى النشرة الإخبارية، وكانت آخر جملة نطق بها قبل توقف قلبه نهائياً:

**"نيكسون كان عامل لى مظاهرة فى نابولى
وكنت عايز أعرف إيه الأخبار".**

كان عبد الناصر يدرك تماماً أن معركته الحقيقية والفعلية مع أمريكا، وقد أكد نيكسون نفسه هذه الحقيقة بعد رحيل عبد الناصر بساعات معدودة إذ أصدر أوامره لقائد الأسطول السادس بانهاء المناورة فوراً لأن من كان يريد أن يسمعه أصوات المدفعية وأزيز الطائرات وانفجارات الألغام قد مات.



الفصل الثالث

شهادة اجتماعية

(١) دالتون ترومبو

دالتون ترومبو من الكتاب الاسرائيليين الشباب الذين رصدوا المجتمع الإسرائيلى على حقيقته فى فترة حرب الاستنزاف، وذلك فى كتاب صدر فى يناير ١٩٧٠ بعنوان "حديث المقاتلين". فهو يقدم بالتفصيل الدقيق الوجه الآخر أو المعتم لهذا المجتمع من خلال نماذج من المقاتلين الذين عاشوا فى جحيم الجبهة دفاعاً عن مجتمع مرفه نسيهم تماماً فى لهوه وغروره وعاش على ذكريات حرب الأيام الستة فى يونيو ١٩٦٧ محاولاً نسيان أو تناسى حرب الاستنزاف التى تدور بعيداً عند أطراف شبه جزيرة سيناء، فى حين أن هذه الحرب استطاعت أن تخترق هذا المجتمع اللاهى فى صميمه. وهذا ماأثبته الكتاب من خلال صور تمزج السرد بالرمز، والفكر بالعاطفة، والإقدام بالتراجع؛ وتوازى بين الحياة المدنية المرفهة والحياة العسكرية الكابوسية؛ وتثبت إلى أى مدى أصابت حرب الاستنزاف المجتمع الإسرائيلى بشيزوفرانيا حادة، جعلته ينقسم إلى أكثر من شخصية بلا أى أرض مشتركة تقف عليها هذه الشخصيات المتعددة. وكأن حرب الاستنزاف كسرت البوتقة التى حرص عليها الآباء المؤسسون ومن بعدهم القادة الإسرائيليون كى ينصهر فيها مايمكن أن يسمى بالشخصية الإسرائيلية بحيث تبدو كمنظومة متكاملة أمام العالم أجمع. فقد أثبتت هذه الحرب أنه لايوجد مايمكن تسميته بالشخصية الإسرائيلية، إذ أن الفوارق والاختلافات الفكرية والعرقية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية والطبقية التى جاء بها المهاجرون سرعان ماتطفو على السطح تحت أى ضغط عسكرى أو سياسى أو نفسى. ذلك أن الشعوب تنشأ وتنمو وتتربى فى بيئتها الاقليمية التى تصبح جزءاً عضوياً منها على مر الأجيال والقرون، لكن لم يحدث فى التاريخ أن شعباً تم استيراده من بقاع الأرض المتناثرة، ومن بيئات وثقافات مختلفة فيما بينها، وقد يكون اختلافاً إلى حد التناقض، لكى يقيم فى أرض تم اقتطاعها له بالقوة الجبرية بحجة أنه يدين باليهودية، ثم نطلق عليه لفظ أو مصطلح "شعب".

ولنأخذ حديث أحد المقاتلين الذى كتبه على شكل خطاب موجه إلى عضو

كنيست ، يحكى فيه ماجرى لزملائه فى حرب الاستنزاف التى جعلت منهم وقوداً لها بعد أن صورتهم أجهزة الإعلام الإسرائيلية على أنهم أبطال حققوا النصر النهائى لإسرائيل . فالمقاتل الذى يصوره الكتاب يشعر بغربة قاتلة سواء فى الجبهة وسط رمال سيناء ، أو فى المجتمع الإسرائيلى وسط بشر لايختلفون كثيراً عن رمال سيناء فى عدم تماسكها الذى يمكن أن يتحول إلى رمال متحركة يمكن أن تبتلعه هو وأمثاله . يقول المقاتل فى خطابه إلى عضو الكنيست :

"أنا ذاهب لأتأمل البحر . وآمل أنه مازال هناك على الأقل ، كبيراً وأزرق . وحيداً ومغلوباً على أمرى جئت من الصحراء ، وأنا أشعر بالغربة والجفاء لكل ماكان قريباً إلى نفسى ذات مرة . ولذلك فأنا ذاهب لأتأمل البحر ، ربما تلوح لى سفينة في الأفق البعيد ، ولكن إذا طفت أمامى ، مرة أخرى ، زجاجة ما ، بها إعلان حكومى ، فلن أفتحها كما فعلت من قبل لأن من يصدقهم هو السخيف الغبى الذى تنطلى عليه الشعارات الزائفة . أنا ذاهب لأتأمل البحر ، فالزبد الأبيض الذى يطفح على أطراف الموج أكثر صدقاً وقدرة على الاستمرار من كل تصريحات القادة ، والهتافات الحماسية للعلم ، وأهازيج الوطن ، ومقالات الصحف ، وأحاديث الراديو ، ونشرات التليفزيون .

"أنا ذاهب لأتأمل البحر حتى أهرب من كل الأصوات التى تقول كل الأشياء ماعدا الحقيقة . كلها مطر يسقط علي الماء . ولاحاجة لى فى البكاء ، فالبحر كله دموعى .

"أنا ذاهب لأتأمل البحر. سأجلس على الرمال مرتدياً معطفاً كبيراً. ولاتترحموا علىّ، فيكفى ترحمى على نفسى. أما أنتم فتستطيعون المجئ والجلوس إلي جانبى. هناك متسع للجميع على شاطئ البحر. لكن كل ما أريده منكم هو ألا تذكرونى بمن مات ومن عاش ومن جرح ومن غلب ومن صدق ومن كذب ومن أذنب. لم يعد يهمنى كل هذا، لكن مايهمنى الآن أن تصدقونى هذه المرة، لأننى لم أنطق بالصدق دائماً. هذه المرة أنا أقول الحقيقة: أنا ذاهب لأتأمل البحر، ولست فى حاجة إلي أى شئ آخر سوى البحر.

"أنا حى، ولكن مامات فى داخلى، لن تعيدوه إلىّ أبداً.

"أنا ذاهب لأتأمل البحر".

هذا المقاتل الإسرائيلى فى حرب الاستنزاف، لم يعد يصدق كل الشعارات الرنانة والبراقة التى تبثها أجهزة الإعلام الإسرائيلية، والتى تحولت إلى حقائق راسخة فى ذهن المجتمع المدنى الإسرائيلى البعيد عن كوابيس الجبهة المصرية التى تؤكد الجانب الآخر المعتم من هذه الحقائق التى هى فى جوهرها أكاذيب أدمنها القادة الإسرائيليون ونشروها وباعوها للعالم أجمع. ولذلك يرمز المقاتل الإسرائيلى فى حديثه هذا إلى الحقيقة بالبحر الذى لم يعد يجلس على شاطئه أحد فى إسرائيل. وهو لايزال يأمل أن تكون الحقيقة كبيرة وزرقاء وصافية كالبحر بعد أن عاد من الصحراء حيث الجفاف والخوف والموت. ذلك أن مأساته تتمثل فى أنه ترك الصحراء بجسده فقط لأنها تربعت داخله وعادت معه فى زيارته للمجتمع المدنى حيث وجد الجفاء لكل ماكان قريباً إليه بدلاً من الدفء العاطفى الذى كان يحن إليه فى خندقه.

لقد أصابت حرب الاستنزاف المجتمع الإسرائيلى بشيزوفرانيا حادة عندما انقسم على ذاته إلى جانب مدنى يعيش على أحلام النصر البراقة ويجتر بطولاته الوهمية فى حرب يونيو ١٩٦٧ التى أصبح قادتها يعاملون معاملة نجوم السينما حيثما حلوا، وجانب عسكرى معتم زاخر بالخوف والموت والدمار فى كل لحظة يعيشها المقاتلون، جانب لايهتم بحقائقه أحد من النجوم والقادة السياسيون بل والعسكريون أيضاً بحكم ابتعادهم عن مواطن الخطر. فليست هناك صلة حقيقية بين مايدور داخل إسرائيل ومايجرى على الجبهة المصرية. وهى مأساة لم يشعر بها سوى المقاتلين الذين لم يسمع صوتهم أحد من الشخصيات المؤثرة فى مجريات الأمور، أو لعلها سمعته لكنها تجاهلته حتى لايفسد الأنغام العذبة التى تشنف بها آذانها. ولذلك قرر هذا المقاتل اليائس المحبط أن يذهب إلى البحر ليختلى بنفسه ويعيد حساباته لعله يرى الأمور على حقيقتها كما تلوح السفينة التى يتمنى أن يراها فى الأفق البعيد.

أما شعارات الدولة وإعلانات الحكومة فليست فى نظره سوى الزجاجات التى حملتها الأمواج فى الأساطير والقصص الخرافية إلى الشاطئ وفى داخلها كلمات سحرية أو اشارات إلى أماكن خفية لكنوز سرية تمنح لمن يعثر عليها ويمتلكها قوة وغلبة وسيطرة وسطوة لاحدود لها. لم يعد هذا المقاتل قادراً على تصديق هذا السخف بعد أن تبدت أمامه الحقائق عارية فى حرب الاستنزاف، لدرجة أن الزبد الأبيض الذى لايعيش سوى لحظات خاطفة على قمم الأمواج وأطرافها، أصبح أكثر استمراراً ومصداقية من تصريحات القادة، وأهازيج الوطن، ومقالات الصحف، وأحاديث الراديو، ونشرات التليفزيون التى هى فى حقيقتها مطر يسقط على الماء، أو كما يقول المثل الشعبى المصرى الشائع "سمك فى ماء".

بلغت المرارة بالمقاتل الإسرائيلى درجة جعلته يرفض أية محاولات للعطف أو الشفقة أو الترحم عليه، فقد قام بهذه المهمة تجاه نفسه خير قيام. كان يترحم على نفسه كل لحظة من اللحظات التى عاشها فى رعب الجبهة المصرية.

وهو يتمنى أن يأتى الإسرائيليون ليجلسوا إلى جانبه على شاطئ البحر أو بالأحرى شاطئ الحقيقة التى تستطيع أن تسع الجميع. لكنه لن يقبل أية ثرثرة حول ماجرى ومايجرى فى الجبهة، فهو كابوس يريد أن يتخلص منه وأن يلقى به وراء ظهره. كل مايتمناه أن يصدقوا الحقائق التى سوف يقصها عليهم. صحيح أنه لم يكن صادقاً دائماً، لكنه لم يعد فى وسعه هذه المرة أن يقول سوى الحقيقة ولاشئ غير الحقيقة التى يحاول المنتفعون بحرب يونيو ١٩٦٧ طمسها. تلك الحرب التى قتلت فيه أشياء كثيرة برغم أنه يبدو للجميع حياً، أشياء لن يستطيع أحد أن يعيدها إليه.

يصف هذا المقاتل الإسرائيلى عودة المظليين إلى المدينة فى إجازة من الجبهة، فلا نشعر بأية سعادة داخلهم لأن الجروح النفسية ـ قبل الجسدية ـ التى أصابتهم فى الصميم ولايشعر بها أحد غيرهم، من الصعب أن تندمل. فقد أحالت حرب الاستنزاف نصر يونيو ١٩٦٧ إلى كابوس حى مقيم لايفيق منه أحد، كابوس لم يعد قابعاً على رمال سيناء فحسب بل كامناً فى قلوب المقاتلين وعقولهم أيضاً. يصف المقاتل الطائرة القادمة من الجبهة وهى تهبط فى تل أبيب:

"طائرة النقل الضخمة تهبط رويداً رويداً تحت سماء تل أبيب، ومظليون طالت لحاهم ينظرون بعيون حمر إلى فيض الأضواء تحتهم. وبحركات مرهقة منهكة، يمرون بأيديهم، التى جرحها حفر الخنادق فى الليالى، على خصال شعرهم التى يعلوها الغبار.

"إننا جميلون، أليس كذلك ؟" قال أحدهم.

"من انتصر ؟" سأله صديقه بمنتهى الجدية.

رائحة الجثث المحترقة لاتزال تزكم أنفى. كلب

جائع ينهش أحدها. ومع سعادتى لبقائى على قيد الحياة، يتسلل إلى قلبى الشعور بأنى شاركت فى فيلم إباحى. وفى هذا المساء، علىّ أيضاً أن أذهب إلى والدى يورام، وإلى زوجة تسفيكا، وإلى أبناء يوآب. وأما دانى وآريه، فليست لهما عائلات فى البلاد".

هنا ندرك سر الحزن الدفين فى قلب المقاتل برغم عودته فى إجازة إلى تل أبيب. فهو لم يعد لممارسة المتعة والبهجة التى يفتقدها فى الجبهة، بل عاد ليقوم بواجب العزاء تجاه أهالى القتلى فى الجبهة: يورام وتسفيكا ويوآب، فعليه أن يعزى والدى الأول، وزوجة الثانى، وأبناء الثالث. لكن المأساة تبلغ قمتها فى حالة دانى وآريه، فليس لهما أقارب يمكن تعزيتهم. فقد ماتوا وكأنهم لم يكونوا على الإطلاق. أى أن حرب الاستنزاف قد أحالت إسرائيل إلى مأتم كبير برغم فيض الأضواء الذى يغرقها والذى يسعى لطمس الحقائق المأسوية بقدر الإمكان. وقد حرص عبد الناصر على استمرار هذا المأتم الكبير فى إسرائيل طوال الحرب التى لم تتوقف على مدى ثلاث سنوات حتى يثبت لها عملياً أن نصر يونيو ١٩٦٧ الذى اختطفته فى غفلة من الزمن، هو استثناء لن يتكرر أبداً من قاعدة جسدتها ورسختها حرب الاستنزاف.

ثم تصل السخرية أقصى درجات مرارتها عندما يوضح المقاتل المفارقة الصارخة بين الجبهة المدنية والجبهة العسكرية. فالمدنيون الذين تم غسل مخهم لايرون فى الحرب سوى بطولات رومانسية مبهرة زاخرة بالمتعة والإثارة سواء فى الحكى أو الإنصات، وبالتالى لايرون صور الخوف والرعب والدمار والعنف والقتل التى لاتفارق مخيلة المقاتل ووجدانه. فهم يطلبون منه سرد المغامرات البطولية والشيقة التى مر بها، كما كان شهريار يطلب من شهرزاد أن تقص عليه حكايات ألف ليلة وليلة. يقول المقاتل:

"قص علينا بدقة كيف جرى ذلك". سيطلب

الوالدان، النساء، الصديقات، الأولاد، القمر، الشمس، نجومى وآلهتى التى فى العلبة الصغيرة على الباب. "قص علينا كيف جرى ذلك بالضبط".

لكن الجانب المعتم سرعان ما يظهر فى مفارقة مأسوية عندما يذهب المقاتل إلى فراشه بعد حكيه لما خبره فى الجبهة، فتهاجمه الكوابيس الصادرة عن خبراته القتالية:

"وفى ساعة متأخرة من الليل، أصرخ فى نومى "يامضمد! يامضمد!" ومرة أخرى، وللمرة الثانية فى حياتى، أنضم إلى حزب الذين مسهم الجنون مؤقتاً، الذين صعقهم القتال. الموتى وهم أحياء. وعندها تبرز أنواع مختلفة من الناس لاأعرفهم، أقارب، أصدقاء من الذين بقوا فى المؤخرة، ويتعجبون أن ابتسامتى مشحونة بالدموع، وأننى لاأقشعر لذكر اسم كل قتيل".

فالمدنيون لايدركون أن المقاتلين يفقدون القدرة على الإحساس بالقشعريرة فى مواجهة الموت الذى يصبح فى الجبهة بمثابة الغذاء اليومى. كما يندهش هؤلاء المدنيون عندما يرون الدموع تترقرق فى ابتسامة المقاتل المغوار الذى لايعرف سوى ابتسامة النصر !! أى أنهم يطلبون منه أن يقشعر عند ذكر القتلى، وأن يبتسم فى الوقت نفسه بلا دموع، مما يدل على أن طوفان الزيف والخداع والكذب وفقدان الرؤية الحقيقية الموضوعية قد اجتاح الجميع. ولذلك يعود المقاتل إلى نغمته التى تخفف من ضغوط الكابوس على كاهله، فى محاولة لفضح كل هذا الزيف والخداع والكذب:

"أنا ذاهب لأتأمل البحر.

إلى أين أنت ذاهب ؟

لأتأمل البحر. لماذا ؟

لماذا ؟ لماذا عدت من هناك. عليك أن تذهب إلى الحكومة، إلى القادة، إلى الكنيست، وتشير إليهم باصبعك قائلاً: كذبتم علىّ".

لكن حتى هذه المواجهة لم تعد ذات قيمة حقيقية أو عملية لأن المأساة أبشع من ذلك بمراحل. فهى فى حاجة إلى حلول جذرية وعملية وجريئة توقف المآسى الجارية على الجبهة فى كل لحظة. يقول المقاتل:

"ولكن ما حل بى، هو شئ فظيع، تحيط بى أشياء لاتعنينى. رفاقى فى السلاح، كلهم تقريباً، قتلوا أو جرحوا، أو هم مثلى، أحياء ولكنهم أموات. أو العكس. وأمى ماتت كذلك. وأتساءل: من بقى لى على قيد الحياة فعلاً ؟ عدد من فرق موسيقى الجيش تغنى: "العالم كله ضدنا"، وكذلك أنا".

لقد أحالت حرب الاستنزاف جنود إسرائيل إلى قتلى أو جرحى، ومن بقى منهم أحياء هم فى حقيقة أمرهم أموات، لأن الحياة أشمل بكثير من مجرد التواجد المادى أو الكمى أو الدبيب على وجه الأرض. وبذلك تحول الوجود الاسرائيلى إلى كابوس يتم تبريره بغناء فرق موسيقى الجيش التى تؤكد للاسرائيليين أن قدرهم يكمن فى العالم الذى يقف كله ضدهم، لدرجة أن المقاتل لم يجد مناصاً من الانضمام إلى العالم كله ضد اسرائيل حتى تستيقظ من الكابوس الذى تظنه حلماً جميلاً. ولذلك يشعر المقاتل بتوحد كامل مع بطل رواية "هيرتزوج" للروائى الأمريكى اليهودى صول بيلو الذى كانت حياته سلسلة من الأوهام الفارغة. فالبطل هيرتزوج شاب يهودى يتمسح بالشخصيات العظيمة المعاصرة فعلاً، ويقوم بكتابة الخطابات والرسائل إليها. وليست كلها خطابات حقيقية بل إن بعضها من وحى خياله، فهو يظن فى نفسه

مخايل الأهمية والخطورة، فيعلن على الملأ أنه سيقف بكل صلابة فى مواجهة كل ذى سلطة يحاول أن يدوس على كبريائه. أى أن المقاتل هنا يسخر من نفسه لأن محاولته لكشف الحقيقة سيكون مآلها الفشل. يقول:

"وصباح غد، أجد نفسى فى كابوس آخر مأخوذ من "هيرتزوج" صول بيلو، أحد الكتب التى أحببتها بصفة خاصة، عندما كنت لا أزال حياً. وأنا أكتب بطاقات برتقالية من التى يوزعونها على الجنود. بطاقة واحدة وجهتها لعضو الكنيست بن ألف، الذى انتخب نفسه ليكون عضو لجنة الأمن فى دولتنا الأمنية. وأنا أكتب إليه بقلب مفتوح".

وقبل أن تقرأ ماكتبه هذا المظلى فى رسالته إلى عضو الكنيست، يجب ألا نمر مر الكرام على تعبيره الذى ذكره: "عندما كنت لا أزال حياً" برغم أنه لم يمت بالفعل. فقد كان هذا هو الشعور السائد بين الجنود الإسرائيليين على جبهة سيناء. فقد جعلت منهم حرب الاستنزاف موتى بلا قبور، يهيمون على وجوههم فى غربة قاتلة سواء أكانوا فى الجبهة مهددين بالموت فى كل لحظة أو كانوا فى زيارة لأسرهم حيث المجتمع الذى يتجرع كؤوس النصر المزيف حتى الثمالة غير عابئ بهؤلاء الموتى الذين لايشعر بوجودهم أحد. فقد اختلط الحابل بالنابل، وتلاشت الحدود بين الحياة والموت، وأصبح الموتى المدفونون تحت سطح الأرض أسعد حظاً من الموتى الهائمين على سطحها. فقد ماتوا ودفنوا وكرموا وأصبحوا فى وضع معترف به من الجميع، أما الموتى الأحياء أو الأحياء الموتى فلا أحد يعترف بحياتهم أو موتهم، وكأنهم سقطوا فى الهوة التى صنعتها حرب الاستنزاف بين الحياة والموت. فالمصرى الذى يموت فى الجبهة، يموت من أجل كرامة وطنه وتحرير أرضه، لكن الإسرائيلى لايعرف لأى سبب يموت. وحتى لو نجا من الموت الفعلى المادى فإنه لاينجو من الموت المعنوى الأدبى، وهذه هى قمة المأساة التى فرضها عبد الناصر على

اسرائيل وإن حاول قادتها تجاهلها بشتى الطرق . وهى المأساة التى جعلت كلمات هذا المظلى تقطر مرارة فى رسالته إلى عضو الكنيست التى قال فيها:

"سيدى .

قد تستغرب لماذا أكتب إليك هذه الرسالة. فأنا بالتأكيد لا أزيد على مجرد جندى يؤدى الخدمة على الجانب الآخر من القناة. وأنت عضو كنيست لايخدم أحداً أبداً. لا لا، ياحلو، فإننى لا أتهمك أبداً. أما الكدر الذى ألم بك أخيراً فلا معنى له على الإطلاق. وصدقنى، إن هذا ليس تقصيرك أبداً. فلقد عرفنا دائماً أنك صفر لاحول له ولا قوة، وإنسان لاخير فيه. ولذلك لاتكن كسير القلب ومحطم الفؤاد إلى هذا الحد، فإن عزاءك يكمن فى أنك لم تكن قادراً فى يوم من الأيام على التصدى للمشاكل الوضيعة للغاية، وإلا كان فى استطاعتك إيقاف هذه الحرب ؟ أما نحن فى الجبهة فكلنا على خير ما يرام !!! ماعدا البق. نحن لانسقط إلا بين كراسيكم... نسقط بين كراسيكم... نسقط بين كراسيكم".

ثم يعبر هذا المظلى عن مدى وطأة حرب الاستنزاف على كل إسرائيلى مهموم بمستقبله المهدد بالتوقف فى أية لحظة. فسواء أكان ابن ثمانى عشرة ، أو ست وعشرين ، أو إحدى وثلاثين ، أو اثنين وخمسين ، فهو دائماً فى عمر ملائم للموت أو للموت والحياة معاً . ولايستطيع أن يقول لا . وكيف يستطيع أن يقولها وهو الجندى البسيط فى حين أن عضو الكنيست نفسه عاجز عن قولها لأنه مجرد صفر لاحول له ولا قوة ؟! ثم يقولون إن إسرائيل هى واحة الديمقراطية فى المنطقة وهى الخاضعة تماماً للمؤسسة العسكرية التى تمسك فى

النهاية بكل الخيوط بأصابعها الأخطبوطية، ولذلك أسماها هذا المقاتل "دولتنا الأمنية". فالرأى الفعلى هو رأى العسكريين أما الرأى الآخر الذى يبديه السياسيون فهو مجرد واجهة ديمقراطية خادعة حتى يقارن الناس بين الإسرائيليين الديمقراطيين والعرب الفاشيين !!!

يواصل المظلى الإسرائيلى رسمه للصورة الكابوسية التى أحدثتها حرب الاستنزاف، مبرزاً مدى الشيزوفرانيا التى أحدثتها فى المجتمع الاسرائيلى المستمتع بأوهام النصر والمتجاهل لنزييف الدم الاسرائيلى على رمال سيناء:

"وبعد شهرين من الكوابيس والصراخ "يامضمدا!" فى ظلمة الليل الدامس، بدأت تصدر كتب النصر المصورة. وفى الصحف كتبوا أننا أبدعنا صنعاً، كأنما كنا نمثل فى مسرحية رديئة. لم أفهم أبداً عن أى نصر يتكلمون. فإذا كانوا يقصدون السلام، فالسلام لم يكن قط بعيداً إلى هذا الحد. ولكن الذى يخدم كعضو فى الكنيست، قال لابأس، إننى أستطيع أن أنام بهدوء الليلة. فوضعنا الأمنى لم يكن بهذه القدرة من قبل. ووسط هذا الجنون كان من الطبيعى أن أقابل مجنوناً، رتب لى حديثاً مع الأموات من فصيلتنا، فى قاعدة خلفية ما فى جنة عدن. وملاك الرب يرفرف ويغطى وجوههم كل ليلة".

هنا يصيب المظلى الاسرائيلى القادة الاسرائيليين فى الصميم. فقد اعتادوا الاستشهاد بآيات ومواقف وصور من التوراة حتى يوهموا الجنود أن حربهم هى حرب دينية، تراثية، مقدسة، وليست حرباً من أجل الاحتلال والاستيطان والاستعمار واقامة رأس جسر لكل القوى العالمية الطامعة فى المنطقة. ولذلك يوظف المظلى صورة ملاك الرب الذى يرفرف ويغطى

وجوه الموتى أو القتلى كل ليلة بعد أن انتقلوا إلى قاعدة خلفية فى جنة عدن. وكان ملاك الرب فى التوراة يهرع دائماً لنجدة بنى إسرائيل كلما وقعوا فى محنة. وهى محن لم تقتصر على العهد القديم بل استمرت حتى الآن. وحرب الاستنزاف أقوى دليل على ذلك. لكن يبدو أن بنى إسرائيل هذه المرة تسللوا إلى الجنة من باب خلفى. وكان المفروض أن يعتبر من دخلوا الجنة من الأحياء، لكنهم موتى أيضاً، وبغير عزاء سوى قيام ملاك الرب بالرفرفة وتغطية وجوههم.

وهكذا يعرى هذا المقاتل الإسرائيلى كل مظاهر الزيف والخداع والكذب والوهم التى راجت فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ بين معظم فئات المجتمع الاسرائيلى، فيقول:

"بدأوا عمليات غسيل مخنا بابتسامات النصر المجوجة، ومشينا بفخر فى شوارع الرخاء والوفرة، نصفر مارش "جسر على نهر كواى". ونبحث عن إمرأة، وعن بيت، عن مهنة، عن مال... ونحاول أن نتحرر من الكابوس. ونصدق زعماءنا الممتازين الذين ينشدون علناً: "وضعنا الأمنى لم يكن بهذه القدرة من قبل".

وتحولت حرب الأيام الستة إلى ألبومات صور ساحرة، يتبادلها الناس فيما بينهم وهم يتغنون بالنشيد الأخير لشاعر القصر الأخير الذى وجد فى القرى العربية المحتلة فى الأطراف البعيدة أهازيج هزت قلبه بنشوة عارمة، وتردد صداها فى المحافل والحفلات التى لاتنتهى. يقول المظلى:

"الأمن كان العجل الذهبى

كلهم قالوا لاداعى للقلق لأن عندنا جيشاً قوياً

ومليون فانتوم.

تكلموا عن أشياء كثيرة تم تحريرها ولايمكن ارجاعها.

وعندها، آه عندها، أعطيت الإشارة من رئيس جوقة العازفين الذين يعضون على أبواق البلاستيك، وبدأت كبرى حفلات العالم".

وعندما يقارن الأمن بالعجل الذهبى الذى ورد ذكره فى التوراة من قبل على سبيل الاستشهاد المعتاد بما ورد فيها - فإنه يعنى أكثر الأشياء زيفاً وعناداً وكفراً فى حياة بنى إسرائيل. فعندما صعد موسى عليه السلام قمة الجبل ليناجى ربه وتأخر فى رجوعه إلى بنيه، ظنوا أنه مات ولن يعود إليهم، وسرعان ماعادوا إلى عاداتهم الوثنية القديمة وجمعوا كل ما أمكنهم من ذهب وصنعوا به عجلاً طفقوا يعبدونه. والآن يعبد الإسرائيليون وثناً آخر هو الأمن الذى لن يصمد بدوره لاختبار الزمن طالما أن إسرائيل تظن أنها قادرة على الاستمرار فى احتلالها للأراضى التى اغتصبتها فى أعقاب يونيو ١٩٦٧. إن هذه الأراضى التى يظنها الإسرائيليون ضماناً لأمنهم هى بعينها السبب المباشر فى التهديد المتجدد لهذا الأمن. وهذا هو ما أثبته عبد الناصر بحرب الاستنزاف التى أحدثت شرخاً عميقاً فى بنية المجتمع الإسرائيلى، نتيجة لذاته المتضخمة فى جانب والهزيلة فى جانب آخر. يقول المظلى:

"لم تكن ذات الشعب الإسرائيلى متضخمة بهذا الشكل من قبل. فالجنرالات الذين كانوا يجوبون ميادين المعارك وهم يرتدون البنطلونات القصيرة بأرجلهم المغطاة بالشعر، أصبحوا يدخنون السيجار ويقيمون حفلات السلام حتى مطلع الفجر. والجنود الذين هم فى حقيقة أمرهم خدم ليس إلا، يرتبون لهم الموائد، فى حين يقبع المتبرعون خارجاً يقضمون العظام. وقد رأيت بعينى جنرالاً كهذا

يلعب دور المخرج لفرقة غنائية عسكرية. وفى إحدى المناورات العسكرية لفرقة من الجيش، شاركت فيها مع زملائى من الضباط المظليين، رأيت جنرالين يجلسان مع حسناء لعوب فى سيارة، فى حين يغطى وجهيهما دخان السيجار الذى يحجب كلية عن نظريهما جميع قواتنا، وقد استبد بهما جنون النشوة. وفى المساء تبدأ حفلات العربدة التى يشارك فيها الرفاق العابثون بأرواح الجنود، ويقولون بين رشفة وأخرى إنه اذا اندلعت الحرب مرة أخرى فهذان الجنرالان:

أ : سيكسران عظامهم.

ب :سيقضيان عليهم.

ج : فهم لا شئ.

د : دون أية مشاكل".

وتكسير العظام هو عنصر من عناصر الشريعة اليهودية، لابد أن يطبق على المحكوم عليهم بالصلب اذا لم تفارق أرواحهم أجسادهم قبل الغروب حتى يمكن أن يتم دفنهم. أى أن المصريين فى نظر جنرالات إسرائيل سيمرون على أيديهم بنفس التجربة المريرة التى تنتهى بالموت الحافل بالخزى والعار. هكذا بلغ الغرور بل جنون العظمة بهؤلاء الجنرالات الذين أصبحوا يتصورون أنفسهم كل شئ وغيرهم لاشئ، متجاهلين أو متغافلين أن جنودهم هم الذين تتكسر عظامهم سواء أكانوا أحياء أم أموات، تحت ضربات المدفعية المصرية الثقيلة والصواريخ والكمائن والهجمات الفدائية التى لاتتوقف. فقد كان هدف عبد الناصر من حرب الاستنزاف حصد أكبر عدد ممكن من أرواح الجنود الإسرائيليين لكسر شوكة العنجهية الاسرائيلية الفارغة التى انتفخت

أوداجها فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ التى سرت فى جسم المجتمع الاسرائيلى بسلبيات لم تخطر ببالهم. يقول المظلى فى شهادته:

> **"فى ظل أطياف العظام المكسّرة، عربد مجتمع الوفرة والرخاء الغربى بلا حياء. لم تمر دولة اسرائيل بمثل هذه الانتقالة من قبل. كانت الانتقالة بمثابة فجوة عميقة وواسعة سقط فيها الجميع، أغنياء وفقراء. ففى حين كان الجنرالات يتابعون مناورات بالذخيرة الحية فى سيارات فاخرة ليست لها علاقة بالحياة العسكرية الصارمة، أغرم الجمهور، مرة بعد مرة، بتبديل أجهزة الاستريو الثمينة حتى يمتلك أحدث أنواعها. وفى حين كان الجنرالات يدخنون سيجار هافانا، أقبل الشباب على تدخين حشيش بيروت، وماريوانا أمريكا.**
>
> **"نعم. كلهم يعلمون أن هناك مخربين فى المنطقة. ولكنهم جميعاً يعتمدون على "مكسرى العظام" الذين يعرفون أيضاً باسم "أذرعة الأمن".**

والمقصود بالمخربين هنا هم الفدائيون المصريون الذين لايمكن أن تطولهم "أذرعة الأمن الإسرائيلية" لأنهم يعبرون القناة تحت جنح الليل فى مواقع لاتخطر ببال جنود اسرائيل المرابطين على الضفة الشرقية، وفى أغلب الأحيان يعبرونها غطساً، وبمجرد وصولهم يشرعون فى عمل الكمائن وزرع الألغام ثم يهجمون كالأشباح على المواقع أو الدوريات الإسرائيلية التى لاتعى من أين تنهال عليها الضربات نتيجة لعنصر المبادرة والمفاجأة المذهلة ؟!

فهل يمكن تكسير عظام الأشباح ؟! وكيف تطولهم أذرعة الأمن الإسرائيلية بطول الضفة الشرقية للقناة المليئة بثغرات الانقضاض والضرب ثم

التراجع فى لمح البصر ؟! إن هذه الأذرع لاتستطيع فرض الأمن فى داخل اسرائيل ذاتها، والدليل على ذلك صورة رجل الدفاع المدنى المجعد التقاسيم، الواقف عند مدخل دور السينما، ينبش فى حقائب أيدى السيدات العجائز خوفاً من أن تحتوى إحداها على قنبلة !! وهى صورة وردت فى شهادة المظلى الإسرائيلى كى يوضح المدى الذى بلغه رعب الاستنزاف فى أعماق اسرائيل.

وكانت القيادة الإسرائيلية سواء السياسية أو العسكرية حريصة على طمس كل آثار حرب الاستنزاف حتى لاينطمس زهو يونيو ١٩٦٧. ولذلك تراجعت الروح القتالية، وتحالف القادة العسكريون مع رجال الأعمال، وترك السلاح مكان الصدارة للشيكل، ولم يترحم أحد على الذين قتلوا برغم عقدة اسرائيل المزمنة تجاه قلة تعدادها. وظهر الاسرائيليون على حقيقتهم التى أكدت عبر التاريخ أنهم ليسوا شعباً محارباً لأن التجارة تجرى فى عروقهم مجرى الدماء. فهم لايحاربون إلا انتهازاً للفرص أو تحت ضغوط لامفر منها لأن الحرب عندهم عنصر من عناصر التجارة، ولاتمت بصلة إلى الشعارات المثالية التى أصموا بها آذان العالم. يقول المظلى الاسرائيلى فى شهادته:

"ازدهرت الأعمال التجارية، ونمت الصناعة وأعمال البناء بصورة عجيبة. مقاولون أغنياء يشترون أرضاً للبناء فى أمكنة سقط فيها شباب الأمس. يشترون الدشمة التى سقط فيها أعز أصدقائى، بعشرين ألفا. أما الجنود الذين عادوا إلى بيوتهم فهم الوحيدون الذين لم يكن لهم بيت، لأن أسعار الشقق ارتفعت إلى الحد الذى لم يستطع أحد عنده اقتناءها سوى سماسرة الحرب. هكذا نشأ وضع جديد أصبحت فيه التلال التى سميت على خريطة الرموز العسكرية لحرب الأيام الستة باسماء "رينا" و "دينا"، وكان ثمن احتلالها هو دماء أولئك

الذين اعتقدوا أن تضحيتهم كانت من أجل تراث تاريخى وعقيدى، هذه التلال امتلكها أثرياء الحرب الذين قبضوا بعد ذلك أموالاً طائلة لكى يبنوا خط بارليف وخطوط أخرى، لكى يكسبوا أموالاً أخرى، وليبنوا بيوتاً إضافية فاخرة للأغنياء الذين يعيشون فى قلب البلد وعينه. "ما كنت أعلم أننا حاربنا ومات منا الرفاق من أجل المقاولين": قالها مقاتل أضناه التعب، والذى أصبح زوجاً بلا بيت فى فترة الازدهار الكبرى لدولة اسرائيل".

هذه هى حقيقة الشعارات المثالية والبراقة التى يحرص قادة إسرائيل دائماً على رفعها ! شعارات العقيدة المقدسة، والتراث العريق، وأرض المعاد، وحقوق الإنسان اليهودى، والقيم الروحية، والآفاق الديمقراطية.... الخ. فهذه كلها ليست سوى واجهة براقة لتغطية النهم الاقتصادى والشبق التجارى والطغيان المادى الذى ميز الشخصية اليهودية منذ أقدم العصور. وبذلك يمكن القول بأن إسرائيل فى حقيقتها هى رأس جسر للمصالح الاقتصادية الامبريالية فى المنطقة، وأقوى محرك لعجلة رأس المال الأمريكى بصفة خاصة والغربى بصفة عامة. ونظراً لمقاومة المصريين والعرب للضغوط الاقتصادية التى تسعى لالتهام المنطقة، فلابد من إشاعة جو التوتر والقلق من حين لآخر، وهو جو قابل للاشتعال الذى كانت إسرائيل رأس حربته كما حدث فى ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ على التوالى. فإذا استمرت معاناة المصريين والعرب من لسعة الحرب المتجددة فإنه من المحتمل أن يلجأوا أو يرضخوا للسلام الذى هو فى حقيقته استسلام سيلقى بهم فى دوامة الاحتكارات الاقتصادية الغربية فيصبحون بلا حول ولا قوة، فالذى لايمكن كسبه بالسلام يمكن كسبه بالحرب والعكس صحيح. من هنا كان اصرار عبد الناصر على حرب الاستنزاف لأنها أول حرب يفرضها

المصريون على إسرائيل والغرب. فليست الحرب ملكاً لاسرائيل وحدها ولا السلام أيضاً، بل على مصر أن تقول كلمتها وعلى العالم أن يسمعها، فإذا عجزت موجات الأثير عن الاقناع، فإن المهمة التاريخية لابد أن تلقى على القنابل والصواريخ والألغام والكمائن. ولذلك أخذ عبد الناصر نفسه وجيشه وشعبه بلا هوادة من أجل إثبات وجوده أمام العالم أجمع والتأكيد على أن ما وقع فى يونيو ١٩٦٧ لم يكن سوى غفلة عابرة أعقبتها صحوة على كل المستويات نحو آفاق التحرير وإزالة آثار العدوان. فقد أصبحت الدولة معبأة تماماً لمواجهة كل مراحل المعركة المصيرية. أما على الجانب الآخر من الجبهة فيقول المظلى الاسرائيلى فى شهادته:

"ازدهرت الفنون، وانتشرت الكتب الفاحشة وسجل توزيعها أرقاماً قياسية، وازداد عدد معارض الفنون بأكثر من الثلث، وتضاعف عدد المسارح الرخيصة، وبرز الكثير من أندية الليل بكل ما تحويه من مبارزين روس، ومومسات باريسيات، وخادمات إيرانيات. وتم افتتاح الكثير من المطاعم الفاخرة، يلتهم فيها كبار موظفى الحكومة وجنرالات الجيش أطايب البحر المتوسط. أما الدولة التى هى أنا وأنت، فقد دفعت الحساب كله بالنيابة عنهم، لأنهم هم الذين يصنعون القرار، هم الذين يكسرون العظام، هم البقرة المقدسة التى تأكل عجلاً مشوياً بالتنور. أما نحن فنأكل النفايات فقط، ونتصفح كتب النصر المصورة الثمينة، ونتمعن مرات ومرات فى الوجه الأسطورى لذلك الجنرال المبتسم، بغرور المنتصرين، كاسيوس كلاى الشرق الأوسط. نحن ندفع الحساب فقط".

أى أن المعركة فى نظر الجنرالات ليست مقدسة أو عقيدية أو تراثية، بل هى حلبة ملاكمة يتمنون أن يحرزوا فيها بطولات كاسيوس كلاى. والدليل على ذلك أن حرب يونيو ١٩٦٧ قد عادت على المجتمع الاسرائيلى بالتفسخ الاجتماعى والأخلاقى الذى لم يعر التفاتاً للذين ضحوا من أجل هذا الازدهار الاقتصادى، وعادوا من الجبهة ليروا الثمار وقد اقتطفها سماسرة الحرب وأثرياء المقاولات. إنه صراع مادى واقتصادى أولاً وأخيراً. أما المعركة كقيمة قومية مصيرية فنلمسها فى رؤية عبد الناصر الحضارية التى بلورها فى "بيان ٣٠ مارس" الذى ألقاه فى ٣٠ مارس ١٩٦٨ وقال فيه:

"إن الموقف البطولى المؤمن لجماهير شعبنا يومى ٩ و ١٠ يونيو هو وحده الذى صنع عدداً من التحولات الهامة مكنت لعملنا من أن يبتعد عن الحافة الخطيرة التى كان عليها، فى أعقاب النكسة، ليقف على الأرض الأصلب وليستشرف الأفق الأوسع الذى يستطيع أن يتحرك عليه نحو أهداف نضاله الشريفة. وأبرز هذه التحولات كما يلى:

"أولاً: إننا استطعنا إعادة بناء القوات المسلحة، وكانت تلك بداية ضرورية وبغير بديل، إذا كنا نريد، جداً وحقاً أن نصحح آثار النكسة، وأن نزيل العدوان، وأن نسترد ما ضاع منا فيه، بغير إعادة بناء القوات المسلحة، لم يكن أمامنا، غير تقبل الهزيمة، مهما كانت آمالنا، ومهما كان إيماننا، ذلك أن منطق هذا العصر، ولعله منطق كل العصور، أن الحق بغير القوة ضائع، وأن أمل السلام بغير امكانية الدفاع عنه، استسلام، وأن المبادئ بغير مقدرة على حمايتها، أحلام مثالية، مكانها السماء،

وليس لها على الأرض مكان.

"ثانياً: إننا إستطعنا تحقيق مطلب الصمود الاقتصادى، فى وقت كانت الأشياء كلها تسير فى اتجاه معاكس لفرصة تحقيقه. ولقد ساعد على ذلك رضا الشعب بالمزيد من التضحيات، وساعد عليه، موقف عربى أصيل فى مؤتمر الخرطوم، وساعد عليه أصدقاء لنا، على اتساع العالم كله، وقفنا معهم فوقفوا معنا. ولقد كان محتماً أن يسير مطلب الصمود الاقتصادى، جنباً لجنب مع عملية إعادة بناء القوات المسلحة. فلم يكن فى استطاعتنا بغير اقتصاد سليم، أن نوفر لاحتمال الحرب، ولو كان مجدياً أن نقف رابضين على خطوط النار، بينما مقدرتنا على الانتاج معطلة وراء الخطوط، وشبح الجوع يهددنا بأسرع من تهديد العدو لنا.

"ثالثاً: إننا استطعنا تصفية مراكز القوى التى ظهرت. وكان من طبيعة الأمور وطبيعة النفوس أن تظهر فى مراحل مختلفة من نضالنا. إن العمل السياسى لايقوم به الملائكة، وإنما يقوم به البشر، والقيادة السياسية ليست سيفاً بتاراً قاطعاً وإنما هى عملية موازنة، وعملية اختيار بعد الموازنة، والموازنة دائماً بين احتمالات مختلفة، والاختيار فى كثير من الظروف بين مخاطر محسوسة. ولقد تجاوزت الأمور حداً لايمكن قبوله بعد النكسة، لأن مراكز القوى وقفت فى طريق عملية التصحيح، خوفاً من ضياع نفوذها، ومن انكشاف ما كان خافياً

من تصرفاتها، وكان ذلك لو ترك وشأنه كفيلاً بتهديم جبهة الصمود الشعبى. ولذلك فقد كان واجباً بصرف النظر عن أى اعتبار تصفية مراكز القوى، ولم تكن تلك بالمسألة السهلة ازاء المواقع التى كانت تحتلها مراكز القوى وفى إطار الظروف الدقيقة التى كان يعيشها الوطن.

"رابعاً: إننا استطعنا وهذه مسألة أخلاقية ومعنوية، أعلق عليها قيمة كبيرة، أن نضع أمام الجماهير بواسطة المحاكمات العلنية، صورة كاملة لانحرافات وأخطاء مرحلة سابقة، وكان رأيى أن هذه مسئولية يجب أن يتحملها نظامنا الثورى، بأمانة وشجاعة. وكان رأيى أيضاً أن الضمير الوطنى الذى أحس بأن انحرافات وأخطاء قد وقعت، من حقه ومن مصلحته أن يعرف الحقيقة، وأن يخلص وجدانه من أثقالها، وأن ينفض عن نفسه كل رواسب الماضى، لكى يدخل إلى المستقبل، بصفحة نقية طاهرة.

"ومع كل العذاب الذى تحملته شخصياً وتحمله المواطنون معى، خلال هذه العملية فلقد بقى إيمانى بضرورتها، كايمانى بطب الجراحة، يقطع لينظف، ويبتر لينقذ.

"خامساً: إننا استطعنا أن نقوم بجهد سياسى واسع على جبهات عريضة، جبهات عربية، وجبهات دولية، وتنوعت جهودنا وتعددت على هذه الجبهات، بالاتصال المباشر مع الأصدقاء، فى

الدول الاشتراكية، وفى مقدمتها الاتحاد السوفييتى، الذى أكدت لنا ظروف النكسة، صداقته المخلصة، وتعاونه الصادق، ووقوفه الصلب، فى جبهة الثورة العالمية المعادية للاستعمار، وكذلك مع الدول غير المنحازة، ومع الدول الآسيوية والأفريقية، ومع الدول الإسلامية، ومع كل الشعوب الراغبة فى سلام قائم على العدل، ومع كل الساسة الذين يستطيع بعد نظرهم أن يتجاوز نكسة عارضة فى تاريخ أمة، كان لها دورها العظيم فى التاريخ، وسوف يكون لها الدور العظيم فى مصير الإنسانية. إن هذه التحولات كلها قادها ودعمها إحساس عميق بالواجب، لدى كثيرين من رجالنا، فى كل مجالات المسئولية، فى القوات المسلحة، ومن خبراء الاقتصاد، والعاملين فى وحدات الإنتاج، ومن الملتزمين بأهداف النضال الشعبى، والقادرين على خدمتها، ومن المشتغلين بالسياسة، والفكر، والدبلوماسية، كل هؤلاء، ساهموا فى قيادة ودعم هذه التحولات، التى تقارب المعجزة، والتى نستطيع بعدها أن نقول اليوم، الآن يصبح فى إمكاننا أن نتطلع إلى المستقبل".

إن عبد الناصر بهذا البيان يقدم للشعب كشف حساب عما أنجزه فى الفترة التى أعقبت نكسة يونيو ١٩٦٧ والتى لاتتجاوز تسعة أشهر. إنه لايتمنى أو يمنى شعبه بأنه سوف يفعل كذا وكذا، أو سوف ينجز كيت وكيت، بل إنه يبدأ كل بند من بنود كشف الحساب بهذا التعبير العملى والمادى الملموس: "**إننا استطعنا....**"، سواء أكانت هذه الاستطاعة على مستوى إعادة بناء القوات

المسلحة، أو الصمود الاقتصادى، أو تصفية مراكز القوى المعوقة للمسيرة، أو تقديم صورة كاملة لانحرافات وأخطاء مرحلة سابقة أمام الجماهير، أو القيام بجهد سياسى على جبهات عريضة سواء أكانت جبهات عربية أو جبهات دولية. كل هذا تم انجازه فى تسعة أشهر وفى ظروف تكاد تكون مستحيلة. وهو انجاز اعترف به العدو قبل الصديق. وشهادات القادة الاسرائيليين الورادة فى هذه الدراسة دليل دامغ على العذاب الذى تحمله عبد الناصر مع شعبه من أجل تحقيق هذا الانجاز. كان اختياراً مصيرياً بين أن نكون أو لانكون على حد تعبيره. من هنا كانت الجدية فى الانجاز، جدية لدرجة الصرامة والقسوة على الذات، مستغلاً فى ذلك الاسترخاء العسكرى الذى أعقب الازدهار الاقتصادى والنشوة الاجتماعية داخل اسرائيل. كان عبد الناصر فى سباق محموم مع الزمن فى حين ساد الاسرائيليين إحساس منتشى بأن الزمن قد دان لهم وأصبح طوع بنانهم. لكن الصورة كانت مغايرة لذلك تماماً. يقول المقاتل الاسرائيلى فى شهادته:

"ذات يوم جاء بعض الشباب. جلسوا وبدأوا يفكرون بصوت عال: إذا كنا انتصرنا. فذلك يستوجب منا عملاً معيناً، مسئولية أدبية لمصير المغلوبين. وفى كتيب متواضع بيع على أوسع نطاق، قدمت إلى الشعب المقولة المضادة لألبوم الغطرسة: "حديث المقاتلين". وهنا، يخيل إلى، أن الجمهور اكتشف لأول مرة خواطر وأفكار المقاتلين الشباب الحقيقية، أولئك الذين أسماهم الشاعر ناثان الترمان، رحمه الله، بصدق؛ "الصينية الفضية التى قدمت عليها دولة اليهود لليهود".

لكن هذه المسئولية الأدبية التى يتشدق بها المقاتلون الاسرائيليون تجاه "المغلوبين"، هى فى حقيقتها ادعاء كاذب للمثالية والروح الانسانية لأن هؤلاء

المغلوبين لو كانوا بلا حول ولاقوة لما فكر أعداؤهم أبداً فى أى التزام أدبى لمصيرهم. فالحرب ليست بين ملائكة وبشر بل هى حرب مصائر، وادعاء الالتزام الأدبى تجاه مصير المغلوب ليس سوى رغبة دفينة فى التراجع بطريقة مشرفة ومثالية لاتنضوى تحت بند "مكره أخاك لابطل". ولذلك يقول عبد الناصر فى بيان ٣٠ مارس "إن الحق بغير القوة ضائع، وأن أمل السلام بغير امكانية الدفاع عنه، استسلام، وأن المبادئ بغير قدرة على حمايتها أحلام مثالية، مكانها السماء، وليس لها على الأرض مكان". وبناء على هذا المفهوم العلمى والعملى فان كوابيس الرعب التى مر بها جنود إسرائيل على جبهة سيناء هى التى دفعتهم إلى الحديث عن "المسئولية الأدبية نحو مصير المغلوبين"، وكأنهم يدافعون عن الحق والسلام والمبادئ الإنسانية، ولايدافعون عن أنفسهم!! إنهم فى حقيقة أمرهم يسعون بهذا الكتيب "حديث المقاتلين" إلى تعرية غطرسة قادتهم الذين يلقون بهم فى آتون الصحراء لقضية غير مقنعة وواضحة فى حين يدخنون هم السيجار، ويرشفون الويسكى، ويجالسون الحسناوات فى الأندية المكيفة الهواء:

> **"أولئك الشباب الذين عادوا من القتال، وخطوط وقف اطلاق النار، قالوا بأبسط الكلمات: إن الحرب وواقع النصر ليس حلاً للمدى البعيد. ونظروا إلى مشكلة اللاجئين الفلسطينيين مثلاً وكأنها صهيونية عربية، وإلى الحرب وكأنها الموت والدمار. بلا هالات الخطب الانتخابية الغوغائية. هذه الوثيقة الفريدة من نوعها تم تدوينها من أقوال شبان الكيبوتس، الذين يعتبرون، على الرغم من قلة عددهم، صفوة جيل الشباب الاسرائيلي، والموجهين فكرياً للجيش الاسرائيلي، وهيكله القيادى على المستوى الهجومى. وعلى النقيض منهم**

نجد الطالب الاسرائيلي النموذجي الذي يتظاهر لتأجيل موعد الامتحانات، ولكنه لايحرك أصبعاً في المسائل القومية المتعلقة بالحرب والسلام، بالحياة والموت. أما جامعاتنا، التي كان من الممكن أن تصبح كياناً سياسياً يشارك في تقويم المستقبل وتحديده، انقلبت إلى مدارس رياض أطفال لمليون من أصحاب النظارات الذين يريدون الحصول على درجة الدكتوراة فى أى شئ، وكذلك لمليون من الفتيات اللواتى يردن الزواج من رجال حاصلين على الدكتوراة فى شئ ما".

هكذا عاش المجتمع الاسرائيلي فى وهم كبير أنساه الجحيم المشتعل على جبهة سيناء، فأصيب بشيزوفرانيا حادة صورت له أن السلام النهائى جاء فى أعقاب نصر يونيو ولم يعد الأمر يحتاج إلى أدنى تفكير!! قد تكون هناك قلاقل فى الجبهة، لكنها تقلصات سرعان ماتزول. ولذلك أصبح الهم الأكبر للمواطن الاسرائيلى أن ينال أكبر قطعة ممكنة من كعكة النصر التى يجهل أو يتجاهل أن نيران المدفعية المصرية الثقيلة وصواريخها قد أحرقتها. يقول المظلى الاسرائيلى:

"وحتي حرب الاستنزاف لم تعكر صفو عربدة الثلاث سنوات السمان. وصور القتلى فى الصحف الصباحية لم تعق مكسرى العظام عن متعة تذوق طبقات سميكة من الزبد على خبزهم المحمر. فالجمهور المنتصر كان يعلم أنه فى مكان ما على قناة السويس، لايزال النصر "مستمراً"، وإذا كان هناك ثمة حزن لما يجرى فى الجبهة، فإن هذا الحزن زاد من وحدة مجتمع الوفرة الذى لايعرف الهزيمة

أبداً، لكن حجم الهدوء المشبع بالتوتر قد زاد أيضاً مثل كتلة الجليد المتدحرجة على سفح الجبل. هذا بالإضافة إلى إحدى مفارقاتنا القومية الغريبة التى تقول:

"من أجل السلام لابد من خوض الحرب
فنحن نقاتل من أجل السلام
حرب من أجل السلام".

إن المظلى الاسرائيلي الذى عانى من ويلات حرب الاستنزاف يحاول فى رسالته إلى عضو الكنيست أن يصل بصوته إلى القادة السياسيين الذين يعيشون فى جنة الأوهام التى عششت فى رؤوسهم، والتى تشكل مفارقة مأسوية مع الجحيم المشتعل في الجبهة، إذ أنهم اعتادوا الجمع بين الأضداد ببساطة مخلة بأى منطق مهما كان بسيطاً. فصور القتلى فى الصحف لاتتناقض مع مرح الإفطار اللذيذ فى الصباح، والحزن الذى قد يثيره سقوط القتلى ذو فائدة عملية فى تدعيم وحدة المجتمع الشعورية والوجدانية وترسيخها، والحرب الدائرة هي من أجل السلام، ويجب ألا تتوقف حتى تحقق السلام الذى يعني فى قاموس عبد الناصر الاستسلام المرفوض منه شكلاً وموضوعاً. إن الجمع بين هذه الاضداد خداع صريح وزيف مكشوف لكل من مر بتجربة الحرب فى جبهة سيناء. ولذلك يقول المظلى فى رسالته إلى عضو الكنيست عن شعار الحرب من أجل السلام:

"وهكذا صيغ أحد أكثر الشعارات مفارقة فى أية لغة: هذه إلى جانب تلك تتصارع الكلمة ونقيضها بلا حياء فى الجملة نفسها، كتفسير مكثف يمزج النصر الساحق بالخطر المتجدد، ويربط بين الحدود البعيدة وحالة الارتباك الغريب المغلف بالوفرة الخادعة

والخوف الحقيقى".

ولذلك لاتعنى المفارقة سوى الغش والخداع والتمويه والكذب والاحتيال. وهذا ينطبق على كل الشعارات المعلنة بما فيها تلك التى استمدها أو استوحاها القادة من التوراة بصفة خاصة ومن التراث الصهيونى بصفة عامة. إنها شعارات مرفوعة لتبرير سقوط القتلي فى الجبهة، أو عودة مشوهي الحرب إلى الحياة المدنية من أجل قضية ابتكرها الصهيونيون الأوائل بالاتفاق مع عتاة الامبرياليين، ظناً منهم أنه بذلك يمنحون اليهود الشرنقة الصلبة التى تحمى وجودهم بعيداً عن أحياء الجيتو التى انغلقوا فى داخلها فى بلاد العالم المتناثرة، لكنهم فى واقع الأمر وضعوهم فى جيتو كبير، لم يمنحهم الأمن والسلام المنشودين. يقول المظلي الإسرائيلى:

> **"وهكذا، سيداتى سادتي، غدا السلام مجرد كلمة، خرافة، يوتوبيا، عنوان فصل آخر فى الصفحات المجعدة للسياسيين المسنين، وللخبثاء المغرضين الذين يضعون شروطاً صعبة جداً للسلام، واثقين مسبقاً أن أحداً لن يقبل تلك الشروط. وقد اعتقدوا أن الزمن يعمل لصالحهم، لكن الزمن لايعترف بهم أبداً. ومع ذلك فهم على ثقة بأنه اذا اندلعت الحرب مرة ثانية، فسننتصر مرة أخرى.**
>
> **"نحن سننتصر، ليس هم لأن السلام عندهم هو عنوان فصل في الاجتماعات الانتخابية، فى حين أنه مسألة حياة أو موت عندنا. فنحن نريد السلام وهم يريدون أن يكسروا العظام، ذلك أنه لم يكن ولن يكون "نحن" و"هم" شيئاً واحداً أبداً".**

لقد نهضت إسرائيل على تجارة الحرب التى تمنح قادتها فرصة التحكم الدائم فى مجريات الأمور دون أية عقبات أو عوائق. فالحرب هى التى تحافظ على وحدة المجتمع الاسرائيلي فى مواجهة للمخاطر التى تهدده، وهى فى أغلبها مخاطر مفتعلة ومصطنعة، مثل افتعال فكرة الالقاء بها فى البحر. ولم يحدث فى تاريخ العالم كله أن ألقت جحافل الجيوش بأى شعب فى البحر، مهما كانت هذه الجحافل جرارة ورهيبة كالمغول والتتار مثلاً. فهل يعقل أن يتحقق هذا الادعاء الكاذب فى النصف الثانى من القرن العشرين؟!

يريد الساسة الاسرائيليون أن يكون المجتمع الاسرائيلي في حالة استنفار دائم حتي لاتتفكك أوصاله وتنفصم عراه. يكفى أنه ركن للراحة والدعة والتجارة محاولاً تجاهل حرب الاستنزاف بقدر الإمكان برغم المآسى التى أصابته من جرائها، فماذا يكون الوضع لو أن السلام النهائى استقر بالفعل وانقشع شبح الحرب بلا عودة؟! أغلب الظن أن إسرائيل لن تصبح قضية اليهود الذين لم يعرفوا فى حياتهم قضية أهم من جمع المال والضرب على أوتار الاقتصاد المشدودة فى أى مكان يوجدون فيه. ولذلك يعد السلام أعدى أعداء أية استراتيجية اسرائيلية على المدى الطويل لأنه نذير بتفكك المجتمع الاسرائيلي وتفتت قواعده. إن رفع شعارات السلام والتغزل فى مفاتنها والتغنى بمآثرها، شئ مريح وممتع وسهل للغاية، ولذلك فهى النغمة الأساسية أو اللحن الدال فى كل أجهزة الإعلام الاسرائيلية. لكنها مفارقة إسرائيلية أخرى من تلك المفارقات التى تكلم عنها المظلى فى رسالته إلى عضو الكنيست. مفارقة تتغنى بالسلام وتتشدق به بمناسبة وبغير مناسبة، لكنها فى الوقت نفسه تضع الخطط طويلة المدى بهدف زعزعة الاستقرار فى المنطقة بصفة متجددة ومتنوعة حتى تحتفظ إسرائيل بصلابة النواة التى تشكل محور وجودها. ولذلك فهى لاتمل أبداً من مسرحية "الحمائم والصقور" المملة السخيفة، وهى مفارقة أخرى بين أنصار السلام والمرونة وأنصار الحرب والتشدد، مثل مفارقة الوقوع فى غرام السلام والاصرار على امتلاك عدد لايحصى من القنابل الذرية وتطوير

المفاعل النووى فى ديمونة. إنها مفارقات غاية فى السخافة، ومع ذلك تنجح إسرئيل فى بيعها كالتاجر الشاطر الذى يعرف كيف يضع بضاعته المزيفة فى ثوب أنيق ومقنع، خاصة إذا لمح تهافت الزبون على مثل هذه البضاعة.

إن المفارقات هى السمة الرئيسية للاستراتيجية الاسرائيلية، سواء على المستوى الخارجى أو الداخلى. فهى تتيح لإسرائيل فرصة المراوغة، واللعب على كل الحبال المكنة، والاحتفاظ بخط الرجعة، وإرضاء أكبر عدد ممكن من الأطراف المعنية، وعدم الالتزام بوعود قطعتها على نفسها أو حتى اتفاقيات مع آخرين، والتذرع بالضغوط التى يمارسها الصقور، وممارسة لعبة الانتخابات كلما شعرت أنها على وشك الدخول فى طرق مسدودة لتغيير مجرى الأمور وإلهاء الخصم فى متاهات جانبية ودوائر مفرغة. ومن الواضح أن عبد الناصر كان يقظاً لكل هذه المناورات والخدع والحيل مما جعله لايقيم وزناً لما تنادى به اسرائيل لأن المحك الفعلى تمثل فى نواياها الحقيقية وتحركاتها العملية على أرض الواقع. وتحرك هو بدوره على أرض الواقع دون شعارات فكانت حرب الاستنزاف.

هذا على المستوى الخارجى أما على المستوى الداخلى فقد لعب الساسة والقادة الاسرائيليون لعبة المفارقات لتضليل المواطن الاسرائيلى وللاحتفاظ بمكاسبهم ومناصبهم وكراسيهم أطول مدة ممكنة. يقول المظلى الاسرائيلي:

> **"أتريدون مفارقة أخرى؟ إليكم بها: إن الشباب الاسرائيلي (ولم يبق منه الكثير بعد الحرب الرابعة من أجل السلام) يصبو حقيقة وباخلاص لأن يكون مقبولاً لدى العرب وقريباً منهم. ولكن قادتنا السياسيين يستغلون سوء التفاهم المأسوى الذى وقع بين الشعبين كسلاح للمساومة السياسية ولتحسين أوضاعهم المهنية الشخصية.**

"ويقولون لنا قبل كل حرب وبعدها إننا ذاهبون إلى القتال من أجل السلام والأمن، ولكنى أعرف عدداً من الذين قتلوا، لم يفكروا أبداً فى السلام أو الأمن. كان كل تفكيرهم منصباً فى الزوجة والطفل الذى يصحو كل أربع ساعات، في الوالدين، فى الأبناء، فى تلك الحسناء التى وعدت ولم تف، فى ذلك الفيلم الذى كان من المفروض مشاهدته فى دار سينما "اللنبى" فى الفستان الأخضر والروائح التى تذهب بالعقل. فمن أحب البحر فكر فى البحر، ومن أحب الشمس فكر فى الشمس. أما أنا فقد فكرت فى الموت، ولكننى لست مثلاً أعلى يجب أن يحتذى، فأنا جبان الجماعة.

"إن "الحرب من أجل السلام" شئ لايكفينى. لاياسيدى الوزير - عضو الكنيست - الجنرال الباسم، فقد نضجت قليلاً، وقرأت قليلاً من الكتب، وتحدثت مع عدد من الرجال، وأنا أريد أن أعرف عن أى نوع من السلام تتكلمون بالضبط. أى سلام؟ كم من السلام؟ سلام مع من؟ سلام مع زوجتى؟ سلام مع ريتشارد نيكسون؟ وأى أمن بالضبط؟ أمن ذاتى؟ أمن يحافظ على بيوضى من السرقة؟ أريد أن أعرف لأننى تأكدت أن سلامى ليس سلامكم، وأمنكم دائماً أكبر من أمنى".

هذه هى صورة المواطن الاسرائيلي المطحون الذي لايجد لنفسه دوراً سوى الضحية لأطماع دولية أخطبوطية لايمكن حصرها أو حتى مجرد فهمها. فقد باعوا له شعار "الحرب من أجل السلام" أو بمعنى أصح "الموت من

أجل الحياة" فى مقابل قضية وهمية لاناقة له فيها ولاجمل. لكن مأساته الحتمية تتمثل فى أنه لايجد منفذاً للهروب من هذا الحصار الخانق. لقد قطع أبواه جذورهم من البلد الذى عاشوا فيه وهاجروا إلى اسرائيل جرياً وراء الشعارات والوعود البراقة بحياة مستقرة آمنة، لكنهم اكتشفوا أن كل ماهاجروا من أجله كان من قبيل الأحلام والأوهام، لكنه اكتشاف بعد فوات الأوان لأن العودة إلى البلد الذى جاءوا منه أصبحت مستحيلة. وهكذا وجدوا أنفسهم يواجهون الموت دفاعاً عن أرض عاشوا فيها سنوات معدودة فى مواجهة شعب تمتد جذوره فى أرضه التى شهدت مولد أول وأعظم حضارة على وجه الأرض. فهل جاء اليهود إلى إسرائيل ليعيشوا فى أمن وسلام أم يموتوا من أجل الأمن والسلام؟!

هذا هو الدرس الذى حرص عبد الناصر على أن يلقنهم إياه بحرب الاستنزاف التى استمرت ثلاث سنوات كمقدمة طبيعية لحرب التحرير وازالة آثار العدوان. كان يعلم تماماً أن من بيدهم السلام فى إسرائيل لايريدون السلام لأنه يهدد مناصبهم القيادية ويمكن أن ينخر فى جسم المجتمع وكيانه كالسوس بحكم أنه مجتمع عسكرى بطبيعته منذ نشأته، كذلك فإن من يريدون السلام ليس بيدهم ولايستطيعون الحصول عليه لأنهم مجرد أدوات أو تروس فى آلة ضخمة رهيبة لايقتصر وجودها على حدود إسرائيل، إذ أن الأزرار أو الأيدى التى تحركها غالباً ماتكون خلف البحار والمحيطات. ولذلك لايستطيع المواطن الإسرائيلى أن يعى أبعاد الأمن أو السلام الذى يتحدثون عنه والذى يلقى به فى آتون الحرب من حين لآخر دون أى أمل فى سلام قريب. إن السلام فى نظر أى إنسان آخر، إنه الزوجة، والطفل، والأب، والأم، والابن، والحبيبة، والملابس الجميلة، والعطور المثيرة للنشوة، ونسيم البحر، وشعاع الشمس. لكنه يجد نفسه من حين لآخر محروماً من كل المتع الأساسية والمعانى التى تمنح للحياة مذاقها. لمجرد أن السادة الذين بيدهم الربط والحل يرون فى السلام مجرد وسيلة يمكن توظيفها فى أغراض مرحلية لكنه لايمكن

أن يكون غاية نهائية.

لقد أثبتت حرب الاستنزاف على جبهة سيناء أن مواجهة الجندى الإسرائيلى للموت هى مواجهة بلا نهاية، وأنه لايستطيع أن يلمح أية تباشير للسلام ولو فى الأفق البعيد. فأى سلام ذلك الذى يتكلمون عنه؟! إنه لايعرف معناه أو دلالته أو كنهه أو احتمالاته، ليس لعدم نضجه أو لنقص ثقافته أو لضحالة خبرته، ولكن لأن الحقيقة التى أكدتها له حرب الاستنزاف أن السلام ليس الشغل الشاغل لقادة إسرائيل بل الحرب. واختلاف مفهوم السلام بين الجندى والسياسى لايعنى أن هناك مفهومين للسلام ذلك أن السلام منظومة متكاملة لايمكن أن تتجزأ، لكنه يعنى أن الفرق بين المفهومين هو الفرق بين السلام والحرب.

من هنا كانت المرارة التى تنضح بها رسالة هذا المظلى إلى عضو الكنيست والتى يسأله فيها:

"هل لمس أحدكم السلام أو الأمن؟ بسهولة يقولون لك كلمات لايستطيعون تفسيرها لك، وعليك أن تقاتل من أجلها، وربما تموت من أجل شئ لاتفهمه أبداً.

"أصدقائى يرقدون الآن فى المستشفى، دون أيد أو أرجل. أى أمن لهم؟! وهناك من فقد عقله، وهم يهرولون فى دهاليز مصحات المجانين ويصرخون: "يامضمد"! هل هذا هو السلام الذى وعدتموهم به؟ ولذلك فانى سأكتب لكم خطاباً قصيراً:

"سيدى الوزير، القائد، الموهوب، رئيس الأركان، الجنرال، المحدال، الرئيس، المحترم، والوطنى!

"أنا ابن ست وعشرين، ولى ولدان وليس عندى بيت. الأمن والسلام شيئان رائعان جداً، ولكن حياتى أهم من كلامكم. أنا لست غبياً كما تتصور. وعندما أقاتل أريد أن أعرف بالضبط الهدف الذى أقاتل من أجله. فإذا كان السلام، فأى سلام بالضبط؟ سلام أبيض، أسود؟ سلام ملون، سلام مرصع؟ سلام الثلاثة أشهر؟ سلام حتى يجند ابنى فى الجيش ويحارب من أجل نفس السلام بالذات؟ إن سلامى وأمنى هما أن أعيش أطول مدة ممكنة، وألا أموت، وألا أفقد أيضاً أذناً فى معركة ما. وقد تندهشون عندما أبدى استعدادى للتنازل عن الكثير جداً من أجل سلام وأمن حقيقين، لكنى غير مستعد للموت من أجل كلمات لاأفهمها. فأنا لاأفهم سوى رائحة الجثث المحيطة بى".

هذا هو الكابوس الذى صنعه عبد الناصر لإسرائيل بحرب الاستنزاف، والذى تلاشت أمامه أحلامها السعيدة المنتشية بما جرى فى يونيو ١٩٦٧:

جثث محترقة أو متعفنة، أيد وأرجل مبتورة، مجانين يهرولون ويصرخون فى دهاليز المصحات، ولاأمل فى أى سلام. إنها حقائق عارية كفيلة بفضح كل هالات النصر المحيطة بنجوم القيادة العسكرية فى تل أبيب. فهم فى نظر الجنود الإسرائيليين ليسوا سوى تجار للموت يبيعون الأوهام لطمس الحقائق الكابوسية الجاثمة على كاهل المقاتلين.

أما خطاب عبد الناصر لجيشه وشعبه فكان واضحاً وضوح الشمس الساطعة وليس فى حاجة إلى أية محاولة من محاولات التفسير، وضوح يتغلغل فى قلوب أبسط الناس وعقولهم لأنه يضيئ الطريق صوب تحقيق الوجود واثبات الذات وآفاق المستقبل. إنه عندما يتكلم عن السلام فإنه يعنى

بكل اليقين السلام القائم على العدل، وليس الاستسلام الذى تحلم اسرائيل بفرضه على مصر التى صدت عبر القرون الماضية غزوات امبراطورية داست على بلاد كثيرة فى طريقها إلى مصر. ولعله من المثير للضحك والسخرية أن تظن اسرائيل فى نفسها القدرة على فعل ما عجزت عنه الامبراطوريات الغاربة والجحافل المندثرة. إن تاريخ مصر ظاهرة راسخة كالأهرامات والنيل والصحراء والجبل، ولذلك لاتحاول أن تصنع أو تفتعل لنفسها تاريخاً كما تفعل اسرائيل. كما أن الحضارة المصرية هى حضارة سلام وبناء وتعمير بطول تاريخها، أما التراث اليهودى فزاخر بالغزو والحرب والتدمير والحصار، لعجز اليهود عن العيش والتآلف مع الشعوب التى تعاملوا معها أو عاشوا بينها أو اختلطوا بها. لكنه كان اختلاطاً متحفظاً ومحسوباً بحيث لايصل أبداً إلى درجة الامتزاج. وكان هذا الانغلاق أو هذه العزلة سبباً فى عدم ارتياح الشعوب الأخرى لهم. وكثيراً ما أدى عدم الارتياح هذا إلى قلق وتوجس يمكن أن ينقلب إلى صراع خفى أو مكشوف قد يؤدى إلى طردهم أو نزالهم فى ميدان المعركة. وظلوا على هذا المنوال منذ خروجهم من مصر بقيادة موسى عليه السلام وحتى عودتهم لاحتلال فلسطين وأملهم فى اقامة اسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات. فهل يمكن أن تتغير الشخصية الإسرائيلية إلى شخصية محبة للسلام والتآلف والتعاون بعد أن ظلت لآلاف السنين شخصية قلقة، وعدوانية، ومتوجسة الخطر دائماً من الآخرين، وفاقدة الثقة تماماً فى كل أنواع البشر، ومتحفزة دائماً للعدوان والبطش وإثارة كل أنواع الحقد والكراهية والبغضاء ؟! إنها لاتثق فى أية وعود أو تعهدات أو كلمات بل تثق فقط فى السلاح الذى تقبض بيدها عليه، وتحرص دائماً على أن تكون أقوى وأسرع وأخطر من سلاح عدوها. ولذلك لم تعرف لغة فى تاريخها الطويل سوى لغة الحرب. وكان عبد الناصر بفكره الثاقب وثقافته الشاملة واعياً بدلالات هذه اللغة التى تفهمها إسرائيل جيداً، فقرر أن يخاطبها بها وكانت حرب الاستنزاف.

ولاتلجأ إسرائيل إلى توظيف الكلمات والمعانى والقيم والشعارات إلا لتغطية أهدافها العدوانية الحقيقية سواء بالنسبة لجنودها المرابطين على خط النار أو بالنسبة لأعدائها الذين ابتلوا بها. وليس هذا تفسيراً من عندنا بل من عند المظلى الإسرائيلى الذى يذكره فى رسالته إلى عضو الكنيست فيقول:

"نعم، أعتقد أنه كانت لنا سنوات مناسبة للكلام عن السلام والأمن الحقيقيين، ولكننا شغلنا بالكلمات، بالمعانى، بالقيم، بالفلسفة، بالمال. فلقد قاتل الرفاق دائماً من أجل شئ ما: حرية، أخوة، استقلال، سلام، أمن، ديمقراطية. أما الكلمة الأهم وهى "الحياة"، الحياة العادية، فقد دفعت إلى زوايا النسيان، خلف تلال من الشعارات الفارغة المهترئة. إننى رأيت شباباً يموتون، ولا أحد منهم صرخ قبل أن يسقط قائلاً: "ما أجمل الموت فى سبيل الوطن"، أو "يعيش السلام والأمن". كانوا يبكون كالأطفال صارخين "ياأمى"، وأحدهم - يورام - قال: "لاتخبروا زوجتى، ستغضب طول عمرها"، فقد أراد أن يقول بمرارة: "إننى أموت الآن دون أن أعرف إذا كنت قد أحرزت، فى آخر المطاف، السلام والأمن، أم أننى أضعت حياتى هدراً".

هذا هو الإحساس الذى ينخر فى وجدان الشباب الإسرائيلى الذى مر بمحنة الحرب مع مصر. فهو لايصدق كل أنواع الهراء والخداع، واللعب بالألفاظ والأفكار والعقول، والضرب على أوتار جنون العظمة، والتشدق بالعبقرية اليهودية، والتغنى بالقوة الاسرائيلية التى لاتقهر، وغير ذلك من الألعاب النارية الإعلامية التى تنطلق فى سماء اسرائيل لتبهر العيون القصيرة النظر، فى حين تتوهج سماء سيناء بالقنابل والصواريخ المصرية، وتنهال

المدفعية الثقيلة على الدشم لتدكها فوق رؤوس الجنود المحتمين بها، وينقض الفدائيون المصريون على الدوريات الاسرائيلية فى كمائن نصبوها فى الخفاء، أو حقول ألغام زرعوها تحت ستار الظلام فى انتظار الأقدام أو العجلات الاسرائيلية القادمة، وتتوالى الصور المأسوية والكابوسية التى وردت فى رسالة المظلى إلى عضو الكنيست، لدرجة أنه وصف إسرائيل بجنة الحمقى الذين يرسلون أبناءهم إلى ميدان الموت إما لأغراض شخصية، ومناصب وسلطات يريدون الحفاظ عليها أو لأوهام الدفاع عن رسالة مقدسة، ليس لها وجود أصلاً. يقول المظلى بالحرف الواحد:

"فى جنة الحمقى شغلنا بترهاتنا الرائعة، والنخبة السياسية والعسكرية، أعطتنا الانطباع بأننا محاطون دوماً بأمن وسلام. وليس هناك ما يدعونا إلى القلق. أما العربدة فتستطيع أن تستمر دون عرقلة. لا، ليست هناك حاجة إلى ارتداء الملابس، ومعاذ الله من التفكير أكثر من اللازم، لكن لابد من الحفاظ على المعنويات:

ــ لماذا لاتتكلمون معهم أو تعملون شيئاً ما ؟

ــ دعك من هذا. إنك لاتفهم أنهم عرب وأن لهم عقلية أخرى ؟

ــ ونحن، أليست لنا عقلية ؟

ــ اغلق فمك ونم مع البندقية. البندقية زوجتك.

ــ نعم، نعم... هى زوجتى. ولكن ربما نستطيع تسوية قضية اللاجئين أيضاً.. وكذلك المناطق المحتلة.. ربما.. اذا حاولنا أن نتكلم معهم..

ـــ هم أنفسهم لايريدون أن يتكلموا معك يأحمق.

ـــ ولكنى أريد أن أتكلم معهم.

ـــ نحن فى انتظار أن يطلبوننا بالتليفون.

ـــ ولكن لماذا لانتصل نحن. فلدينا الرقم، أليس كذلك ؟!

ـــ اخرس ومارس تمرين الركض حتى آمرك بالتوقف".

هذا الحوار يشير إلى دلالات عديدة مرتبطة بالصراع العربى الإسرائيلى، ويعرى نوايا القادة الإسرائيليين وأهدافهم. فهم يدركون تماماً أن مبادرة العرب إلى الاتصال بهم لاتعنى سوى الاستسلام وتقبل المهانة والذل وفرض الأمر الواقع الذى ترتب على حرب يونيو ١٩٦٧. ومع ذلك فهم يتذرعون بأنهم يريدون السلام لكن العرب يرفضونه بدليل أنهم يرفضون الاتصال بهم والتفاوض معهم بشأنه. ولذلك عندما أعرب الجندى الإسرائيلى عن رغبته فى الاتصال بالعرب، تلقى أمراً بأن يخرس وأن يمارس تمرين الجرى حتى يأمره قائده بالتوقف بعد أن يتأكد من أنه أنهك تماماً وأصبح محصناً ضد هذه الأفكار الغريبة.

ومن الواضح أن عبد الناصر كان يقرأ كل ما يدور فى عقل إسرائيل، فكانت النغمة الأساسية التى يعزفها فى خطبه وبياناته وتصريحاته أن ما أخذ بالقوة لابد وأن يسترد بالقوة الكفيلة بازالة آثار العدوان. ولم تقتصر هذه النغمة فى المجال السياسى بل كانت مدوية فى المجال العسكرى حين قرر استنزاف اسرائيل وضرب قلبها حين تجد شبابها يتساقطون قتلى فى صحراء سيضطرون إلى الجلاء عنها إن عاجلاً أو آجلاً. ولذلك لم يكن عبد الناصر قلقاً بالنسبة لتحرير سيناء لأن مصر قادرة عليه بمجرد استكمال استعدادها

العسكرى الذى ضرب أرقاماً قياسية فى التطور والتقدم ، خاصة فى الشهور الأخيرة من حرب الاستنزاف ، برغم أن قواتنا المسلحة بدأت من الصفر فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ ، لكن قلق عبد الناصر كان نتيجة لحسه القومى العربى المتأصل فى منهجه النظرى والعملى ، الفكرى والسلوكى والذى جعل الهدف الاستراتيجى من حرب الاستنزاف ، ليس فقط الضغط على إسرائيل فى سيناء بل فى الجولان والضفة الغربية أيضاً . لم يتخل عبد الناصر عن إيمانه بالقومية العربية حتى فى أحلك الفترات التى تلقت فيها ضربات قاصمة ، تماماً مثل البطل الملحمى الذى يتحدى الظروف ويسعى إلى تغيير الأمر الواقع مهما كانت حتمياته ، ولايترك نفسه نهباً له ولضغوطه التى يمكن أن تؤثر على قراره وتشكله . ومن هنا كان التفاف الجماهير العربية حوله وتعلقهم التاريخى به من الخليج إلى المحيط ، ومن هنا كانت قوته السياسية والاستراتيجية التى حولتها حرب الاستنزاف إلى واقع مادى ملموس بل وإلى كابوس جاثم على كاهل اسرائيل ليل نهار .

فى مقابل تعلق العرب بزعامته التاريخية يصف لنا المظلى الإسرائيلى علاقته كمواطن وكجندى بقادته السياسيين ، وهى علاقة تدل على مدى عمق الفجوة واتساعها بين القمة والقاعدة فى المجتمع الإسرائيلى الزاخر بالفجوات والثغرات والشقوق والشروخ والصراعات المكتومة والمكبوتة تحت السطح الدينى والعقيدى . والدين وحده لايمكن أن يشكل بوتقة تنصهر فيها كل الاختلافات والخلافات الاجتماعية والعرقية والثقافية والاقتصادية والفكرية والحضارية لجماعات يهودية عاشت لقرون طويلة متتابعة وسط شعوب لاتمت لبعضها بعضاً بأية صلة حضارية ، ثم هاجرت إلى إسرائيل لتكوين ما يسمى بالمجتمع الإسرائيلى . ولذلك يحرص المفكرون الإسرائيليون على القول بأن الوطن الحقيقى لليهود كان التوراة والتلمود وبروتوكولات حكماء صهيون بحيث تنتقل معهم حيثما ذهبوا ، لكن هذا الادعاء لايمكن أن ينفى الوشائج والمؤثرات الاجتماعية والايكولوجية والانثروبولوجية التى عاشها

اليهود وسط مختلف الشعوب. وهو إدعاء لايمكن أن يصمد فى مواجهة تساؤل بسيط وساذج يقول: ما العلاقة بين يهود الفلاشا القادمين من إثيوبيا مثلاً وبين اليهود القادمين من روسيا أو بولندا ؟!

من هنا كانت الفجوة - من باب أولى - بين القمة والقاعدة. فجوة يعبر عن مدى عمقها واتساعها ذلك المظلى عندما يقول:

"إن جولدا مائير لاتتكلم لغتى، وفكاهاتها لاتضحكنى. كما أن أفكارى لاتهمها. وهى امرأة قديرة وتستطيع أن تدبر الأمور من دونى ودونك. تستطيع أن تدبر الأمور من دوننا جميعاً. وبوصفها رئيسة للحكومة فهى تعلم أنه دائماً، وفى كل مكان يلح ملايين المواطنين بمنتهى الاقتناع على أن الحكومة سيئة، لاتصلح لشئ، ولاتمت إلى الأخلاق بصلة. أما بالنسبة لتلك الإمارات الاقطاعية التى تسمى أحزاب العمال، فإن المواطنين يتحدثون عنها بنوع من الازدراء الواضح أو يتجاهلونها تماماً. ولكن ذلك لايحرك القادة لأنهم "مكسرو العظام" والمنتصرون الذين لايحتاجوننا أبداً من أجل أنفسهم من جديد كل مرة. وربما قلت إننا نزعجهم إلا قليلاً".

هل هذه هى صورة مجتمع الديمقراطية والحرية والتحضر، التى تصر أجهزة الدعاية الصهيونية، سواء فى داخل اسرائيل أو خارجها، على تأكيدها فى الرأى العام العالمى ؟! هل هذه هى القيادة السياسية التى ترعى شعبها وتحافظ على مصلحته حتى لو تراجعت فى قرار اتخذته ؟! أين الجسور الممتدة بين القمة والقاعدة بحيث تشعر كل منهما بنبض الأخرى ؟! لماذا استمرت حرب الاستنزاف بكل العناد والإصرار على عدم الانسحاب من سيناء برغم

كل الخسائر الفادحة فى الأرواح وبرغم يقين القادة الإسرائيليين من أن عبد الناصر لن يتراجع أبداً وسيواصل استنزاف إسرائيل حتى تتم ازالة آثار العدوان ؟! وهم يعلمون تماماً أن صلتهم المهترئة بمواطنيهم تقابلها علاقة تاريخية وقومية حميمة ليس بين عبد الناصر وشعبه فحسب بل بينه وبين الشعب العربى أجمع. الإسرائيليون لايهتمون بما يقوله زعماؤهم الذين لايهتمون بدورهم بما يفكر فيه مواطنوهم، أما عندما يلقى عبد الناصر تصريحاً أو خطاباً أو بياناً فإن أصداؤه تتردد بسرعة البرق فى وجدان الشعب العربى وعقله من الخليج إلى المحيط، ولولا الظروف الشاذة، الدولية منها والاقليمية، التى مرت بها مصر قبل شهر يونيو ١٩٦٧ لما وقعت النكسة أبداً.

لكن قادة اسرائيل تعاموا عن كل هذه الحقائق، وصموا آذانهم فى مواجهة مواطنيهم الذين استجاروا بهم لانقاذ أبنائهم من جحيم حرب الاستنزاف، من أجل الحفاظ على الأضواء البراقة والخادعة التى سلطت عليهم فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧. أصبح كل همهم التربع على كراسى السلطة أطول مدد ممكنة، ولذلك أصبحت الممارسة السياسية عندهم أشبه بلعبة الكراسى الموسيقية على حد قول المظلى الاسرائيلى فى رسالته إلى عضو الكنيست:

> **"كان الأكثر راحة لهم أن يجلسوا وحدهم على المائة وعشرين كرسياً، وأن يتبادلوا من وقت لآخر فيما بينهم، كما فى لعبة الأطفال التى تعرفونها والتى تحتم على كل لاعب أن يحتل كرسياً بأسرع ما يكون عندما تتوقف الموسيقى. وليس أرشق منهم فى لعبة احتلال الكراسى. وهذه هى موهبتهم الأساسية فعلاً. أعطوهم كرسياً وانظروا كيف يجيدون اللعب به حتى النهاية. وبين حين وآخر أرى وجوههم فى صحيفة أو على شاشة التليفزيون،**

فأفكر فى نفسى متسائلاً كما يحدث فى مناظر المطاردة فى أفلام رعاة البقر وعصابات الغرب من الدرجة الثالثة: من هؤلاء الرجال ؟ هل هذا فريق الشريف أم فريق اللصوص ؟ وأية علاقة لهم بى ؟ فأصغرهم سناً يمكن أن يكون جدتى. وهم لايتكلمون لغتى، ولايهمهم ما يهمنى. آه.. الآن وفى أثناء كتابة هذه السطور أرى أحدهم على شاشة التليفزيون. رجل عجوز عجوز عجوز، تقافزت على وجهه ابتسامة الحكم الطافحة بالضجر. إننى متأكد أنه لم يقبل فتاة فى حياته، أقصد على فمها. وقد لايكون إنساناً يتنفس كما أتنفس. لكنه يقبع هناك فقط وبصفة مستديمة".

هنا يعرى المظلى الإسرائيلى لعبة الانتخابات الإسرائيلية التى لاتخرج فى قواعدها عن لعبة الكراسى الموسيقية التى تتبادلها الأحزاب تحت ستار الممارسة الديمقراطية، خاصة بين من يسمون أنفسهم بالصقور ومن يدعون أنهم من الحمائم. فإذا كان الموقف الدولى يحتاج إلى مرونة ومراوغة وزئبقية فإن الحمائم ينجحون فى الانتخابات ويطلون على العالم بوجوههم السمحة !! واذا الموقف يستدعى نوعاً أو آخر من التشدد والمواجهة بل والتطرف، فإن حكومة الحمائم تفتعل أزمات تؤدى بها إلى دخول انتخابات جديدة، هى من اختيارها، ويفاجأ العالم بفوز حكومة الصقور التى سرعان ما يتربع أعضاؤها على الكراسى بمجرد أن تتوقف الموسيقى. ولا نعرف بالضبط مكان العازف الذى يتوقف عن العزف طبقاً لحسابات خاصة به هو !! هل هو فى البيت الأبيض أم فى وكالة المخابرات الأمريكية، أم فى البنتاجون أم فى وزارة الخارجية الأمريكية، أم فى تجمعات رجال الأعمال والشركات العملاقة، أم فى الكنيست، أم فى الموساد، أم فى المؤسسة العسكرية الاسرائيلية، أم...،

أم . . . ؟! قد يكونون جميعاً مشتركين فى العزف أو بعضهم أو أحدهم ، لكن العازف فى كل الأحوال يتعامل مع المراكز العليا للأعصاب المسيطرة على المؤسسات العسكرية والسياسية والاقتصادية ولايضع فى اعتباره المواطن الاسرائيلى الذى أنهكته الحروب المتتالية ، بدليل حرب الاستنزاف التى استمرت ثلاث سنوات بلا هوادة وملأت المجتمع الاسرائيلى بآلاف القتلى والمصابين ومشوهى الحرب ، تحت شعار اجبار مصر على الاستسلام الذى لم يحدث أبداً .

من هنا كانت المرارة التى تسرى فى حلوق الشباب الاسرائيلى الذى يشعر أن كل اهتمام القادة السياسيين والعسكريين به يكمن فى قيامه بدور الوقود للآلة الحربية الجهنمية التى لاتشبع ولاتتوقف . ولذلك يتساءل المظلى الاسرائيلى عن علاقته كمواطن وكشاب بالقائد السياسى الذى يشكل أو يتلاعب بمصيره :

"اذاً . . أية علاقة له بى ؟! إلى الجحيم ؟! ولماذا يطاردنى كلما تطور وضع أمنى أو نشبت حرب ؟

ـــ لأنك أنت شعبه . . ياتنبل . . أنت الشعب !

ـــ أنا ؟؟؟!!

ـــ نعم ، نعم ، أنت الذى تنتخبنا . . .

ـــ أنا لم أنتخب أحداً فى حياتى . .

ـــ شكراً ، شكراً ، ياصديقى العزيز ، إنك انتخبتنا بالفعل !

حقاً ، بين حين وآخر ، يحاول بعض الشباب دخول المتاهة السياسية ، ولكن الأمل معدوم عادة . فالطريق إلى مجالس الشيوخ فى المؤسسة الحاكمة عندنا يحتم على المرء أن يكون نصاباً دولياً ،

والشباب الذين يصلون إليها، ليسوا شباباً بهذه الدرجة، فهم يفقدون فى الطريق شرفهم، واستقامتهم، وأخلاقهم، وضميرهم، وعدداً آخر من الأمور التى كانت حيوية للمرشحين فى الماضى، فى الديمقراطيات القديمة".

أين هى اسرائيل واحة الديمقراطية كما يدعون وقد شهد شاهد من أهلها على أن المسألة كلها خالية تماماً من كل الشعارات المثالية والحضارية التى يتشدقون بها ؟! إن الشهادة التى يسجلها هذا المظلى البائس لأكبر دليل على المواطن الاسرائيلى الذى لاحول له ولا قوة برغم إلحاح أجهزة الإعلام على عقله بأنه مواطن حر، وسيد قراره، ويمارس حياته فى حرية وديمقراطية قل أن نجد لهما نظيراً فى أعتى الديمقراطيات العريقة !! هل استطاع مواطن أن يجهر بضرورة الانسحاب من سيناء حتى يقف نزيف الدم الإسرائيلى على رمالها ؟! إن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية هى القدر الذى لاراد لإرادته فى كل مجريات الأمور فى إسرائيل، وهذه ظاهرة طبيعية لأنها مجتمع عسكرى تماماً ويتخذ من المظاهر المدنية مجرد واجهة له. والحياة العسكرية بطبيعتها لاتعرف الديمقراطية عند اصدار الأمر الذى يجب أن يطاع وينفذ دون إبداء أى رأى.

وعندما يتحول النظام العسكرى إلى قاعدة ينهض عليها المجتمع سواء فى وقت السلم أو زمن الحرب، فلابد أن يصاب القادة، سواء أكانوا من السياسيين أو العسكريين، بالعجرفة والديكتاتورية. يقول دالتون ترومبو:

"والشباب، الشباب الذى فقد الثقة بمن انتخبهم منذ زمن طويل، والذى يسخر من كل كلمة يتفوهون بها، هو الذى يجب عليه، مرة كل عدة سنوات، أن يضحى بنفسه من أجل إدعاء مزيف تصر عليه المؤسسة الحاكمة، الغربية والمتعجرفة،

ويحاول بـه أن تبث فى النـاس شعوراً وهمياً بالأمن والسـلام. ثم جـاءت حرب لـم تكـن ناجـحة إلـى حد كبير".

ومع ذلك أصرت المؤسسة العسكرية فى اسرائيل على التصدى لحرب الاستنزاف بكل الوسائل والطاقات المكنة برغم الفارق الشاسع بين إمكانات اسرائيل وإمكانات مصر البشرية. إن القوات المسلحة المصرية يمكنها أن تخوض حرباً طويلة بأكبر حشد ممكن من الجنود دون أن يتأثر الانتاج القومى فى الجبهة الداخلية، بل إن عبد الناصر كان يصعد دائماً من تحدياته وأعلن عن عزمه بتأسيس جيش المليون مقاتل. أما أية حرب طويلة يخوضها الجيش الإسرائيلى فلا تعنى سوى إعاقة عجلة الانتاج الذى يتناقص بذهاب العمال إلى الجبهة، لأنه جيش لايعرف رفاهية الجندى المحترف والمتخصص. ومع ذلك واصل القادة العسكريون عنادهم الذى دفع ثمنه جنودهم سواء الذين خروا صرعى أو الذين فقدوا عضواً أو أكثر من أجسادهم وعاشوا عالة على المجتمع. لم يكن أمامهم سوى الطاعة العمياء للأوامر الصادرة من مراكز عليا لها حسابات تعلو على الأرواح:

"ــ انزلوا إلى الحفائر !

ــ أخرجوا !

ــ احذروا، أيها الرفاق ! هذه كاتيوشا !

ــ ضعوا خوذات الصلب ولاتخرجوا رؤوسكم!

لحظة طويلة تحت سطوة الموت، مدتها ثلاثة أيام مستمرة حتى الآن، فيها يصاب رجالنا من قذائف مدفعية العدو، والكاتيوشا أشد هولاً. تلمح بريق انطلاق القذائف، لكنك لاتعرف أبداً أين تسقط.

وفى هذه اللحظة المروعة، ترتسم حياتك كلها على شريط سريع صامت".

ثم يصف المقاتل الإسرائيلى الكابوس الذى صنعته له قذائف المدفعية المصرية والكاتيوشا فى حرب الاستنزاف فيقول وكأنه فأر وقع فى مصيدة:

"موشيه قتل، وتشبى، وألكسى. ما هذا ؟! كلهم ماتوا ؟ يامضمد.. يامضمد.. أنا ميت وحى معاً ! أنا أحبك يانوريت، أحبك جداً. وإذا خرجت من هنا حياً فسأضمك إلى صدرى مدى الحياة ولن أتركك ولو دقيقة واحدة. ياالهى ما أشد خوفى. كل بدنى يرتعد. أنا منبطح على وجهى فى حفرة مسطحة وأرتعد كورقة شجر فى مهب الريح.. يريدون قتلى.. قتلى ! هم يريدون...

"آمل ألا تكون العيون هدفاً لهم لأننى إذا لم أبصر فلن أساوى شيئاً، فهذه هى طبيعتى. وحتى عندما درست التاريخ القديم، قلت للأستاذ:

"رومان أو غير رومان، أنا لا أصدق حتى أرى"... أعوذ بالله، ليس اليدان، ليس باليدين من فضلك. فبهاتين اليدين ألمسك، وأكتب القصائد، وألاعب الأولاد، وأغسل ظهرى، وأطفئ النور. ولا الرجلان لأنى أحب المشى. يكفى أنه ليس لروتبليت أرجل. أما أنا فألعب كرة قدم، جناح شمالى، أيام السبت، أحياناً. وأيضاً لا البطن، ولا الظهر، ولا الأذنان، ولا... وإذا مت، فما مصير كل الأشياء التى ستموت معى ؟ القصائد التى لم

أكتبها ؟ والخواطر التى لم تخطر ببالى ؟ والأفكار التى أؤمن بها ؟!".

هذه هى شهادة شاب عادى بسيط ضد كبار تجار الموت فى القيادة الإسرائيلية التى تجد فى تحالفها مع الامبريالية العالمية عامة والأمريكية خاصة سنداً لها يفوق فى قوته وصلابته وصموده استنادها إلى أبناء الشعب البسطاء الذين يقومون بالتضحية الفعلية التى إن لم تكن من حياتهم ودمهم، فهى من أعضاء أجسامهم التى تبتر بلا هوادة سواء على رمال سيناء أم فى المستشفى الميدانى أم فى تل أبيب. إن هذا الشاب العادى البسيط قد آمن بعد تجربته المريرة فى حرب الاستنزاف أنه ليس لأحد الحق، مهما كانت سلطته أو سطوته أو منصبه، أن يرسل أمثاله إلى الجحيم لسياسة عليا لايعلم عن أسبابها ومبرراتها شيئاً.

هكذا استطاع عبد الناصر بحرب الاستنزاف أن يكسر شوكة الزهو والعنجهية والخيلاء فى الوجدان الإسرائيلى سواء على مستوى القاعدة أو القمة. الفرق الوحيد بينهما أن القاعدة تعترف بل وتصرخ احتجاجاً على هذه الحرب الجهنمية لأنها هى التى تدفع الثمن من حياة ودماء وأعضاء شبابها، فى حين ترفض القمة أن تعترف بذلك حتى لاتفقد المكاسب والأضواء والسلطات التى حصلت عليها فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧، وإن كانت فى داخلها على إدراك كامل بأهوال حرب الاستنزاف من خلال التقارير الواردة يومياً من الجبهة. وهذا التجاهل أو الكتمان هو فى حد ذاته تجارة فعلية فى الأرواح برغم النقص الكبير الذى تعانى منه إسرائيل فيها.

ولنا أن نتخيل ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم يشن عبد الناصر حرب الاستنزاف على إسرائيل، واقتصر جهده على المساعى السلمية للدول الصديقة فى هذا المضمار ؟! فقد كان من المتوقع بل ومن الطبيعى أن تظل الأمور على

ما هى عليه بتكريس الأمر الواقع. فما الذى يمكن أن تفعله الدول الصديقة سوى ممارسة بعض الضغوط الأدبية التى إذا نجحت فإنها لن تؤدى إلا إلى التعاطف السلبى مع القضية العربية، فيحصل العرب على المواساة والمشاركة الوجدانية ويحصل الإسرائيليون على الأرض بوضع اليد. ولذلك كان هدف عبد الناصر من حرب الاستنزاف هو قطع هذه اليد لأن ما أخذ بالقوة لابد أن يسترد بالقوة. وعندئذ يمكن تحريك القضية بندية سياسية، تمنح الدول الصديقة القدرة على المناورة والضغط المتزايد وتغيير الأمر الواقع فى النهاية. كان عبد الناصر يؤمن دائماً أن الحق بدون قوة هو مجرد شعار مثالى جميل غير قابل للتنفيذ وتحويله إلى واقع مادى ملموس، كذلك فإن القوة بدون حق هى همجية أو طاقة عمياء أو نار يمكن أن تحرق صاحبها كما تحرق الآخرين تماماً. ولذلك كان الهم الأكبر لعبد الناصر فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ أن يعيد بناء القوات المسلحة، وسوف يسجل له التاريخ أنه قام بهذه المهمة شبه المستحيلة فى وقت قياسى، لمسه العدو نفسه واعترف به بعد شهور معدودة من النكسة التى كانت بمثابة نقطة الصفر التى بدأ منها عبد الناصر والتى كان يمكن أن تشكل مصدر يأس مطبق لزعماء آخرين عندما يرون قواتهم المسلحة وقد اهترأت وتبعثرت أشلاءً فى مواجهة العدو. كان شغله الشاغل أن يكسر العناد الإسرائيلى وأن يعيد اسرائيل إلى حجمها الطبيعى، وكانت بوادر نجاحه قد تمثلت فى قبول اسرائيل لمبادرة روجرز لعلها تلتقط أنفاسها اللاهثة، لكن القدر لم يمهله لإكمال مهمته المصيرية والتاريخية بعد أن ناءت صحته بالأثقال التى حملها على أكتافه وكانت كالجبال الرواسى. ولاشك أن إسرائيل تنفست الصعداء عند رحيله عندما وجدت أن المرض حقق لها فى النهاية هدفها الأثير الذى عجزت عن تحقيقه بطول ثمانية عشر عاماً. ويكفى أن نستشهد بما قاله المقاتل الإسرائيلى عما فعلته به حرب الاستنزاف:

"العار أن أضطجع على أرض لاأعرفها ولا أمت إليها بصلة.. أقبل زبل حصان مصرى فى

انتظار أن يقتلونى، أن يقرروا بالنسبة لى أنـه........زززب ب م !.... القنابل تتساقط. المجموعة الأولى على بعد ما، على الجسر. ولكن حذار، ستسقط الرشقة الثانية علينا تماماً ! ليس أبعد من خمسين متراً ! وأنا أحاول القرفصة بقدر الإمكان. أن أكون قزماً. أن أكون قطاً. الشظايا الكبيرة تتطاير فوق رأسى، والزلزال يلصقنى بالأرض. عيناى اغمضتا وامتلأ فمى بالغبار، وصرخات "ياطبيب !" و "يامضمد !" تنطلق من خنادق الفصيلة جيم. ثم ينتهى القصف وأنا أتلمس كل عضو فى جسمى، وشعادة تسرى فى داخلى لأنى بقيت على قيد الحياة ! وأقسم أننى سأهرب من هنا. سأهرب بعيداً. سأهرب حتى البحر وأقول:

"لا أريد أن أسقط بين كراسيكم !

أنا خائف !

أنا خائف ! أريد أن أحيا !

ما أجمل الحياة !

أنا حى وميت فى آن واحد. وفى فمى طعم زبل الخيل المالح. وكل أصدقائى تقريباً قتلوا أو جرحوا. ولا شئ يهمنى أقل مما إذا كنا انتصرنا أو خسرنا. لا أريد أن أستمع إلى النتائج، فحياتى ليست كرة قدم. والآن أنا ذاهب لأتأمل البحر. أنا حى، ولكن ما مات بى لن تستطيعوا إعادته إلى الأبد".

وهذا يعنى أن أحداً لم ينج بجلده من نتائج حرب الاستنزاف وآثارها، حتى الذين نجوا بأجسادهم ولم يمسسها أذى، فإن نفوسهم لم تنج منها. فقد ماتت داخلهم أشياء أثيرة وعزيزة لن يستطيع أحد إعادتها إليهم. وهى أشياء لا تهم الدولة فى كثير أو قليل، خاصة وأن هذه الدولة بعينها لا تهتم بمصير المفقودين فى الجبهة من الجنود، بدليل الآباء الذين يحكى عنهم المظلى الإسرائيلى والذين يأتون للبحث عن أبنائهم فى الوحدات المجندين بها، دون أن يخبرهم أحد بمصائرهم لسبب أو لآخر، حتى لو كانوا من شهود العيان. فكل ما تقوله الدولة أن فلاناً مفقود وجارى البحث عنه. أما كيف فقد وآخر مرة شوهد فيها وماذا قال عنه زملاؤه الذين لايزالون أحياء ؟! فهذه كلها أمور فى منتهى الغموض والتميع مما يضطر الآباء إلى الحصول على إذن بزيارة الجبهة بحثاً عن أبنائهم فى الوحدات والمواقع التى خدموا فيها لعلهم يلتقطون أى خيط يمكن أن يؤدى إلى معرفة مصيرهم. لكن الأمر يزداد غموضاً ومأسوية إذ أن زملاء المفقود أنفسهم لايعرفون على وجه التحديد كيف فقد ؟! فعندما تدك الصواريخ والقنابل والقذائف المصرية الدشم والتحصينات، فإن الأشلاء تتناثر هنا وهناك، وتمتزج الرمال الباردة أو الملتهبة بالدماء الساخنة، فلا يعرف هذا من ذاك. بل إن الصواريخ والقنابل تقوم أحياناً بمهمة الدفن تحت ركام الصخور والأحجار والرمال، ويتلاشى بعض المقاتلين كأنهم لم يكونوا فى يوم من الأيام. وعندما يتساءل الآباء الباحثون عنهم لايجدون سوى ابتسامات باهتة، ونظرات حائرة، وإجابات تتكلم عن أهوال حرب الاستنزاف بصفة عامة فى حين يموت الآباء حسرة وشوقاً لمعرفة ما جرى لأبنائهم بصفة خاصة. فلا تهمهم القضية التراثية أو التاريخية أو العقيدية أو الدينية أو التوراتية أو الصهيونية بقدر ما تهمهم سلامة أبنائهم الذين أنجبوهم لكى يعيشوا ويستمتعوا بالحياة، لا لكى يموتوا فى صحراء محرقة فى حفر أو أغوار أو تحت تلال من الصخور بحيث يصبح العثور على جثثهم نوعاً من الرفاهية أو الأمل المستحيل.

ويعلق المظلى الإسرائيلى على ذلك بقوله إنه لم يعرف جنون الحرب إلا عندما خاض حرب الاستنزاف، وهو يتمنى أن يقف الآباء الذين ثكلوا أبناءهم سداً حاجزاً بين الحياة والموت حتى لايضيع الباقون من أجل حفنة رمال. بل إن ذهاب المظلى فى إجازة إلى تل أبيب أصبح كابوساً هو الآخر، إذ يتعين عليه الإجابة عن أسئلة لايدرى عنها شيئاً. فيتحتم عليه أن يبرر للعروس عدم عودة عريسها من الجبهة كما وعدها لعقد القران فى آخر خطاب منه إليها، فهى لاتعلم بعد أنه لن يعود إليها أبداً ولن يكون هناك قران بعد أن تناثرت أشلاؤه واحترقت تحت نيران المدفعية المصرية. وعليه أيضاً أن يبحث عن اجابات رقيقة ومخففة عن أسئلة أم طبيب العيون الذى كان معه فى وحدته، لكنه فى ليلة غاب فيها القمر دكت العيادة التى يعمل بها وتحولت إلى تل من الركام والأحجار والصخور والرمال، وتعذر رفعه لأن المدفعية المصرية ظلت تنهال بقنابلها وصواريخها على الموقع لمدة ثلاثة أسابيع. وبرغم أن الضرب كان متقطعاً إلا أنه غير معالم الموقع وأصبح الحصول على أشلائه مثل الحصول على إبرة صدئة وسط جبل من القش. وكانت الأم فى انتظار عودة ابنها من الجبهة لكى يجرى لها عملية المياه الزرقاء بنفسه فى عينيها كما وعدها وأصر على ذلك.

كذلك يتحتم على هذا المظلى البائس أن يفسر عدم عودة إبن لأبيه الكهل. فقد كان هو الابن الوحيد الذى رحب بحماس أبيه للهجرة من بولندا إلى إسرائيل، أما اخوته فكانوا أصحاب مشروعات ناجحة فى وارسو ورفضوا هجرها لتحقيق فكرة غامضة غير مقنعة، بل آمنوا بأن نجاح اليهودى خارج اسرائيل أفضل من نجاحه داخلها إذ يمكن أن يكون نجاحاً لا فضل له فيه. ما الذى يمكن أن يفعله هذا الأب عندما يكتشف أنه فقد إبنه وأصبح وحيداً ؟! هل يقضى عمره بمفرده فى اسرائيل بعد أن ماتت زوجته أم يحزم أمتعته ويقفل راجعاً إلى وطنه الأول بولندا ؟! هل يحكى هذا المظلى كيف مات هذا الابن الذى خدعته أجهزة الإعلام الاسرائيلية عندما صورت التواجد فى سيناء على

أنه رحلة خلوية مثيرة وممتعة من نوع السفارى لأن المصريين فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ أصبحوا جثة هامدة لن تقوم لها قائمة مرة أخرى ؟! ولم يدرك أن حرب الاستنزاف سرعان ما جعلت من رحلة السفارى رحلة إلى الجحيم، وبلا عودة فى أحيان كثيرة. هل يحكى لهذا الأب كيف أن ثقة ابنه بما تبثه أجهزة الإعلام قد جعلته يستحم فى مياه قناة السويس كما لو كان يقضى إجازة ممتعة على شاطئ الريفييرا، فإذا برصاصة أحد القناصين المصريين المختبئين فوق سطح إحدى العمارات المتهدمة تصيبه فى رأسه، وينزل إلى المياه اثنان من زملائه فى محاولة لانقاذه فيلقى أحدهما مصيره، ويصاب الآخر فى كتفه فيعود إلى الضفة الغربية تاركاً زميليه للتيار الذى ابتلعهما حتى القاع. صحيح أن طائرة اسرائيلية قامت فى الحال ودكت العمارة التى صدرت عنها الطلقات، لكن قائدها لم يتأكد إذا كان قد رأى القناص المصرى عليها أم لا !! أغلب الظن أنه هبط منها كالشبح ليعاود قنصه من مكان آخر. أى أن الذى لم يمت بقنابل المدفعية الثقيلة وصواريخها، والذى لم يمت فى الهجمات الفدائية وكمائنها وحقول ألغامها، مات برصاص القناصة المصريين الذين انتشروا بطول الضفة الشرقية ومارسوا عملهم بحنكة يحسدهم عليها أعتى الرماة.

لم تكن هذه هى المشكلات الوحيدة التى يتحتم على هذا المظلى الاسرائيلى حلها فى أثناء إجازته فى تل أبيب. صحيح أنه عاد لزيارة أهله ولم يصبه أذى وسط الجحيم الذى عاش فيه، لكن هل يضمن أن يعود إليهم فى المرة التالية سليماً أو حياً ؟! إن نظرات الحيرة والقلق والخوف والاكتئاب فى عيون أسرته تقول بما لاتنطق به الألسنة. ومع ذلك فقد عبر أبوه عن رعبه مما يجرى بقوله إن عبد الناصر نجح فى أن يجعل الموت يدق على معظم أبواب إسرائيل، وكأنه يرد بهذا ما فعله ملاك الموت الذى مر على بيوت المصريين فى عهد موسى عليه السلام وقتل أبكارهم انتقاماً منهم لما فعلوه ببنى إسرائيل، وذلك ضمن الضربات العشر التى تلقاها المصريون كما ورد فى التوراة. لكن يبدو

أن ضربات عبد الناصر لانهاية لها ، فقد استمرت بطول ثلاث سنوات ولم تتوقف إلا بقبول إسرائيل ومصر مبادرة روجرز التى نصت على وقف اطلاق النار لمدة تسعين يوماً ، كان لابد أن يعاود عبد الناصر ضرباته بعدها لولا أن القدر لم يمهله ، وسقط فى ساحة المعركة كفارس لم يتخل أبداً عن سيفه .

لقد اكتشف هذا المظلى الإسرائيلى أن وجوده بين الأقارب والأصدقاء والأحباب فى أثناء زيارته لتل أبيب أصعب بكثير من وجوده فى الحفر والخنادق وتحت القصف المتجدد. تلك الحفر والخنادق التى يصعب عليه الإغفاء فيها بسبب الحشرات التى تعج بها ، ووحوش الصحراء التى يمكن أن تعقصه وتقضمه إذا تخلى عن يقظته ، أى أن النوم حرام عليه حتى فى اللحظات التى يتوقف فيها القصف المصرى . ثم يتحدث القادة الاسرائيليون عن النصر الأغر فى يونيو ١٩٦٧ ، وعن اسرائيل الكبرى التى قامت لحماية يهود العالم أجمع ، وعن ذراعها الطويلة القادرة على البطش بأية بقعة فى العالم العربى مهما كانت نائية ، ولم يخجل هؤلاء من مواصلة الابتسامات الزائفة اللزجة أمام آلات التصوير . يقول المقاتل الاسرائيلى فى تعليقه على هذه المهازل:

> **"على شاشة التليفزيون الفاشل عندنا ، بالضغط على زر أو بلمسة ساحرة ، يظهر أشخاص لم يريدوا السلام الحقيقى أبداً ، وذلك ليتكلموا إلى آخرين لن يكون بمقدورهم التوصل إلى مثل هذا السلام أبداً . ولذلك فالحوار الفعلى يدور حول الكراسى ووظائفهم ومناصبهم المريبة فقط . ونحن المراقبين الشباب الأبرياء ، لانعى تماماً أنه عندما يحين الوقت سيكون علينا أن نسقط بين تلك الكراسى .**

"أصبح التليفزيون المنوم المغناطيسى فى يد المؤسسة الحاكمة، ومكيدة الخداع الأثيرة عند "مكسرى العظام" الذين أصبحوا نجوم الصور فى كل مكان. ذلك أن التليفزيون، مثلى ومثلك، ملك خاص للحكومة، فى حين أن العالم الحر يمر الآن بثورة لفتح أبواب الحرية للكلام والتعبير. إنه عصر ماكلوهان لوسائل الاعلام، لكن وسائل الإعلام عندنا مازالت دمية فى يد الحزب الحاكم، وأجهزتها لاتزود بالمعلومات فحسب، وإنما بالخط الحزبى أساساً بحيث يصبح القناة الرئيسية التى تتسلل منها المعلومات المختلفة. وهكذا فى بلد يعيش على فوهة بركان، يروجون الشائعات علناً ورسمياً، بدلاً من الحديث عن كيفية الحفاظ على الأرواح. وتحظى أصغر وأتفه فضائح المافيا فى نيوجرسى، فى التليفزيون الأمريكى، بتغطية أوسع مما تحظى به مسألة استمرار بقائنا على وجه الأرض، فى وسائل إعلامنا. وما ينطبق على شاشة التليفزيون، ينطبق أيضاً على الراديو والصحافة، إذ يتحكم فيها جميعاً ما يطلقون عليه خط "الإعلام التربوى".

هكذا يتعرى الوجه الحقيقى القبيح لإسرائيل التى تحرص على أن تتجمل دائماً بالإطلال على العالم بصفتها واحة الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان اليهودى على وجه التحديد. والسؤال الذى يطرح نفسه بقوة هنا هو: ما الفرق بين التليفزيون السوفييتى بصفته بوقاً صريحاً ومباشراً للحزب الشيوعى الحاكم قبل انهيار الاتحاد السوفييتى وبين التليفزيون الإسرائيلى الذى يواصل نفس المهمة بحماس لايفتر وهمة لاتعرف الكلل، خاصة وأن إسرائيل لاتخشى على

الإطلاق أن تنهار مثل الاتحاد السوفييتى لأن الاحتكارات العالمية والمؤسسات الأخطبوطية والشركات ذات الجنسيات المتعددة تساندها بكل قوتها لأن المصلحة واحدة والهدف واحد. ونقول الاحتكارات والمؤسسات والشركات، ولانقول الحكومات والدول والشعوب لأن الأخيرة هى ظواهر وواجهات للحقائق الراسخة التى تنطوى عليها الأولى التى تمسك بكل الخيوط السياسية والعسكرية والاقتصادية والاعلامية بأصابعها السرية والعلنية على حد السواء.

أى أن الإعلام الاسرائيلى طبقاً لشهادة المظلى الإسرائيلى هو تعتيم وتضليل وتشتيت وليس توعية وتنويراً وتربية. وليضرب ماكلوهان رائد علم الإعلام الحديث رأسه فى الحائط، ذلك أن إسرائيل المدللة لها تقاليدها وقوانينها الإعلامية الخاصة بها والتى لايجرؤ أحد على اتهامها بالشمولية مثل الاتحاد السوفييتى البائس. واذا كان العالم الحر يمر بثورة إعلامية تسعى لفتح كل أبواب حرية التعبير بكل أشكاله، فإن إسرائيل التى تعتبر نفسها قرة عين العالم الحر لاتفتح أبوابها لهذه التيارات الثورية، لأن الجميع يلتمسون لها الأعذار فى كل ما تفعله بل ويباركون كل خطوة تتخذها فى أى اتجاه، مهما كان هذا الاتجاه مضاداً للشعارات المثالية التى يتشدقون بها. تماماً مثلما يلطم الطفل أباه على وجهه أو يسبه، فإذ بالأب يضحك سعيداً بابنه الذى شب عن الطوق وأتى أفعال الكبار. فهل هناك ديمقراطية أكثر زيفاً وخداعاً من ذلك ؟!

وشهادة ترومبو هذه هى شهادة أديب وصحفى إسرائيلى حاول أن يمارس الديمقراطية كما يعلنون عنها دائماً، فاكتشف أن الظاهر شئ وأن الباطن شئ مختلف تماماً. يحكى لنا عن المعاناة التى مر بها ككاتب تليفزيونى وصاحب عمود سياسى فى صحيفة مسائية فيقول عن نشاطه فى السنتين الأخيرتين من حرب الاستنزاف:

"شاركت، على الأقل فى خمسة مسلسلات هزلية، كلها حذفت ومنعت بعد الحلقة الأولى، بناء على تعليمات واضحة من العصابة الحاكمة،

وكصاحب عمود سياسى فى صحيفة مسائية، جوبهت آلاف المرات بالرقابة المتعسفة، سواء من جانب رؤساء التحرير أو من جمهور القراء المتقدمين فى السن، والنغمة التى كانت الرقابة تكررها دائماً: "ليس هذا هو الوقت الملائم للكلام فى أمور كهذه. مازالت الجروح مفتوحة. انتظر قليلاً".

فقد اعتاد الساسة الإسرائيليون التغنى بالجراح المندملة منذ حرب ١٩٤٨، فلا خوف أو حساسية من هذه الجراح بل هى أوسمة شرف على صدر التاريخ الإسرائيلى الذى يحاولون اصطناعه بشتى الوسائل، أما الجراح التى فتحتها حرب الاستنزاف ومازالت مفتوحة فلا داعى للاقتراب منها حتى لاتتلوث. وبذلك لم تعد الجراح القديمة نوعاً من الدروس المستفادة من عبر الماضى الذى عاد ليكرر نفسه فى الجراح الجديدة. ولذلك يستعير ترومبو عنوان قصيدة "اغتالوا تاريخى" للشاعر البريطانى دايلان توماس كى يعبر به عما يفعله مكسرو العظام عن طريق وسائل إعلامهم ومؤسساتهم التربوية. فقد انهمكوا كلهم فى أثناء حرب الاستنزاف فى التغنى بالأمجاد الإسرائيلية فى ملحق السبت فى كل الصحف، وفى الكتابة النقدية المسهبة عن المسرحيات المعروضة، وتناول الأطايب فى المطاعم الفاخرة، والتباهى بارتفاع مستوى المعيشة، وتحليل أسباب تعاطى الشباب للمخدرات فى التجمعات المعروفة باسم العالم السفلى، وعقد الندوات والمناقشات التى دارت حول من هو اليهودى ؟ كل هذا من أجل التشويش على حقائق حرب الاستنزاف، حتى لاتتحول فيما بعد إلى قوة ضاغطة تجبر القيادة الاسرائيلية على الانسحاب من سيناء، فتتلاشى ثمار حرب يونيو ١٩٦٧ فى لحظات.

هذه هى شهادة الصحفى والأديب الإسرائيلى دالتون ترومبو التى نشرها فى يناير ١٩٧٠ ثم أعيد نشرها فى كتاب "التقصير" أو "المحدال" الذى

صدر فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى الفصل السابع عشر كنوع من التدليل على أن التعامى والتغاضى والتجاهل لآثار حرب الاستنزاف أدى باسرائيل إلى خوض حرب أكتوبر، ولو استمع ساسة اسرائيل إلى صوت الحقائق الذى حاول المفكرون والأدباء والصحفيون أن يصلوا به إلى أسماعهم، لوفروا على أنفسهم جولة جديدة فى مسلسل إزهاق الأرواح. لكن صرخات أمثال دالتون ترومبو ذهبت أدراج الرياح لأن المؤسسة العسكرية والسياسية الحاكمة لم تصدق عبد الناصر وهو يعلنها مراراً أن ما أخذ بالقوة لابد وأن يسترد بالقوة. كانت تظن أنه شعار للاستهلاك المحلى وتهدئة الخواطر المصرية والعربية. فقد أنساها غرور ما بعد يونيو ١٩٦٧ أن عبد الناصر كان دائماً عند كلمته وعند وعده لشعبه، وهو وعد سرعان ما تحول إلى حرب ضروس استمرت ثلاث سنوات، أثبتت بالفعل أن ما حدث فى يونيو ١٩٦٧ كان استثناء لن يتكرر بأى معيار، وأن مصر لم تفقد أبداً زمام المبادرة، حتى فى أشد الظروف قسوة، وهى ميزان المنطقة كلها ومركز ثقلها مهما حاول الآخرون الادعاء بغير ذلك.

(٢) يهونتان جيفن

يهونتان جيفن كاتب صحفى، صاحب عمود ساخر دائم فى صحيفة "معاريف"، وهو شاعر ثائر ضد كل مظاهر الزيف والخداع والمراوغة. وكان قد درس الأدب الإنجليزى في جامعة كيمبردج، ونشر أربعة دواوين شعرية، وكان واحداً من الكتاب السبعة الذين ألفوا كتاب "التقصير" أو "المحدال" الذى صدر فى أعقاب حرب أكتوبر كنوع من النقد الذاتى لكل الأخطاء التى وقعت فيها القيادةالاسرائيلية فى أثناء حرب الاستنزاف، وظلت تتفاقم حتى عام ١٩٧٣.

ويهونتان جيفن يعزف نفس النغمة السابقة، نغمة الفجوة الرهيبة، فى اتساعها وعمقها، بين مايدور فى ساحة الحرب وما يدور فى مجتمع تل أبيب. فيصف لنا فى الفصل السابع عشر من كتاب "التقصير" تل أبيب من خلال نافذة طائرة النقل التى أقلت المظلى الملتحى الذى شاهدها من أعلى وهى غارقة فى الأضواء الكاذبة لآلاف اللافتات، تعلن عن أطيب المآكل، وعن الفنادق المريحة، وعن الأفلام السينمائية فى عشرين ركناً من المدينة الكبيرة، وفجأة، بينما الطائرة ترخى عجلاتها استعداداً للهبوط على المدرج، يبدو الضوء كاذباً أضعافاً مضاعفة. ضوء عنيف يبهر العيون:

> **"ويعرف الجندى أنه لامجال له للبكاء فى هذا المهرجان. وتمر به لحظة يتمنى فيها أن تطفأ الأنوار، ويصلى لأن تعيد الطائرة عجلاتها إلى بطنها وتعود على أعقابها إلى ساحة الحرب. فهناك يستطيع أن يجلس على كثبان الرمل، بين أصدقائه، الأموات منهم والأحياء، وكذلك بين أولئك الذين لم يحددوا موقفهم بعد، ويبكى ماشاء له البكاء بين أكوام الحديد المحروق. ولكن الطائرة هبطت بضجيج محركاتها، وقذفت من جوفها فصائل المظليين إلى الرصيف العسكرى البارد قبالة المدينة**

الكبيرة اللاهية. ويثير الدهشة أنهم لايسارعون إلى بيوتهم كما نظن، ولايهرولون إلى عائلاتهم، وإلى اللافتات البراقة، وإلي كل ماكانوا يقاتلون من أجله.

"لا، ياسيدى، هم لايسارعون، ففى حركة بطيئة، مثقلين بحقائبهم فوق ظهورهم، وبخطوات موزونة، يقتربون من المدينة الكبيرة الغارقة فى الأضواء، يمدون أذرعتهم الطويلة ويودعون بعضهم بحرارة. وفجأة تتلاقى نظرات لاترغب فى الفراق، والقصص التى بقيت فى تلك العيون لانستطيع أن نرويها لأحد، أو حتى لزوجاتنا، أو لأنفسنا. أما الذى مات فينا فلا نستطيع اقتسامه مع أى مخلوق حى".

لقد بذل القادة السياسيون والخبراء الاعلاميون أقصى ما فى جهدهم للتخفيف من وطأة حرب الاستنزاف على الجبهة الداخلية فى اسرائيل، بحيث لم تتعد ذكر أسماء بعض القتلى أو الجرحى أو المفقودين فى نشرات الأخبار، وبعض التحليلات والتعليقات العابرة التى تنتهى عادة بالتصميم على تكسير عظام المصريين. كانت وطأة حرب الاستنزاف تسرى فى المجتمع الاسرائيلى على المستوى الشخصى أو الأسرى خاصة عند الأسر التى فقدت ابناً أو أكثر لها، والأسر القريبة منها. وانتقال هذا الأثر المدمر إلى المستوى الإعلامى العام لايعنى سوى سكب الكحول على النار، ومع ذلك كانت أجهزة الإعلام بين الحين والآخر، تتظاهر بأنها تقوم بتغطية شاملة للموقف على الجبهة المصرية، وترسم صورة وردية لجنود إسرائيل الذين يقومون بدور سادة الموقف بلا منازع، وأن عبد الناصر فى مأزق لن يخرج منه إلا بالاستلام الكامل لكل مطالب إسرائيل!!! أما متى يستسلم عبد الناصر فلا تستطيع

إسرائيل أن تحدد ميعاداً لذلك!! ولذلك ظلت تتعلل لمدة ثلاث سنوات بعناد عبد الناصر، وكأن الأمر مجرد عناد شخصي وليس حسابات استراتيجية تضع في اعتبارها كل الاحتمالات المحلية والاقليمية والعالمية!! كما أنه من المعروف أن العناد، سواء أكان شخصياً أم قومياً، لابد أن يستمر بناء على قوى دفع سياسية وعسكرية واقتصادية وقومية، وبالتالي ليس هناك عناد من أجل العناد، وإلا إنتهى الأمر كله في شهور معدودة. والدليل على ذلك أن المظلى الإسرائيلي الذى خبر بنفسه كل حقائق الرعب الكابوسى على الجبهة الشرقية، يريد أن يواجه مجتمعه بها حتى يصحح مسيرته. ذلك أن عبد الناصر لايتحرك من منطلق شخصي أبداً بل هو يمثل الشعب المصرى خاصة والشعب العربى عامة، اللذين يستمد منهما قوة الدفع التى جعلت حرب الاستنزاف تستمر كل هذه المدة. إن لعبة الفصل بين عبد الناصر وبين الشعب المصري والعربى، لعبة مملة وسخيفة، وتدخل في باب الأماني والأوهام الإسرائيلية. إن أداء الجنود والفدائيين المصريين فى الجبهة، يوضح ويؤكد أن روح عبد الناصر قد تقمصت كلاً منهم، وإلا ماتفسير النيران المتأججة، والقنابل المتفجرة، والصواريخ المنهالة علي الجنود الإسرائيليين في تحصيناتهم، وكذلك هجمات الفدائيين المصريين السابحين تحت سطح القناة وصولاً إلى الضفة الغربية ليسدوا منافذ التحصينات الإسرائيلية بالقنابل، ويزرعوا الممرات بالألغام، ويعدوا الكمائن المميتة في ظلام الليالي التى غاب فيها القمر؟! ولذلك يضيف المظلى الإسرائيلى قوله:

> **"أريد أن أعمل شيئاً. أتخذ موقفاً. رأيت بالأمس صحفياً مفعماً بالسرور، يسير ببزته العسكرية فى منحدر من الطريق. لم يغادر تل أبيب طوال حرب الاستنزاف. وهو يعتقد أننا انتصرنا، أما الذين يقاتلون، حتى فى أكثر الحروب مجداً وزهواً، فهم دائماً خاسرون. ولكن، هناك دائماً من يلحس**

الصحون، ويسير بخيلاء المنتصر بين الجالسين حداداً، وتعود المياه إلى مجاريها ".

ثم يعرى يهونتان جيفن الزيف العسكرى الاسرائيلى بقوله إن الجنرالات يتجاهلون حقائق الموقف تماماً، وسرعان مايحل موسم الانتخابات، وتبرز على الساحة الحسناوات الفاتنات "وقبضايات" العالم السفلى الذين يعرفون كيف يهيئون الساحة السياسية للجنرالات القادمين، كأن حرب الاستنزاف المشتعلةبضراوة، لم تغير من الأمر شيئاً. فكل هم الجنرالات أن يشغلوا كراسى السلطة بأردافهم القديمة التى لاتزال صالحة للاستعمال. أما الحرب فيتساءل المظلى الاسرائيلى:

"والحرب؟ لربما يفعلون بها كما فعلوا بجميع الجروح القديمة، يغلقون عليها فى ملفات أرشيف جروحنا القديمة الملتهبة".

فهم دائماً يعاهدون جنودهم ومواطنيهم بأنها ستكون آخر الحروب. ولايعرف أحد من أين أتوا بهذه الثقة، وحرب الاستنزاف نفسها لاتريد أن تنتهى!! وحتى إذا توقفت فلابد أن تتوقف لفترة وجيزة طالما أن إسرائيل تحتل الأرض المصرية. فلم يحدث من قبل أن أعلن عبد الناصر عن مبدأ ثم تراجع عنه. يكفى أنه تحدى أكبر امبراطوريتين: البريطانية والفرنسية، وأمم قناة السويس فى عام ١٩٥٦ وهو لم يتعد الثامنة والثلاثين من عمره، ولم يتراجع قيد أنملة برغم العدوان الثلاثى الذى شاركت فيه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وانتصر فى النهاية بفوزه بقناة السويس خالصة لمصر، ووضعه نهاية للعصر الامبريالى وبداية عصر تحرير الشعوب. فهل يعقل بعد كل هذا التاريخ الحافل الذى أعاد رسم خريطة العالم المعاصر، أن يتغاضى عبد الناصر عن منظر التحصينات الإسرائيلية على قناة السويس؟! إن تجاهل القادة الإسرائيليين لمثل هذه الحقائق الراسخة هو من قبيل خداع النفوس، والضحك على العقول، واستمرار الخسائر الفادحة، التى تحاول إسرائيل التخفيف منها بشتى الطرق والوسائل.

فقد كان - ولايزال - قسم الإعلام التابع للجيش الإسرائيلى والناطق باسمه خاضعين لجهاز المخابرات العسكرية التى تخضع لها الرقابة العسكرية أيضاً، مما جعل وظيفة هذا الجهاز هى حجب المعلومات أكثر من التزويد بها. وبالتالى أصبح المسئولون عن جهاز الأمن حساسين أكثر فأكثر لكل كلمة نقد أو تصحيح أو حتى توضيح. والجنرالات الذين استاءوا من كلمة أو كلمتين نشرتا عنهم، قطعوا كل اتصال مع المراسلين العسكريين. بل إن الناطق العسكرى ومساعديه فرضوا سيطرتهم على كل ما ينشر فى الصحف عن الجيش. ولم تكتف سلطات الجيش بذلك. ففى فترة ولاية رؤساء الأركان الثلاثة: رابين، وبارليف، وأليعازر بصفة خاصة، طبق ماعرف بلغة الصحافة باسم: "دبرو"، ويعنى أنه نظراً إلى أن كل الصحفيين، وفى مقدمتهم المراسلون العسكريون، يحتاجون إلى موافقة خاصة من الناطق العسكرى الإسرائيلى لإجراء أية مقابلة مع مسئول عسكرى، أو للحصول علي معلومات عسكرية، فإنه من الحق المطلق للناطق أن يحذف من التحقيق الصحفى مالايستريح إليه قبل نشره. ولم يكن الهدف من ذلك الكتابات التى تخل بالأمن، إذ أن الرقابة العسكرية هى المسئولة عنه، بل الهدف هو إلزام الصحفيين رسمياً بتسليم التحقيق لقراءته قبل إرساله إلى المطبعة. وقد نجحت هذه الطريقة نجاحاً كاملاً بخضوع الصحافة تماماً لهذا الإلزام برغم تشدقها بحريتها فى الممارسة الديمقراطية.

وكانت النتيجة أن صورة الوضع العسكرى برزت فى أجهزة الإعلام كما يريدها الجنرالات تماماً. فقد كان المراسل العسكرى الذى يريد أن يعد تحقيقاً، يحتاج إلى لقاء أو معلومات، ملتزماً بتقديم طلب خطى لابد أن يصدق عليه مكتب الناطق العسكرى. ويتم بحث مجموعة الطلبات مرة كل أسبوع، ويقوم بهذا البحث قسم عسكرى يعرف باسم "مجموعة النشر"، ويختار من الطلبات مايريده من الموضوعات بناء على استشارة رئيس هيئة الأركان نفسه أو أحد كبار الضباط فى بعض الأحيان. والموضوع الذى لايستسيغه رئيس

الأركان أو أحد أفراد طاقمه، يحظر نشره. ومن هنا كانت الفجوة بل والتناقض الواضح بين مايدور فى ساحة الحرب وماتبثه أجهزة الإعلام الاسرائيلية. ولو كانت حرب الاستنزاف بالبساطة التي حاولوا تصويرها بها، لما حرص جنرالات إسرائيل على طمس معالمها بقدر الإمكان حتى لاتسرى بآثارها السلبية في قلب المجتمع الإسرائيلى الغارق فى الأضواء والاحتفالات حتى أذنيه.

وقد أثبتت حرب الاستنزاف أن التقارير الكاذبة وإخفاء الحقائق المؤلمة التى اشتهرت بها الدول العربية وجيوشها فى حرب يونيو ١٩٦٧، لم تكن قاصرة على العرب وحدهم، بل اضطرت أجهزة الأعلام الإسرائيلية نتيجة للاستنزاف المستمر أن تقتصر على ابلاغ الجمهور بالنجاحات والانجازات فقط، فقد فرض عليها منع سياسى وعسكرى مشدد من أن تذيع أخبار الفشل والأخطاء والضربات الموجعة التى تلحقها القوات المصرية بالجنود الإسرائيليين، فى حين أن إعلام عبد الناصر كان يقلل من حجم انجازاته وضرباته حتى يستعيد المصداقية التى فقدها فى يونيو ١٩٦٧، وفى الوقت نفسه كان يضخم من حجم الضربات الإسرائيلية، مثلما حدث فى أبى زعبل وبحر البقر، حتى يعرى الوجه العدوانى الحقيقى لإسرائيل أمام العالم أجمع.

وكان لخداع النفس الذى مارسته القيادات الإسرائيلية انعكاسات خطيرة على الانضباط والحفاظ على القيم والتقاليد العسكرية فى الجيش الإسرائيلى. ولذلك حذر الجنرال حاييم هيرتزوج فى مقالين، من انخفاض الانضباط فى الجيش الإسرائيلى - كما برز بعد حرب الأيام الستة بصفة خاصة - نتيجة للتناقض بين الصورة الإعلامية الكاذبة وبين الكابوس الجاثم على كاهل الجنود الإسرائيليين فى جبهة قناة السويس. وكان عدد القتلى فى حوادث الطرق الممتدة بين المعسكرات والتحصينات والمواقع مؤشراً واضحاً على ذلك التسيب، فى مواجهة صلابة مصرية لاتعرف التردد أو التراجع. ولذلك عين الجنرال شموئيل جونين رئيساً لقسم التدريب حتى يعمل على تخفيض عدد الحوادث فى

الطرق وفى التدريبات، إذ يكفيهم عدد القتلى والجرحى والمصابين نتيجة للقصف المصرى الذى لايتوقف.

كان هذا السلوك مرتبطاً بالجو العام فى اسرائيل، التى اعتراها الفساد فى فترة حرب الاستنزاف ولم تكن بالمثالية التى حاولت أن تصور بها نفسها. اكتشف الكثيرون من رجال الأعمال البارعين منجماً من الذهب فى وزارة الدفاع بالذات. فقد خصصت هذه الوزارة مليارات الليرات من أجل التحصينات على الجبهات، خاصة الجبهة الجنوبية، ومن أجل إقامة مبان للجيش الإسرائيلى فى الأراضى المحتلة. لقد سارع أصحاب العلاقات المؤثرة، وأصحاب الحس التجارى المتطور، إلى تنفيذ مشاريع تبلغ تكاليفها عشرات الملايين من الليرات. أى أنه إذا كانت حرب يونيو ١٩٦٧ هى حرب الضباط والجنود، فإن حرب الاستنزاف كانت حرب رجال الأعمال والمقاولين الذين جنوا الجزء الأكبر من ثرواتهم، من بناء خط التحصينات على جبهة قناة السويس، وفى غور الأردن، وفى مرتفعات الجولان. وأصبح من كان مقاولاً بسيطاً، بين ليلة وضحاها، من أصحاب الملايين الذين أثروا على حساب أرواح القتلى وجروح المصابين وأعضائهم المبتورة.

ولم ينس المقاولون من أثرياء حرب الاستنزاف، إشراك كبار الضباط فى حياة الترف التى يعيشونها. ورحب هؤلاء الضباط دائماً بكل هذه الاقتراحات والعروض المغرية. لم يكن جميع المقاولين الذين عملوا فى بناء التحصينات، مستقيمين وجديرين بالثقة. كان من بينهم من غش فى مواد البناء، ومن دفع رشوة للحصول على مقاولات، وأشرك آخرون بعض الضباط والجنود لسرقة أموال الجمهور. وبالطبع كان عبد الناصر يقظاً لأبعاد هذه المعادلة التى نتجت عن حرب الاستنزاف والتى وضعت الاسترخاء الاسرائيلى لدرجة التسيب فى مواجهة الانضباط المصرى لدرجة الصرامة، بحيث يمكن تحديد من الرابح ومن الخاسر فى هذا الصراع على المدى الطويل، خاصة عندما تدق ساعة تحرير الأرض تحريراً شاملاً فى حرب

حاسمة. وسوف يسجل التاريخ للفريق أول محمد فوزى قائد حرب الاستنزاف أنه كان مثلاً أعلى للانضباط بل والقسوة على الذات بحيث أحال أوامر زعيمه عبد الناصر وتعليماته وتوجيهاته إلى واقع ملموس فى الجبهة المصرية، كان بمثابة الكابوس الذى جسم على كاهل الجيش الاسرائيلى المرابط على الضفة الشرقية لقناة السويس.

ولم تجرؤ أجهزة الإعلام الاسرائيلية على تعرية مظاهر الفساد والتسيب التى استشرت بين الضباط، خاصة الكبار منهم، لأن الإعلام كان تحت رحمة رئيس الأركان وبطانته المتمثلة في الناطق العسكرى وماعرف باسم "مجموعة النشر". بل إن الأمر لم يتوقف عند حدود عدم التعرض إعلامياً لهذه المظاهر، ذلك لأن الصحافة العالمية استخدمت صيغة أفعل التفضيل فى وصفها لعمليات الجيش الاسرائيلى وبطولاته. وتردد وصف انتصاره فى الحرب على أنه من أعظم الانتصارات الحربية فى التاريخ الحديث. وهكذا بدأت العملية التى تجتاح كل جيش منتصر تقريباً، وهى عملية التلوث، خاصة إذا كان انتصاراً فى غفلة من الزمن لأن عدوه هزم نفسه بنفسه وشتت قواته فى انسحاب غريب أمام الجيش الاسرائيلى الذى لم يحاربه بالفعل وبالتالى لم ينتصر بالمقياس الذى عرفته الجيوش الأخرى عبر التاريخ. وربما سجل التاريخ العسكرى أن حرب يونيو ١٩٦٧ كانت الحرب الوحيدة التى انتهت قبل أن تبدأ.

كان كبار قادة الجيش الإسرائيلى على رأس من إنهال عليهم هذا المديح والتبجيل العام، وقد تنقلوا من موكب نصر إلى آخر، ومن مأدبة نصر إلى أخرى. وتم تخليدهم جميعاً بمئات ألبومات النصر التى غمرت العالم بأسره. وهو ماخدر الأحاسيس لدى جزء كبير من قادة الجيش الاسرائيلى. فالضابط المجهول أفاق ذات صباح وقد أصبح مشهوراً ومحبوباً من الشعب. وفجأة غدا ضباط كبار، كانوا حتى ذلك الحين معروفين لقواتهم فقط، موضع حديث وتقدير الشعب كله. لقد عرف كل طفل إسرائيل أسماءهم وتاريخهم

ومـآثـرهـم، وظـهـروا فـى المـقـابـلات الـصـحـفـيـة، وفـى الإذاعـة والتليفزيون. واتضح لهم فجأة أن اشتغالهم بالحياة العسكرية كان صفقة مربحة بكل المقاييس. ولذلك كان من الطبيعى أن تفسدهم الشهرة الكبيرة التى حظوا بها سواء فى إسرائيل أو فى العالم بأسره. كان الجنود يقتلون ويصابون على ضفة قناة السويس، والجنرالات فى سباق محموم على الشهرة وسط كل مظاهر التشجيع من الصحافة والناشرين على مختلف أنواعهم. فقد أدمنوا مشاهدة صورهم فى الصحف والتليفزيون والألبومات، وحرصوا على الظهور أمام الجمهور فى أية مناسبة عامة. فقد أصبحوا نجوماً اجتماعية لامعة فى أى حدث اجتماعى: حفل كوكتيل، عرض افتتاحى، افتتاح معرض صور. وأصبحوا زبائن دائمين فى المطاعم الفخمة، بل وصل التمادى بأحد الجنرالات إلى حد الاشتراك فى الافتتاح العلنى لإحدى وكالات منتجات التجميل. فأين هى العبقرية العسكرية التى تتشدق بها أجهزة الإعلام الإسرائيلية والعالمية مراراً وتكراراً؟!

إن بناء التحصينات التى عرفت بخط بارليف، كان تجسيداً لرعب الجنرالات من العبور المصرى القادم، وفى الوقت نفسه رغبة فى الحصول على العمولات والإكراميات والرشاوى التى سيقدمها إليهم رجال الأعمال والمقاولون الذين أصبحوا من أصحاب الملايين لتنفيذهم هذا المشروع الفاشل عسكرياً بكل المقاييس. من هنا كان اتهام الجنرال (احتياط) متنياهو بيليد لضباط الأركان العامة بـ "فقدان الاستقامة المهنية"، لأنهم تنازلوا فى قضية خط بارليف عن مواقفهم المبدئية وآرائهم العسكرية، وخضعوا لأهوائهم ورغباتهم ومصالحهم الشخصية التى سايرت مصالح الساسة. ولذلك وجه بيليد اتهامه بكلمات بالغة العنف قائلاً:

"لم يكن المسئولون عن أمن إسرائيل أمناء على مهمتهم، وأخضعوا الاعتبارات المهنية لمشيئة سياسية من أجل دعم توجهات سياسية لاقت هوى فى

نفوسهم، ليس بصفتهم عسكريين في الجيش، وإنما كمواطنين لهم مصالح شخصية. لقد تصرفوا مثل الطبيب الذى يصف الدواء للمريض دواءً لايلائم المرض وانما يرضى رغبة الأقارب. بكلمات أخرى لم يتصرفوا باستقامة مهنية. وبدلاً من أن يدركوا أن واجبهم الأسمى تجاه الشعب هو أن يضعوا تحت تصرفه قدراتهم المهنية ومعرفتهم التى اكتسبوها بأمواله، لجأوا إلى الغش، وبدلاً من أن يشرحوا للمسئولين السياسيين أن الالتصاق بخط المياه (قناة السويس) يستوجب حلاً يكلف ليس فقط ملياراو مليارى ليرة، بل ربما عشرة مليارات أو عشرين، وافقوا على حل لايشكل حلاً، ولايستطيع أن يصمد فى الامتحان، ولن تتاح له مثل هذه الفرصة".

وعلل الجنرال بليد اتهامه الذى لاسابقة له، ولم يحدث أن وجه مثيله أبداً فى إسرائيل إلى القيادة العليا للجيش بأنه:

"كان يمكن بقيمة المبلغ الذى أنفق على إقامة خط التحصينات شراء حوالى ١٥٠٠ دبابة أخرى مع تجهيزاتها، أو ١٠٠ طائرة أخرى من أفضل نوع، أو ذخيرة تكفى لعدة أيام إضافية للجيش كله. وربما أمكن أيضاً، بالمبلغ نفسه، إقامة شريط سميك من الألغام ذى كثافة كبيرة على طول خط قناة السويس، مع سياجات من الأسلاك الشائكة على كلا الجانبين، وتوفر له التغطية بطاريات المدفعية من بعيد. إن أى وجه من وجوه الانفاق هذه كان

يمكن أن يساهم فى أمن الدولة مساهمة أمنية قيمة لاتزيد ثمنها على المليار تقريباً. لكن هذا الثمن كان انفاقاً ضائعاً على خط بارليف الذى دفعته هيئة الأركان العامة ببساطة لأنها فقدت استقامتها المهنية".

لكن التساؤل الذى حاول جنرالات إسرائيل تجاهله هو: لماذا سمح عبدالناصر ببناء خط بارليف برغم أن مدفعيته الثقيلة كانت كفيلة بدك كل المحاولات المبدئية لإنشائه؟! لقد لاحظ الجنرالات أن المدفعية المصرية كانت تصمت فى فترات معينة وكأنها تمنح الفرصة تلو الفرصة لإقامته!! وأحياناً كانت القنابل والصواريخ تنهال على المواقع التى لايجرى فيها بناء التحصينات!! كان سلوكاً محيراً من عبد الناصر وإن فسره بعض جنرالات إسرائيل على أنه تخبط أو ضعف أو تردد نتيجة لعقد الخوف التى ترسبت عند المصريين منذ يونيو ١٩٦٧!! لكن عبد الناصر - كعادته - كان يملك من الدهاء والتخطيط الاستراتيجى وبعد النظر ماعجز جنرالات إسرائيل عن ادراكه. ذلك أنه لو منع إسرائيل من اقامة خط بارليف، فربما أخذت بمقترحات الجنرال متنياهو بيليد التى تطالب بشراء حوالى ١٥٠٠ دبابة، أو ١٠٠ طائرة من أحسن طراز، أو تلغيم خط قناة السويس، واقامة سياجات الأسلاك الشائكة، والتغطية البعيدة لبطاريات المدفعية، وكل هذه المقترحات لو نفذت لفقدت المدفعية الثقيلة والصواريخ المصرية قدرتها على اصطياد جنود إسرائيل التى تحرص بكل طاقتها على الحفاظ على أرواحهم لأن مشكلتها الأولية تتمثل فى عددهم الضئيل إذا ماقورنوا بالجيش المصرى الجرار. ولذلك أتاح عبد الناصر لإسرائيل فرصة بناء خط بارليف حتى يتحول إلى مصيدة موت لجنودها. وبالفعل اعترف كل من موشيه دايان وآريل شارون فى مذكراتهما بالجحيم الذى كانت المدفعية المصرية تصبه على خط بارليف، والقتلى والجرحى الذين كانوا يسقطون تحت ركامه وحطامه. ولم يكتب دايان

وشارون ذلك بناء على تقارير وردت إليهما وإنما عن خبرة عملية فى أثناء زياراتهما المتعددة لخط بارليف. يصف شارون فى مذكراته وضع خط بارليف فى ربيع ١٩٧٠ فيقول:

"فى ربيع ١٩٧٠، شاركت فى اجتماع عقد فى بير جفجافة حيث تتجمع معسكرات عديدة وقاعدتنا الأساسية فى سيناء. كان بارليف حاضراً وعدة ضباط من الأركان، بالإضافة إلى موشيه دايان. وكالعادة أهملوا كل براهينى. ثم أجرينا دورة تفقد فى أحد التحصينات المواجه لبور توفيق والمعروف باسم "الرصيف".

"كانت المدفعية الثقيلة المصرية تقذف علينا حممها فى تلك الأيام، ولكى لانظهر حضورنا بسحابات من الغبار، اضطررنا إلى ترك عربة القيادة على بعد مسافة من الحصن والسير على الأقدام. وكان دايان قد كسرت ساقه قبل عدة أيام وهو يقفز من طائرة هيلوكوبتر، فكان يستند فى سيره إلى الجفصين ويمشى بصعوبة زائدة. وكان "الرصيف"، مثل باقى التحصينات، محجوباً عن النظر بحائط سميك يلتف حول فناء داخلى، وفى اللحظة عينها عند اجتيازنا السور بدأت القذائف المصرية تنهمر كالمطر.

" عندما صفرت القذائف الأولى فوق رؤوسنا، تهافت الجميع للاحتماء فى الغرف المحصنة تحت الأرض، باستثناء دايان الذى انبطح على الأرض لعجزه عن الجرى. وبصفتى قائد القطاع لم أكن

أستطيع أن أسمح لنفسى أن أترك وزير الدفاع نفسه على هذا الوضع دون أية حماية. لذلك انبطحت إلى جواره. وفى هذا الوضع بالذات، عندما كانت القذائف تنفجر حولنا، تلفت دايان نحوى وقال لى :"إريك، هذا النظام خطأ فادح. عليك أن تقنعهم بتغيير مفهومه من أساسه". بادلته نظرته وأجبت:"موشيه، منذ ساعة تقريباً شهدت بنفسك كيف كان يجرى النقاش حول الموضوع. أنت تعلم أننى لن أستطيع اقناعهم. مُرْهُمْ فيطيعون"، فأجاب دايان:"لا، أنا أعرف أنه سينتهى بك الأمر إلى اقناعهم. يكفيك ألا تتراجع عن موقفك".

هكذا أثبت دايان عجزه عن الصمود فى وجه التيار المتحمس لنظام خط بارليف الدفاعى برغم أنه وزير الدفاع ونجم حرب يونيو الساطع. فالقيادة السياسية الإسرائيلية، بدلاً من أن تضع ثقتها فى سرعة الحركة التى يتمتع بها الجيش الإسرائيلى وقدرته الهجومية، أقدمت - على حد قول بيليد - في الحدود البعيدة على القيام بما رفضت تنفيذه دائماً وأبداً فى الحدود القريبة. فقد تخندقت القوات الإسرائيلية وتحصنت وحددت خطوط دفاع ثابتة مناقضة لعقيدة الجيش الذى اعتمد فى كل خطواته على الحركة والمناورة والكر والفر والمراوغة، لتحقيق أهدافه العاجلة بصفة خاصة. ونتج عن ذلك أن القوات الإسرائيلية أصبحت رهينة المدفعية المصرية الثقيلة التى نجحت فى دك تحصينات كثيرة فى خط بارليف بما تحويه من جنود وهو مايؤكد عجز هذا الخط عن صد عبور القوات المصرية عندما تحين ساعة التحرير الكامل لسيناء، فى حين أن الدبابات والطائرات وحقول الألغام والأسلاك الشائكة وبطاريات المدفعية البعيدة يمكن أن تعوق تقدم القوات المصرية إلى خط المضايق. كما نتج

عن إقامة خط بارليف تبديد مذهل خطر فى حد ذاته على أمن إسرائيل، ذلك أنه جعل إسرائيل معتمدة اقتصادياً على الغير، ووضع عقبات كثيرة فى طريق حل المشاكل الاجتماعية الملحة والخطرة. ولاشك أن عبد الناصر كان راضياً عن كل هذه التحولات الجارية فى البنية الإسرائيلية، لأنها كانت بمثابة خصم من القوة الاسرائيلية، سواء القوة العسكرية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية. يكفى أن الهجوم كان دائماً العقيدة العسكرية المفضلة عند الجيش الاسرائيلى. فالدبابة - مثلاً - هى فى حركة مستمرة، وتستطيع أن تقدم القوة النارية المطلوبة للحماية، فضلاً عن أنها تحافظ على الروح الهجومية للجيش. ويمكن أيضاً استخدام الدبابة لأغراض كثيرة، فى حين لايمكن استخدام خط بارليف إلا لغرض واحد فقط: الدفاع عن منطقة معينة محدودة، من خلال جذب النار إليه. وبذلك انتقل زمام المبادرة فى ساحة الحرب إلى يد عبد الناصر. ولعل فى هذا التحليل إجابة مقنعة عن السؤال الذى حير الكثيرين وهو: لماذا سمح عبد الناصر للإسرائيليين باقامة خط بارليف برغم قدرته على تدمير كل الإجراءات المبدئية لإقامته ؟

لكن هذا السؤال يطرح سؤالاً آخر بنفس الالحاح وهو: هل كان القادة الاسرائيليون من الغباء بحيث فقدوا القدرة على إدراك سلبيات خط بارليف الذى ندد به الجنرال بيليد علناً ؟! نجد الإجابة عن هذا السؤال واضحة ومحددة فى الفصل السادس من كتاب "التقصير":

عندما ثارت ضرورة اتخاذ قرار بشأن النمط الدفاعى الواجب اختياره، رجحت الاعتبارات السياسية التى تتمنى أن تحيل الوضع المؤقت إلى واقع دائم. كان التوجه السياسى الحاسم قد تمثل فى طموح اسرائيل للتشبث بحافة قناة السويس لخلق حقائق ملموسة ومحسوسة ونهائية، تؤكد لمصر والعالم أجمع أن قناة السويس لايمكن أن تفتح للملاحة الحرة إلا عندما تستطيع اسرائيل استخدام هذا الممر المائى الدولى. واصطدمت المحاولات التى قام بها المصريون من جانبهم لفتح القناة للملاحة، دون تعاون مع اسرائيل ودون

ضمان مرور حر أيضاً للسفن التى ترفع العلم الاسرائيلى، بمقاومة قوات الجيش الاسرائيلى المتمركزة على خط الماء.

"من أجل تحقيق هذا الهدف، كان لابد لقوات الجيش الاسرائيلى من التمركز على خط المياه فعلاً. فى البداية حفرت القوات خنادق على طول القناة فى مواقع متناثرة غير مدروسة. وعندما بدأ المصريون حرب الاستنزاف، وراحوا يقصفون الضفة الشرقية بأعداد ضخمة من المدافع، عمقت الخنادق وأقيمت تحصينات، أخذت تتطور وأصبح الغرض منها حماية الجنود المتمركزين على طول القناة. كانت هذه حرباً ثابتة تعيد إلى الذهن، فى جوانب عديدة، "حرب الخنادق" خلال الحرب العالمية الأولى. ومنذ اللحظة التى اتضح فيها دون أى ريب أن المصريين لاينوون ايقاف حرب الاستنزاف الثابتة، أصبح واجباً على هيئة أركان الجيش اتخاذ قرار بشأن السياسة العسكرية الواجب اتباعها. هل يجب التأهب لشن حرب شاملة، أو تنظيم الجيش بما يلائم هذه الحرب، التى فرض المصريون طابعها على اسرائيل، لقد ظلت المبادرة كلها، طوال الوقت، بيد المصريين، ورسمت هيئة الأركان الاسرائيلية خطواتها بناء على الخطوات التى أملاها المصريون، دون أن تدخل فى الحسبان احتمال أن تجر حرب الاستنزاف فى أعقابها حرباً من نوع آخر.

"لايصح القول أن هيئة الأركان العامة

الاسرائيلية قد تجاهلت تماماً فى حساباتها هذا الاحتمال. ولكن حرب الاستنزاف عقدت المفاهيم وشوشتها. وبدلاً من الاستعداد لحرب شاملة، وجهت معظم الجهود والموارد لحل المشاكل التى أثارتها حرب الاستنزاف. وهكذا لم تجد اسرائيل مناصاً من المرابطة على خط المياه، توقعاً لحرب من أجل الهيبة السياسية، نسى فى سياقها العديد من المبادئ التى نهضت عليها النظريات الأمنية للجيش حتى تلك الفترة. وخلال سير حرب الاستنزاف، التى راح ضحيتها مئات من جنود الجيش المرابطين على حافة القناة، برزت الضرورة الملحة لتوفير حماية ملائمة للمقاتلين هناك. وهكذا ولدت خطة إقامة التحصينات".

واستطاع عبد الناصر بحنكته وبراعته أن يلتقط كل ورقة جديدة تقدمها القيادة الاسرائيلية لجنودها كى يلعبها لصالحه. فتحول خط بارليف من حصن للأمان إلى مصيدة للموت، ولم تصمد تحصينات عديدة فيه لضربات المدفعية المصرية الثقيلة، أو لاختراقات الفدائيين المصريين العابرين للقناة لزرع الألغام واقامة الكمائن. أما الجنود الذين وجدوا فى أنفسهم الشجاعة الكافية للتجول على التباب أو التلال المحيطة بالتحصينات، فكان رصاص القناصة المصريين من الضفة الغربية كفيلاً بهم. وهكذا قلب عبد الناصر الوضع الاسرائيلى الجديد رأساً على عقب، فبدلاً من أن يحمى خط بارليف بتحصيناته الجنود المرابطين، أصبح من المحتم عليهم حمايته واعادة بناء ما تهدم منه بصفة شبه يومية تقريباً. وانتقلت استراتيجية الجيش الاسرائيلى من الهجوم إلى الدفاع الذى فرضه عبد الناصر عليه استعداداً ليوم التحرير الشامل.

الفصل الرابع

شهادة أدبية

(١) شهادة شعرية

لاشك أن الأدب الناضج هو تجسيد لوجدان البشر بكل ما ينتابه من آلام ومخاوف واحباطات، وبكل ما يطمح إليه من آمال وأمان وتطلعات. وقد يكون العمل الأدبى غير مباشرفى تعبيره عن هذه التوجهات والرغبات، بل ويجب أن يكون كذلك، وإلا أصبحت القصيدة أو القصة نوعاً من المقالة الصحفية أو التحليل السياسى أو التفسير الفكرى، لكن العمل الأدبى يظل فى النهاية نتاج بيئة إنسانية محددة وظروف تاريخية معينة، وإن كان يسعى دائماً للخروج من المرحلة التاريخية الراهنة إلى رحاب الإنسانية الشاملة، أى من المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى الثوابت التى تبلور النفس البشرية فى صميمها، وتجسد موقفها تجاه هذه المتغيرات، خاصة إذا كان من المحتم اتخاذ مثل هذا الموقف فى مراحل التحول المصيرية أو فى أوقات المحن التى لايمكن تجنبها أو الهرب منها.

ولن نتعرض للأدب الاسرائيلى فى هذا المجال من الناحية الفنية والجمالية، فلسنا فى معرض النقد الأدبى، وإن كنا سنستعين بعلم الاجتماع الأدبى وعلم النفس الأدبى فى تحليل وطأة الضغوط الكابوسية التى مارستها حرب الاستنزاف على الجنود والجماهير الإسرائيلية كنوع من الشهادة الأدبية، سواء أكانت شعرية أم قصصية، تضاف إلى الشهادات العسكرية والسياسية والاجتماعية التى تضمنتها الفصول السابقة من هذه الدراسة. وبذلك نضيف البعد الإنسانى الذى يمثل موقف الإنسان اليهودى أو الصهيونى أو الاسرائيلى فى مواجهة هذه الحرب، بعيداً عن تيارات السياسة أو توجهات الاستراتيجية العسكرية أو الضغوط الاجتماعية أو الحملات الاعلامية. وموجز القول أن هذا الفصل هو تحليل لحرب الاستنزاف كمضمون فكرى وثقافى وإنسانى، شكل ملمحاً أو عنصراً جوهرياً فى الأعمال الأدبية الاسرائيلية، خاصة تلك التى كتبت فى فترة حرب الاستنزاف فيما بين عامى ١٩٦٧ و ١٩٧٠. ولعل من أهم المراجع فى هذا الصدد كتاب الدكتور ابراهيم البحراوى "أضواء على الأدب الصهيونى المعاصر" الذى صدر عن سلسلة

"كتاب الهلال" فى يونيو ١٩٧٢، والذى قام فيه بترجمة النصوص الشعرية والقصصية عن الأصل العبرى مباشرة مع نظرات نقدية وتحليلية ثاقبة سواء إلى الشكل الفنى أو المضمون الفكرى.

وهناك ظاهرة جديرة بالانتباه والتحليل، ذلك أن العروض المسرحية التى قدمت على مسارح تل أبيب وغيرها من المدن الاسرائيلية، فى فترة حرب الاستنزاف، لم تمس هذه الظاهرة فى الصميم، بل تجاوزتها إلى العروض الفكاهية والراقصة والموسيقية لتأكيد نشوة النصر التى أعقبت حرب يونيو ١٩٦٧. فليست هناك ثمة ضرورة لتجسيد مآسى حرب الاستنزاف على خشبة المسرح، والكل لاهون بمباهج الحياة التى أوحت إليهم بأن حرب يونيو هى آخر الحروب بعد أن أصبحت اسرائيل سيدة المنطقة بلا منازع. فلن يحتمل أحد الاستماع إلى أى نوع من البكاء أو العويل أو الأنين أو الشجب فى المهرجانات والأفراح التى غرق فيها المجتمع المرفه حتى أذنيه.

لكن الحقيقة أن أعضاء "مجموعة النشر" التابعة لمكتب رئيس الأركان، كانت بالمرصاد لكل ما ينشر عن حرب الاستنزاف سواء فى الصحف أو التليفزيون أو الراديو أو حتى المسرح بصفته جهازاً جماهيرياً يمكن أن يمارس التأثير الإعلامى الذى تمارسه الأجهزة الأخرى. فلا يعقل أن يقوم قادة إسرائيل العسكريين والسياسيين بتجميل أنفسهم أمام الكاميرات والميكروفونات حتى أصبحوا نجوم المجتمع الساطعة هنا وهناك، ثم يأتى الكتاب المسرحيون ليقوموا بتعرية الجانب المعتم والكابوس الجاثم على كاهل الجيش الإسرائيلى فى جبهة قناة السويس، مما قد يؤدى إلى خلق رأى عام مضاد لما يجرى فى المجتمع الاسرائيلى. ولذلك منعت "مجموعة النشر" بتوجيهات من رئيس أركان الجيش الاسرائيلى أى تعرية جادة لحقائق حرب الاستنزاف، بحيث لم يتجاوز الأمر السخرية من السلبيات العربية خاصة فى مسارح المنوعات، مع تمجيد الشخصية الاسرائيلية التى أثبتت وجودها أمام العالم أجمع فى حرب يونيو ١٩٦٧ !!

وقد يتساءل البعض عن السر فى أصداء حرب الاستنزاف ونتائجها التى ترددت فى القصائد والقصص الاسرائيلية فى حين أنها تلاشت تقريباً فى المسرحيات التى عرضت فى تلك الفترة ؟! والإجابة عن هذا التساؤل ذات شقين: الشق الأول يتمثل فى حرص "مجموعة النشر" على الحفاظ على الواجهة الديمقراطية البراقة بقدر الإمكان بحيث تبدو السلطات الاسرائيلية مرحبة تماماً بتعدد الآراء مهما كانت رافضة للتيار العام السائد. والشق الآخر يتمثل فى ضعف تأثير القصيدة أو القصة على الجمهور تأثيراً إعلامياً، لأنها فى النهاية قراءة فردية لايمكن أن تكون فى قوة وثقل التجمعات البشرية التى تحدث فى المسارح، وإن كانت تقوم بدور التنفيس المحسوب لأية شحنات محتملة للرأى العام. وهى تقع بصفة عامة تحت بند الخيال الأدبى الذى لايمكن التعامل معه كحقائق راسخة أو وقائع مادية ملموسة.

وكانت المسرحية الاسرائيلية الوحيدة التى تجاسرت بتعرية حقائق حرب الاستنزاف ووقائعها هى مسرحية "ملكة الحمام" التى هاجمت بأسلوب مباشر توجهات القيادة الاسرائيلية وأهدافها الحقيقية خلف اصرارها على اشعال نار العدوان والكراهية مع العرب. وبطلة المسرحية فتاة اسرائيلية، كانت تعيش حياة طبيعية وهادئة، توجتها بقصة حب ملأت حياتها بهجة وسعادة. لكن القدر كان لها بالمرصاد. والقدر هنا هو الحكومة الاسرائيلية التى شنت حرب يونيو ١٩٦٧ على جيرانها العرب، فالتحق حبيب الفتاة - مثل أى شاب اسرائيلى آخر - بالقوات المهاجمة. وانتظرت الفتاة حبيبها على أحر من الجمر وهى تدعو له بسلامة العودة من جبهة قتال فرضت على الاسرائيليين فجأة وبدون مبرر، ومن حرب لاتهم الفتاة فى كثير أو قليل. وتصل المأساة قمتها عندما يبلغون الفتاة أن حبيبها مات فى الحرب، ولن يعود إليها ثانية.

كان من الطبيعى أن تفقد بطلة المسرحية التحفظ الاسرائيلى التقليدى تجاه السلطة والقيادة، وتشرع فى صب لعناتها على رأس الحكومة الإسرائيلية التى لاتعرف سوى أطماع التوسع الذى لن يجلب لها سوى الكوارث، وتطالبها

بالتخلى عن هذه الأطماع الفارغة والمأسوية، وعدم ممارسة الضغوط الكريهة على الناس العاديين الذين من حقهم أن يعيشوا فى سلام مثل أى شعب آخر. هذا إذا كانت الحكومة تنظر إلى الناس فى اسرائيل على أنه شعب وليسوا جنوداً مرتزقة عليهم خوض الحروب المتتابعة كلما تأمر القيادة بذلك.

وقد أرادت السلطات الاسرائيلية أن تجعل من هذه المسرحية عبرة لمن يعتبر، فتعرضت لها بالهجوم والمطاردة والمصادرة، لدرجة أن موشيه دايان شخصياً، وصفها بأنها مسرحية حقيرة وقذرة، فهى تلطخ بالأوحال، الأمجاد التاريخية المبهرة التى حققتها اسرائيل فى حرب يونيو، وتشيع فى نفوس الاسرائيليين مشاعر الاحباط واليأس والضياع والعزلة والتشتت والقلق والخوف والاكتئاب وغير ذلك من السلبيات التى يحاربها جهاز صياغة العقل الاسرائيلى الذى يتحتم عليه أن لايتخلى عن منهجه العدوانى والهجومى الرافض لقيم السلام والتفاهم مع العرب. كانت كل ما تمنته بطلة مسرحية "ملكة الحمّام" أن تعيش فى سلام مع حبيبها، لكنها أمنية تتنافى تماماً مع أمانى السلطة الاسرائيلية التى تصر على العيش فى حرب متجددة مع جيرانها. أى أنها سلطة لاتجلب سوى الموت للواقعين تحت وطأتها. فالدولة الخالصة العنصر هى الهدف الصهيونى الأول، وأى تعايش عنصر آخر إلى جانب العنصر اليهودى لابد أن يضرب المشروع الصهيونى فى الصميم. ولذلك يجب أن تظل اسرائيل فى حالة استنفار عسكرى دائم ومتجدد حتى لايصيبها السلام باسترخاء قد يصيبها بالتفتت والتآكل والذوبان فى أمواج المحيط العربى الذى يحاصرها من كل جانب باستثناء ساحل البحر.

أين إذاً واحة الديمقراطية التى تتشدق بها اسرائيل التى لم تحتمل حكومتها مجرد عرض مسرحى مثل "ملكة الحمّام" فسحقته بالمصادرة الفورية حتى لايفكر كاتب مسرحى آخر فى السير على هذا النهج ؟! وبالفعل حققت السلطة الإسرائيلية هدفها، ولم يعد المسرح الاسرائيلى يشكل لها صداعاً فيما يتصل بموضوع حرب الاستنزاف الدائرة على الجبهة الجنوبية، خاصة بعد

أن تأكد الجنرالات من أنها حرب لاتبدو لها نهاية قريبة، وليس فى صالحهم أن تضرب العروض المسرحية على الأوتار المؤلمة للإسرائيليين. ويكفى السماح بمعالجة هذا الموضوع الشائك والحرج للشعراء وكتاب القصة حفاظاً على المظهر الديمقراطى لاسرائيل، واطمئناناً لعدم التأثير الجمعى الفعال لبضعة قصائد أو قصص تنشر هنا أو هناك، وفتحاً لثقب ينطلق منه البخار المكبوت الذى يتجمع بعد كل ضربة من ضربات الصواريخ والمدفعية المصرية الثقيلة وكذلك الطائرات فى السنة الأخيرة من حرب الاستنزاف.

ولعل مقال الناقد الاسرائيلى آهود بن عزر الذى نشر فى الملحق الأدبى لصحيفة "عل همشمار" فى ٣ يوليو ١٩٧٠، والذى لخصه ابراهيم البحراوى فى كتابه "أضواء على الأدب الصهيونى المعاصر" يوضح لنا التوجهات الأساسية التى تتحكم فى الأدب الاسرائيلى:

١ـ هناك تدخل فى حرية التعبير الأدبى الاسرائيلى اذا جنح إلى مخالفة جوهر أهداف السلطة الاسرائيلية. هذا على عكس ما هو شائع عن حرية التعبير المطلقة فى اسرائيل، وهو أمر يمثل الجانب العنيف من عملية شاملة تستهدف تجنيد الأدباء الاسرائيليين ـ بالإغراءات والضغوط ـ من أجل الدعوة إلى مفاهيم السياسة الاسرائيلية ومرتكزات الفكر الصهيونى العامة.

٢ ـ هناك أدب فى اسرائيل يواكب أهداف السلطة، ويدق لها الطبول، وهو أداة فى يدها لتحريك الجماهير اليهودية... وهو أدب يحمل سمات الصبغة والافتعال.

٣ ـ هناك صراع قائم فى اسرائيل بين تيارات الفكر العلمانى الصهيونى والفكر الدينى الصهيونى أيضاً.. ولا فارق بالنسبة لنا فى غلبة أحدهما، فكلاهما صهيونى مجند بوعى أو دون وعى لخدمة أهداف استعمارية على أرضنا.

٤ ـ هناك فى اسرائيل دعوة مفتعلة لما يسمى بالقومية اليهودية وارتباطها

بالأرض العربية المحتلة قبل ١٩٦٧ وبعدها، وهي دعوة تنعكس على الانتاج الأدبى كذلك.

إن قطاعاً كبيراً من الانتاج الأدبى فى اسرائيل بعد ١٩٦٧، تنطبق عليه صفة أدب الدعوة أو ما يسمى لدى النقاد الاسرائيليين، بالأدب المجند والأدب الوليد الفورى للحظة والحدث. والأدب الاسرائيلى بصفة عامة، أدب ملتزم بدعوى معينة تمثل لب العقيدة الصهيونية، وهى دعوة الشعب اليهودى الواحد المتميز الذى ينبغى له أن يتجمع فيما يسمى بأرضه التاريخية. وكانت حرب يونيو ١٩٦٧ ترسيخاً عملياً لهذه الدعوى التى غلفتها قشرة سميكة من الصلافة والغرور، تحاول أن تخفى قاع المجتمع الاسرائيلى الذى يفور بصراعات فكرية وتخبطات سيكلوجية، ويمور بتوترات عصبية لامهرب منها بحكم التركيبة المتنافرة لهذا المجتمع. ولذلك يخطئ من يظن أن الأثر الوحيد الذى أشاعته حرب يونيو بين جنبات المجتمع الاسرائيلى هو أثر النشوة بالانتصار العسكرى والاسترخاء النفسى على المستويين العام والفردى.

وتتجلى هذه الترديات والصراعات والتخبطات والتوترات فى الأشعار التى كتبت فى فترة حرب الاستنزاف التى قضت على أى إحساس بالأمن والاستقرار عند الاسرائيليين الذين ظنوا أن حرب ١٩٦٧ قد أنعمت أخيراً بهما عليهم، ولذلك انطفأت أنوار المستقبل مع اشتعال الانفجارات المدوية والنيران المتأججة فى الجبهة الجنوبية. ويدلل ابراهيم البحراوى على هذا التوجه بقصيدة الشاعرة الاسرائيلية حدفاه هركافى "ثلاث أغان" التى نشرتها فى الملحق الأدبى فى جريدة "عل همشمار" فى ١٣ ديسمبر ١٩٦٨ والتى تعبر فيها بأسلوب رمزى يوحى بمدى الضياع والرعب الكابوسى الذى يجتاح المجتمع الاسرائيلى وذلك نتيجة للاستنزاف المستمر فى أرواح الجنود والمجندين:

صمت ووجل

شارع متوهج.. قاس

كغريب.. عن الوعى

خرج..

قمر صريع يلامس.. جسدى..

فجأة.. يتحول إلى معول

معلق.. مشحوذ.. يبرق.

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

الطفل فى حضنى.. مقرور

مبلل..

"دعيه فى الزاوية".. "غطيه بالرداء"

وصدى يبتعله صدى.

"لكن".. "هيا".. "انتظرى".

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

رباه ! رباه !

الظلمة إلى هذا.. المدى

موحشة..

أفق أسود.. كلوحة على جبينى

كم علىّ أن أسقط ؟

كم علىّ أن أتراجع ؟

فما أكثر الكواكب ضدى.

وآنذاك.. يبدأ الإنسان

خروجاً.. عن وعيه.

الآخرون . . عنه يعلمون

غير أنهم . . فى أى مرة

معه . .

لايكونون . .

وبعد ذلك . . من هنالك

طردونى . .

هكذا . . بأقصى حقدهم

أبعدونى . .

وأنا . . لم يعد لى

ما أرجع إليه .

لامدينة . .

أبعث فيها حياتى . .

ولا رقعة أرض . .

لدفنى فى مماتى . .

لقد نشرت هذه القصيدة فى ديسمبر ١٩٦٨ ، أى بعد حرب يونيو ١٩٦٧ بعام ونصف . أى أنه من المفروض أن مكاسب اسرائيل من الحرب كانت قد ترسخت وأصبحت أمراً واقعاً كما حاول قادة اسرائيل السياسيون والعسكريون تأكيد هذا التوجه أو الإحساس فى وجدان الاسرائيليين ، لكن مضمون هذه القصيدة يوحى بعكس ذلك تماماً ، مما يدل على حجم وثقل الضغط العسكرى الذى مارسته مصر حتى تاريخ نشر هذه القصيدة ، والذى

رسخ كل أحاسيس الضياع والتشتت والشتات مرة أخرى فى نفوس الاسرائيليين فى أعقاب زهوة النصر التى تلاشت كسحابة صيف.

إن صور القصيدة ورموزها مستوحاة من جو الكوابيس الذى صنعته حرب الاستنزاف بتزايد أعداد الجنود القتلى على ضفة القناة. فليس هناك ثمة أمل - سواء فى المستقبل القريب أو البعيد - للخروج أو الاستيقاظ من هذا الكابوس لأن الجنود والفدائيين المصريين لايتوقفون عن الضرب والهجوم والتسلل وعمل الكمائن وزرع الألغام بحيث أصبح كل جندى اسرائيلى على ضفة القناة "لم يعد له ما يرجع إليه، لا مدينة يبعث فيها حياته، ولا رقعة أرض لدفنه فى مماته".

وسواء أكانت الشاعرة تستنهض الإسرائيليين للاسراع بالامساك بزمام المبادرة مرة أخرى، أو أنها تعبر عن تجربة مأسوية لاتستطيع الفكاك منها، فإنها فى كلتا الحالتين تصور وتجسد كابوس حرب الاستنزاف الجاثم على كاهل الإسرائيليين الذين تلاشى إحساسهم بالأمن فى واقعهم اليومى، أو بالأمل فى مستقبلهم المنظور على أقل تقدير. فقد أصبح الأمل قمراً صريعاً تحت وطأة الحرب التى تحولت إلى معول معلق على رقابهم بحده المشحوذ الذى يعشى برقه الأبصار التى لم تعد قادرة على رؤية جوهر الأشياء وحقائق الأمور. والطفل الذى يرمز إلى الأمل فى المستقبل لم يعد ذلك الكيان الجميل المثير للبهجة والسعادة بضحكاته البريئة، خاصة عندما يشعر بالدفء والحنان فى حضن أمه، بل أصبح مخلوقاً مرتعشاً مبتلاً فاقداً للعلاقة الحميمة مع أمه المضطربة. وربما كان الرمز موحياً بالعلاقة بين المواطن الاسرائيلى واسرائيل التى يعتبرها أمه بكل المقاييس. لكن حرب الاستنزاف أثبتت أنها على استعداد لأن تلقى به فى الزاوية بعد أن عجزت عن حمايته فى حين أنها تتحرق شوقاً كى تغطيه بالرداء لتصد عنه عواصف سيناء وأهوالها. فهى عاجزة عن اتخاذ موقف محدد ينهض على اليقين لأن الأمر كله مأسوى للغاية، عبارة عن صدى يبتلعه صدى.

ولاترى حدفاه هركافى فى مستقبل اسرائيل سوى ظلمة حالكة، موحشة، بعيدة المدى. والمسافة بين جبين الشاعرة والأفق الذى تحاول أن تتلمسه سواد في سواد. وعتمة الجبين هى الواجهة المرئية لعتمة العقل الذى تخترقه التساؤلات كأسنان سهام محماة بالنار:

كم عليّ أن أسقط ؟

كم عليّ أن أتراجع ؟

فمن الطبيعى أن يسقط الإنسان فى الظلمة التى لايرى فيها وقع قدميه، ومن الطبيعى أيضاً أن يفكر فى التراجع لعله يكتشف طريقاً فيه بصيص من الأمل، لكن اسرائيل أنشئت خصيصاً للإفلات من الماضى المظلم والأسود نحو آفاق مستقبل مضيئ، فإذ بالمستقبل أشد حلكة من الماضى، لدرجة أن الإسرائيلى يشعر أن الكون كله - ممثلاً فى الكواكب - أصبح ضده. كان حصاره فى الماضى حصاراً اجتماعياً وأصبح الآن حصاراً كونياً كما لو كانت تعاسة الاسرائيلى تعاسة أبدية، وأن حرب الاستنزاف هذه هى حلقة فى سلسلة طويلة من التعاسة تمتد عبر الأجيال والقرون. وإذا كانت التعاسة هى القاسم المشترك فى تاريخ بنى اسرائيل، فلابد أن يكون العيب فيهم وليس فى الشعوب التى كتب عليها أن تتعامل معهم فى مختلف الأزمنة والأمكنة، إذ لايعقل أن تكون كل هذه الشعوب المتعددة والمتنوعة على خطأ، وبنو اسرائيل على صواب. لقد اعتادوا أن يجلبوا التعاسة لأنفسهم ثم يصرخون ويولولون كى تسرى التعاسة إلى الآخرين فيستريحون ولو على سبيل التعويض السلبى، لكنهم فى كل الأحوال يدفعون الثمن غالياً وإن كانوا يوهمون أنفسهم بأنه قدر مكتوب عليهم ولافكاك منه. والمأساة أن الآخرين يعلمون هذا الخطأ المأسوى فى تكوين بنى اسرائيل، ويحاولون مراراً وتكراراً أن ينبهونهم إليه، لكن آذانهم المسدودة هى الرد الوحيد. بل إن كثيراً من الإسرائيليين أنفسهم يدركون هذا الخطأ المأسوى، لكنهم مثل أبطال وشخصيات التراجيديا الاغريقية لايملكون له دفعاً، ويكررونه فى تسلسل زمنى لايتوقف. وتصل المأساة قمتها

عندما تضطر الشعوب المبتلاه بهم إلى مشاركتهم فى دفع هذا الثمن. صحيح أن حرب الاستنزاف كانت وبالاً على اسرائيل لكن مصر فى الوقت نفسه دفعت الثمن غالياً من بنيتها الأساسية ومستقبل أجيالها ورصيدها المادى والاقتصادى.

أما فى قصيدة "ضيق عابر" للشاعرة الاسرائيلية شوشانه بيلوس التى نشرت فى صحيفة "معاريف" فى ١٨ أكتوبر ١٩٦٨، فنرى مأساة حرب الاستنزاف متجسدة فى تجربة الطفل الاسرائيلى وهو يواجه تداعيات ما فعله الآباء والأجداد الذين ظنوا أنهم بشن الحرب فإنهم يمهدون المستقبل الآمن المشرق لهذا الطفل، فى حين أنهم يتعامون أو يتجاهلون القانون الأبدى الذى يؤكد أن الجزاء من جنس العمل. فالحرب لاتؤدى إلا إلى الحرب وكل مايترتب عليها، خاصة إذا كانت حرباً تحاول أن تفرض الأمر الواقع والاستسلام على الطرف الآخر، ذلك أن الفرق بين السلام والاستسلام هو الفرق بين السلام والحرب. وكان من الطبيعى أن تؤدى حرب يونيو إلى حرب الاستنزاف التى كانت التمهيد الطبيعى والضرورى لحرب أكتوبر ١٩٧٣ بعد ذلك.

يحلل ابراهيم البحراوى قصيدة "ضيق عابر" فيوضح أن الشاعرة تبدأ قصيدتها متباكية على حال طفل يندب موتاه، ويصلى شاكياً الظلم المحيق بالطفولة الإسرائيلية نتيجة فقد ذويها نتيجة لحرب الاستنزاف التى لاتبدو لها نهاية. تقول الشاعرة شوشانه بيلوس:

صلاة طفل فى الحقل

تنادى على الميت

تحكى عن الظلم من تحت

شجرة قديمة..

فى مكان ليس من ينتبه فيه..

لمرأى قدمين صغيرتين

تزلان منزلقتين فى جنبة الحقل

بين ظلال متراكمة محتشدة

وأصوات تبعث الخراب

فى مدارك رقيقة.

والملاحظة المثيرة للضحك والسخرية المريرة هنا أن الشاعرة تنعى حظ الطفل الاسرائيلى الذى فقد ذويه نتيجة الظلم الذى يمارسه المصريون عليهم بمواصلة حرب الاستنزاف. وهى نفس النغمة القديمة التى اعتادها بنو اسرائيل والتى تؤكد وتوحى لهم دائماً أنهم يحاربون من أجل الحق والعدل والكرامة فى حين أن الآخرين لايعرفون سوى الباطل والظلم والمهانة. وكأن احتلال اسرائيل لسيناء هو الحق والعدل الكرامة، أما السعى الحثيث والدءوب لتحريرها من غزوهم واحتلالهم فهو الباطل والظلم والمهانة. ولاشك أن قلب الحقائق رأساً على عقب كان دائماً السمة المميزة للفكر الاسرائيلى الذى يفسر كل القيم والحقائق الإنسانية من منظوره الذاتى الضيق، وعلى الآخرين أن يتقبلوا هذا المنظور كما لو كان الحقيقة الوحيدة التى لا حقيقة غيرها.

والملاحظة الأخرى المثيرة للدهشة والاستغراب أن الشاعرة تصور الاسرائيليين على أنهم مجموعة بشرية فى منتهى الرقة والعذوبة والحساسية، وهذا فى نظرها خطأ مأسوى لأنهم يعيشون فى غابة يحكمها الأسود والتماسيح والثعابين والعقارب، ولذلك يتحتم عليهم أن يتحرروا من الأحاسيس الرقيقة والمشاعر الرهيفة كى يمارسوا نفس أنواع البطش والتنكيل والردع والذبح والتقتيل !! وكأنهم لم يمارسوها طوال تاريخهم المكتوب. فهم رواد فى هذا المجال، وهى اللغة الوحيدة التى يتكلمون بها ويفهمونها كلما أتيحت لهم الفرصة. وكان عبد الناصر مدركاً لهذا الجانب الجوهرى فى الشخصية الاسرائيلية، فلم يتعامل معهم بالمفاوضات أو الشعارات أو المطالبة بالحقوق

المسلوبة، بل تعامل معهم باللغة الوحيدة التى يستوعبونها وهى: الحرب. وهو الذى أعلن فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ أن ما أخذ بالقوة لابد وأن يسترد بالقوة، وأن لا صوت يعلو على صوت المعركة. فإذا كان الأطفال اليهود يرضعون العنف والقسوة والإحساس الميت مع لبان أمهاتهم، فليعلموا أن هناك أسوداً آخرين فى الغابة بحيث تصبح عمليات الافتراس متبادلة وقائمة على قدم وساق. ولعل هذا يفسر لنا الوصف الشهير الذى أطلقه عليهم السيد المسيح عندما قال "إنهم شعب غليظ الرقبة". تتغنى الشاعرة بالأحاسيس الميتة فتقول:

إن الأب الذى يورث ابنته الحساسية

يعلم أن الوقت غير مناسب على الاطلاق

للأحزان.. والكلمات المتكسرة المكسورة.

إن جنون اليأس وخيبة الأمل.

يغرس فى نفسها أحلاماً حول واقع ما..

فى أن كانت لها غاية ومصير.

من العار أن يضيعا..

بينما الآن مشاهد الطبيعة ميتة.

ومرئيات سقيمة ذابلة.

تترى متلاحقة فى نفسها.

أى أنه طبقاً للتقاليد الإسرائيلية، لايملك الأطفال الحق فى أن يعيشوا طفولتهم بكل براءتها ونقائها، بل عليهم أن يتعلموا منذ البداية المبكرة كيف يواجهون اليأس وخيبة الأمل، حتى لايضيعوا غايتهم ومصيرهم. خاصة وأن الشواهد المعاصرة تؤكد هذه الدلالات، وفى مقدمتها حرب الاستنزاف التى أكدت للإسرائيليين أن استمرار احتلالهم لسيناء لن يقدم لهم سوى مشاهد الطبيعة الميتة، والمرئيات السقيمة الذابلة التى تترى متلاحقة دون توقف.

ولذلك فالفرح الذى تحلم به اسرائيل لن تحصل عليه طالما أنها لاتحيد عن طريق أخطائها المأسوية. تقول الشاعرة:

سلام أيها الفرح السليب..
شمس تجاهد أن تضيئ..
عبر زجاج قاتم اللون..
مترب..
طفولة أمدها قصير..
أيام عديدة ملآى..
بانكسار القلب..
بالمرارة..
تحل بالأحزان..
أما قليل الكمال.. قليل التمام..
فمخالف لهذه الأيام..
فهو كالضياء الذى فجأة..
فوق الربى..
ينطوى ويتبدد..
قبل حلول الظلام.

ولولا حرب الاستنزاف لما سادت هذه التغمة الحزينة والكئيبة والمأسوية الشعر الاسرائيلى. فقد تمنى شعراء اسرائيل أن يتغنوا بأمجاد حرب يونيو، وبدأ بعضهم بنغمة متفائلة زاخرة بالثقة والفخر، لكن سرعان ما أعلن عبد الناصر حرب الاستنزاف التى أحدثت صدمة مذهلة بالنسبة للقادة الاسرائيليين

جميعاً لأن عبد الناصر لم يكن لديه طائرات أو دبابات بعد أن فقد جيشه أكثر من ٩٠٪ من أسلحته فى انسحابه العشوائى و المتسرع صوب قناة السويس. واعتقدوا أنه لن تقوم لـه قائمة قبل عشر سنوات على الأقل تكون اسرائيل فيها قد سبقته بمراحل عديدة فى كل نوعيات التسليح. هذا لو امتد به العمر لأنهم كانوا يعلمون أنه يعانى من مضاعفات مرض السكر الذى يمكن أن يتحالف مع الضغوط النفسية والعصبية الرهيبة التى يمر بها نتيجة للهزيمة المنكرة التى لم يكن يتصور أن يمر بها فى يوم من الأيام. ومع ذلك تجلت إرادته الحديدية، وفكرة الثاقب، وحساباته الاستراتيجية، ورؤيته المستقبلية فى وقت قياسى. وبرغم كل السلبيات والاحباطات توهجت الروح المصرية وشرعت فى الحال فى تطبيق المبدأ الذى أعلنه عبد الناصر: "ما أخذ بالقوة لابد وأن يسترد بالقوة". وسرعان ما عادت النغمة الحزينة والباكية والمأسوية إلى الشعر الاسرائيلى لتؤكد أن العقد النفسية الكامنة فى أعماق الشخصية الإسرائيلية عبر الأجيال والقرون، كانت ولاتزال هى الدافع والمحرك لفكرها وسلوكها، خاصة وأنها حافلة بالمتناقضات التى تتراوح بين أخطر درجات جنون العظمة وأسوأ أنواع عقد النقص والاضطهاد والانسحاق. فقد تجلى جنون العظمة فى أعقاب حرب يونيو لكنه سرعان ما ترك مكانه لعقد النقص والاضطهاد بمجرد ورود أنباء القتلى والمصابين فى جبهة قناة السويس. وقد كان هذا هو هدف عبد الناصر على وجه التحديد حتى تعود اسرائيل إلى حجمها الطبيعى بعيداً عن ذاتها التى تضخمت بلا مضمون حقيقى، وحتى يدرك العالم الخارجى أن موازين القوى فى منطقة الشرق الأوسط لم تختل بالشكل الذى ادعته اسرائيل. ولعل قصيدة "إحساس" للشاعر الاسرائيلى يصحق بولاق، التى نشرت فى الملحق الأدبى لصحيفة "معاريف" بتاريخ ١٠ أكتوبر ١٩٦٩، خير دليل على وطأة حرب الاستنزاف على اسرائيل. فهو يقول فى افتتاحية القصيدة:

أحس بروائح قوية.

روائح جثث.

روائح لحم.. في ضرام عنيف

من الزيت يحترق.

يشوى على صدر مقلاة من

الرمال...

يزيد من رقعتها ومداها..

مصدر عال.

ليست هناك صورة شعرية أكثر مباشرة وبشاعة من هذه الصورة التى لو كتبها شاعر مصرى أو عربى لما صدقه أحد، وأتهم بالمبالغة. فقد شهد بهذه القصيدة شاهد من أهلها. وعلى الرغم من تشدق اليهود الأزلى والأبدى بشريعة موسى عليه السلام، فإن الفكر المضاد لهذه الشريعة يتفشى بينهم خاصة فى أوساط المثقفين. فالشاعر هنا يقصد بالمصدر العالى مصدراً سماوياً يعمل على زيادة مدى رقعة المقلاة الرملية التى يتم على صدرها شى جنود اسرائيل فى الزيت المحترق، وهذا مفهوم لاديني يناقض تماماً مفهوم شعب الله المختار، إذ كيف يقوم الله بشى شعبه المختار وينحاز بذلك إلى صف أعدائه؟! ويعتقد ابراهيم البحراوى أن الشاعر يهدف إلى ترسيب إحساس فى وعى القارئ الاسرائيلى بأن مسئولية الخلاص مسئولية ملقاة على عاتقه وحده، حتى ضد القوى السماوية. وهذا يعنى أن القضية ليست دينية أو عقائدية أو تراثية تهدف إلى حماية اليهود من أعدائهم، بل هى قضية سياسية وعسكرية واقتصادية ودنيوية بحتة، وليست لها علاقة بمجموعة من البشر المضطهدين من أجل تمسكهم بعقيدتهم الدينية وحرصهم عليها لدرجة الاستشهاد. فهذه كلها شعارات براقة مدفوعة لتغطيةالأهداف الامبريالية الدولية الحقيقية التى تقف خلفها المصالح والاحتكارات الاقتصادية العالمية.

وكعادة اليهود عبر تاريخهم الطويل، فإن الشاعر يحاول الربط بين التراث اليهودى والصهيونى وبين ما أصاب اسرائيل فى حرب الاستنزاف. يقول:

سداد الحسابات فى ظنى

فيما بين الهزيمة.. بدأ

هناك.. ألقى رب ابراهيم

المهزوم..

إلى نيران الآتون..

"ملاحظة شعرية: بالمناسبة استكمل الآتون وحفظ على مر الأجيال منذ أيام ما بين النهرين وحتى معتقلات أوشفتس"

ومنذ دمرت أوثان

عاموره وسادوم

وأبناؤه باطراد

تحت شعار "لاتقتل"

يقتلون..

أى أن اليهود كانوا - عبر تاريخهم - ضحية تطبيقهم لوصية "لاتقتل" إحدى الوصايا العشر التى نزل بها الوحى على موسى، وكأنهم لم يعرفوا القتل فى حياتهم. وهذا تزييف مفضوح للتاريخ الذى إذا وضعنا مراحله الأخيرة فى اعتبارنا فلابد أن نتساءل: من الذى بدأ بالهجوم والتقتيل فى حروب ١٩٤٨، و١٩٥٦، و١٩٦٧ ؟! وعندما بدأ عبد الناصر حرب الاستنزاف ضدهم عادوا إلى اللطم والعويل والندب على أبنائهم القتلى الذين قدموهم بأيديهم إلى المحرقة المصرية التى لم تكن لتمس شعرة فيهم لو لم يحتلوا

سيناء فى غفلة من الزمن . يقول يصحق بولاق :

بعينى رأسى . . شاهدت

فى يقظة . . أو فى منام .

مايشبه تمثالاً منتصباً

يداه إلى أعلى . .

مرفوعتان . .

إنه دعاء الأمهات:

"ملعون هو من يبعث . .

أولادنا إلى مذابح الأوثان . .

القائمة . . الحمراء ."

اللهم . .

الأبناء فارحم . .

والآباء فارحم . .

وضع نهاية لتقديم

اسحق

ذبيحة وقرباناً .

هكذا يقلب الاسرائيليون الأوضاع والمفاهيم رأساً على عقب ، بحيث يصبح الغزاة المعتدون ضحايا وقرابين وذبائح ، والمقاومون للغزو والساعون لتحرير أرضهم مهما كانت التضحيات ، قتلة وسفاحين !! ولافرق فى توظيف هذه النغمة التقليدية بين شاعر ملحد وشاعر متدين . فهم الضحايا والقتلى والجرحى من أجل الحفاظ على الأرض التى يحاول المصريون اقتلاع جذورهم منها ، وكأن سيناء التى يحتلونها هى أرضهم التى يضربون

بجذورهم فيها لكن حرب الاستنزاف تقتلع هذه الجذور يوماً بعد يوم !! بهذه البساطة الخادعة يعبر الشاعر يعقوف ريمون فى قصيدته "إلى متى ؟" عن هذا المفهوم المزيف، والتى نشرها فى الملحق الأدبى لصحيفة "هاتسوفيه" فى ٤ يوليو ١٩٦٩:

بين المعجزة.. وأختها

ظلال.. تمر

ظلال..

بأنات الثكالى.. مشبعة

تحمل فى حناياها

الجروح..

أشبالنا.. زهرات جيلنا

مع كل صباح.. عبر القناة

يتساقطون.. يذوون

كأعواد زرع أخضر

من جذورهم.. يقلعون.

ويعقوف ريمون شاعر متدين ينشر انتاجه فى صحيفة الحزب الدينى القومى، ومع ذلك لانجد فرقاً فى توجهه الفكرى والسياسى بينه وبين شاعر غير متدين مثل يصحق بولاق. فكلاهما يتفقان فى الغاية وهى ترسيخ جذور اسرائيل فى أى أرض تحتلها، وإن اختلفت الوسيلة. فاذا كان بولاق يعتمد فى هذا على سواعد الشباب الاسرائيلى وطاقاته دون عون ميتافيزيقى، فإن ريمون لايزال مؤمناً بأن إله اسرائيل لن يتخلى عنها وسيمدها بمعجزاته التى لاتنتهى، برغم أن حرب الاستنزاف لاتبدو لها نهاية قريبة:

رباه !

من نوافذك . . تشهد

آلام الخلاص . . .

كثيفة . . مكثفة

ونحن . .

بين مرور معجزة وأختها

نحصى موتانا . . وقلوبنا

تسأل . . .

إلى متى ؟ . . إلى متى ؟

يظل يومنا المأمول

على دمانا

يسير ، . .

لكن عبد الناصر حرص - بحرب الاستنزاف - على أن يجعل هذا اليوم المأمول أبعد ما يكون ، حتى يتيقن الاسرائيليون أن دماءهم هى الثمن الوحيد لاحتلال إراض ليس من حقهم البقاء عليها ولو ليوم واحد، وأن روحهم العدوانية لايمكن أن تجلب لهم السلام والأمن والاستقرار . فهم مغرمون بالجمع بين المتناقضات ، مثل الجمع بين احتلال سيناء والبكاء فى الوقت نفسه على قتلاهم ضحايا هذا الاحتلال .

وكان تأثير حرب الاستنزاف غائراً فى قلب المجتمع الاسرائيلى وعقله لدرجة أن شاعراً مثل يصحق شاليف ألف ديواناً شعرياً كاملاً عنها نشره فى يوليو ١٩٧٠ بعنوان "شباب عائد من الجيش" الذى اختار منه ابراهيم البحراوى قصيدة "صلاة على جرحى الحرب"، وهى عبارة عن مشاهد متتابعة تصور نماذج من الشباب الاسرائيلى البائس العائد من الحرب ، سواء

عاد مقعداً أو مشلولاً أو مبتوراً أو جثة ساكنة فى تابوت. وهذا الشباب هو ضحية قادته السياسيين والعسكريين الذين افتعلوا حرب يونيو ١٩٦٧ ثم ألقوا به فى آتون حرب الاستنزاف التى شنها عبد الناصر كرد حتمى على حرب يونيو. ونظراً لأن الشاعر عاجز عن أن يغير شيئاً من القدر الذى تجسده القيادة الاسرائيلية التى لاراد لقضائها، فإنه يلجأ إلى الدعاء والمناجاة كالنسوة العجائز اللاتى لايملكن أية قدرة على القيام بأى فعل ايجابى أو سلبى:

رب المصابين الساكنين فى الجبس...

رب المصابين من يتنفسون الأوكسجين..

رب النفوس التى تلفظ أنفاسها..

كجمرة خابية..

ساعية إلى نهايتها...

ثم تتوالى المشاهد المأسوية التى لايعلق عليها الشاعر لأنها لاتحتاج إلى تعليق. فالألوان والظلال والرموز والأبعاد والأعماق تتكلم بخصوبة وتركيز لايستطيعهما التعليق المباشر عندما يعبر عن حرب الاستنزاف كخنجر فى قلب اسرائيل التى كان فى إمكانها أن تتجنبه لولا جموح قادتها ورغبتهم الحارقة فى فرض سطوتهم على المنطقة. وكانت النتيجة:

رب النفوس التى فوق أسرتها..

أكياس الدم أرجوانية اللون..

معلقة..

والتى قطرات الدم السائلة فى الأنابيب..

بالنسبة لها.. كساعة تضبط..

حياة الزمن..

والشاعر يدعو الله لإنقاذ قومه من المحنة التى وقعوا فيها. أو بالأحرى

التي صنعوها بعد أن ظنوا أن كل الأمور قد دانت لهم، ولم يعد أمام المصريين سوى الاستسلام والعيش تحت رحمتهم. لكن الموقف سرعان ما انقلب كابوساً لايمكن الهروب منه إلا بعقاقير التهدئة وعقاقير التنويم:

جل رب النفوس التى تعيش

ما بين عقاقير التهدئة وعقاقير التنويم

ما لايقدر على تجليه للأرواح

سواك.

لقد اعتاد اليهود عبر تاريخهم أن يتفننوا فى انزال المصائب بالآخرين أو بالأغيار كلما تمكنوا من ذلك، تطبيقاً لمبدأ "مصائب قوم عند قوم فوائد"، لكن اذا تحولت الفوائد إلى مصائب على رؤوسهم، فإنهم سرعان ما يلطمون الخدود، وينعون الحظوظ، ويدعون الله أن ينقذهم من كوارث لم يجبرهم أحد على التسبب فيها، بل إنهم يتجاهلون أنهم السبب ويسألون الله عن السبب:

ما سر هذا العذاب وهذه المعاناة ؟

ما الغاية من أعمالك ؟

الغاية من المشلول والمبتور

الغاية من ساق معلقة بمسمار

فى عظمها.

قل يارب.. قل.. أفصح !

وكأن الشاعر لايعرف السر فى هذا العذاب وهذه المعاناة، وكأن الله هو الذى دفعهم لشن حرب يونيو ١٩٦٧ واحتلال سيناء !! وطبقاً لهذا الفرض الغريب فإنهم يطلبون من الله أن يوقف حرب الاستنزاف حتى لاتطول قائمة القتلى والمشلولين والمبتورين، بشرط ألا ينسحبوا من سيناء، وكأن كل الأمور يجب أن تتم بشروطهم، حتى فى تعاملهم مع الله نفسه:

رب الأجساد الساكنة

فى أسرتها

مجمدة دونما برد

مكبلة دونما قيود

رب الشباب الذى قضى عليه

بالنضوج فوق الكراسى المتحركة

رب الشبان الذين قضى عليهم

بالموت..

فى قبر هو حشيتهم وتحت نصب

هو ملحفهم.

قل لهم يارب على الأقل

كلمة..

أطلب لهم الغفران.

أما فى ذكرى قتلى المدمرة الاسرائيلية ايلات التى أغرقتها البحرية المصرية أمام شواطئ بورسعيد، فقد نشر الشاعر بنحاس بلدمان قصيدة أو مرثية بعنوان "الضوء الذى فوق البحر" فى الملحق الأدبى لصحيفة "معاريف" بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٦٧، تدل على مدى الصدمة التى أصابت العقل الاسرائيلى، فلم يمر على حرب يونيو أكثر من أربعة شهور واذ بالبحرية المصرية تغرق "إيلات" بصاروخين غيرا استراتيجية المعارك البحرية كلها بعد ذلك، واذ بالجنود والبحارة الاسرائيليين الذين خرجوا للتجسس والنزهة واستعراض العضلات وقد تحولوا فى لمح البصر إلى مأدبة شهية لأسماك البحر المتوسط. يقول الشاعر فى وصف الضربة المصرية القاصمة:

خبا الضوء.. فوق البحر

حيوات أبنائى ياالهى..

فى الرمال القديمة..

حديد بارد

وذكرى الدم السائل

فوق البحر

وتسأل فتاتى:

ربما كانت هذه الظلمة

كسوف شمس جاء فى غير موعده..

كلا!..

كلا يافتاتى

لأن أمام عينى

جثث أبنائى كالصوارى منتصبة

أو توانت العين لحظة

عن رؤية ورود..

ورود وغلالة على وجهك

الطاهر يافتاتى..

لاحمرت حتى دم الورد

حلية موت أبنائى

ياالهى!

لقد أثبت عبد الناصر لاسرائيل أنها بشنها حرب يونيو ١٩٦٧ كانت تلعب

بالنار. وشن هو بدوره حرب الاستنزاف كى يحرق أصابعها. وكان اغراق المدمرة ايلات من أهم معارك هذه الحرب التى بدأت بحرق أصابع اسرائيل وشرعت بعد ذلك فى قطع ذراعها التى تصورت أنها من الطول بحيث تنال أى خصم فى أى مكان مهما كان بعيداً. وقد عبر عبد الناصر عن استراتيجيته بخصوص هذه الحرب قائلاً:

"أنا عارف إسرائيل من عشرين سنة، لاتستجيب إلا للقوة، واسرائيل بعد حصولها على هذا المكسب سوف يركبها الغرور، خاصة أنها كسبت أكثر من قدرتها، كما أنها تحتاج لدعم سياسى ومعنوى من دول العالم لفترة طويلة كى تعزز مكاسبها، وتهضم ما أكلته، وهو أكبر من طاقتها. وعلى ذلك أصبح من الضرورى الدخول معها فى صراع سياسى وعسكرى عربى حسب قدرتنا، صحيح أنها سوف تستغل تفوقها بأن تقوم هى بالفعل، بينما نكتفى نحن برد هذا الفعل، لكن هذا لن يستمر إلا لحين، نبدأ بإعادة مقدرتنا الدفاعية وبالتدريج نقوم نحن بالعمل ضدها أولاً، وننتظر رد الفعل. إننى أقدر الزمن الذى يمكن لقواتنا المسلحة أن تصل فيه إلى قدرة الدخول فى معركة التحرير بحوالى ثلاث سنوات، ولايصح أن تزيد عن أربع".

قال عبد الناصر هذا الكلام فى لقاء ناقش فيه كل الشئون السياسية والعسكرية يوم ١١ يونيو ١٩٦٧ مع الفريق أول محمد فوزى الذى بدأ مهمته كقائد عام للقوات المسلحة المصرية فى اليوم نفسه، أى بعد بداية حرب يونيو بستة أيام فقط. وبالطبع لم يكن أحد فى اسرائيل المنتشية بالنصر يصدق كلمة واحدة من هذا الكلام، لكن سرعان ما أثبتت الأيام أن عبد الناصر كان يعنى

ما يقول ، ويملك القدرة على تنفيذه برغم خسائره الفادحة فى الحرب ، وذلك من خلال إمساكه بزمام المبادرة الذى لم يفقده سوى فى حرب الأيام الستة . وكانت حرب الاستنزاف وسيلته العملية للإمساك بهذا الزمام . وهى الحرب التى تردد صداها فى معظم الأعمال الشعرية والنثرية التى ألفها الكتاب والأدباء الاسرائيليون فى فترة السنوات الثلاث التى شهدت آتونها المشتعل ، بل كانت مضموناً أساسياً لدواوين شعرية وأعمال قصصية تشكل الملامح الرئيسية للأدب الاسرائيلى فى تلك الفترة .

(٢) شهادة قصصية

شكلت حرب الاستنزاف مضموناً رئيسياً لمعظم القصص التى كتبها الأدباء الإسرائيليون فى تلك الفترة الملتهبة، وكأنها كانت كابوساً يطاردهم ويلح عليهم كلما شرعوا فى الكتابة والتأليف. فقد كانوا واعين بأبعادها الحقيقية، ويقظين لكل حيل الخداع والدعاية الخبيثة التى تبثها أجهزة الاعلام الاسرائيلية، وذلك بالضرب على أوتار جنون العظمة عند الشعب الاسرائيلى. فقد جسدت قصصهم الجانب الحقيقى والمأسوى المعتم الذى نتج عن حرب الاستنزاف والذى سرى بالاكتئاب واليأس والإحباط فى النفوس برغم كل أضواء المهرجانات والاحتفالات المنتشية بالنصر، التى غرقت فيها تل أبيب حتى أذنيها.

وفى كتابه "أضواء على الأدب الصهيونى المعاصر" يقدم ابراهيم البحراوى نماذج من هذه القصص التى ترجمها ترجمة أدبية رفيعة عن العبرية مباشرة، والتى يمكن الاستشهاد بها لتوضيح المدى الذى بلغته حرب الاستنزاف فى أعماق الشخصية الاسرائيلية وكهوفها ودهاليزها المعتمة. فقد أحدثت هذه الحرب شرخاً فى هذه الشخصية وذلك بتعميق العقد النفسية القديمة وترسيخها. فمثلاً ازداد احساس الاسرائيلى بالعزلة والغربة واليأس والضياع، وهو يشعر أن قوى الضغط العالمى، والاحتكار الاقتصادى الدولى، والإعلام الواعد بجنة الله فى أرضه، قد ألقت به - سواء بالضغط أو الإغراء - فى جزيرة صخرية ملتهبة، ومحاطة بأمواج من الكراهيةوالرفض، لاتتوقف عن لطم شواطئها برغم كل الأسلحة التى تدجج بها حكام الجزيرة. إنه لم يكسب شيئاً بهجرته إلى هذه الجزيرة أو باقامته فيها. خسر جذوره القديمة فى البلاد التى فتحت صدرها لعشيرته التى عاشت فيها أجيالاً متتابعة، وأثبتت نجاحها وازدهارها فيها، خاصة فى مجالات المال والتجارة والاقتصاد، وخسر بالتالى كل عوامل الاستقرار والأمن والسلام والأمل فى مستقبل مشرق. ولقد كان يهود الولايات المتحدة الأمريكية من الذكاء وبعد النظر بحيث اكتفوا بالدعم المالى وجمع التبرعات لاسرائيل دون الذهاب إليها

والاستقرار فيها حتى لايفقدوا المكاسب والامتيازات بل والسلطات التى حصلوا عليها فى المجتمع الأمريكى الذى يكاد يكون رهن إشارتهم.

ثم جاءت حرب الاستنزاف لتؤكد له بما لايدع مجالاً للشك، كم كانت صفقته خاسرة بهجرته إلى اسرائيل !! وهى هجرة مأسوية لأنها بلا عودة إلى البلاد التى جاءوا منها وعاشوا فيها بكل حقوق المواطنة، لكن الإلحاح الإعلامى على آذانهم أغراهم برفض جنسياتهم لأن اليهودية دين وجنسية لايصح أن تزدوج مع أية جنسية أخرى. وعندما وقعت الفأس فى الرأس لم يكن أمامهم سوى التعايش مع الظروف الكئيبة المحيطة بهم من كل جانب.

وقد جسد القاص الاسرائيلى افراهام بن يهوشع هذه الغربة والعزلة والضياع والإحباط واليأس فى مجموعته القصصية التى اتخذت من عنوان القصة الأولى فيها "فى مواجهة الغابة" عنواناً لها، والتى أصدرتها دار "هاكبوتس هاموحاد" عام ١٩٦٨. وبطل القصة رجل يفتقد الجذور التى تشده إلى بيئته، والصلات التى تربطه بمجتمعه برغم أنه محاط باليهود أمثاله من كل جانب، بحيث يمكن القول بأن جذوره فى البلد الذى هاجر منه كانت أعمق وأقوى وأرسخ من تلك التى تحاول اسرائيل ترسيخها فى تربتها. ذلك أن الدين بطبيعته هو علاقة شخصية بل تكاد تكون سرية بين المخلوق والخالق، فلا أحد يطلع على ما فى القلوب والسرائر سوى الله عز وجل، وبالتالى لايمكن أن ينهض المجتمع على أسس دينية بحتة لاتتفاعل مع العناصر الفكرية والثقافية والحضارية الواردة من بيئات مختلفة ومتنوعة، لأنه بدون هذا التفاعل لايمكن أن يصبح المجتمع منظومة ذات شخصية متميزة بمعنى الكلمة. وبالتالى فإن اسرائيل التى تنادى الآن "بتطبيع" علاقاتها بالبلاد العربية التى وقعت معها معاهدات سلام، عاجزة هى نفسها عن ممارسة التطبيع الثقافى بين فئاتها الاجتماعية المختلفة، خاصة بين فئة الاشكناز الغربيين والسفرديم الشرقيين. فهى عبارة عن تجمع لأجناس من أصول ثقافية وبيئات اجتماعية مختلفة ومتباعدة، ولولا اللغة العبرية المفروضة على الجميع وتعليمات التلمود

وبروتوكولات حكماء صهيون ، لما كانت هناك أية روابط ثقافية بين هذه الفئات المختلفة والمتعددة. فمن المستحيل - مثلاً - أن يحدث أى تطبيع ثقافى بين يهود الفلاشا القادمين من إثيوبيا ويهود روسيا البيضاء القادمين من الاتحاد السوفييتى سابقاً ! إن التطبيع الثقافى لايمكن أن يعنى أبداً الافتعال أو الاصطناع الثقافى، لأنه يعنى أن يأتى كل شئ طبيعياً وتلقائياً من خلال الجهود المبذولة فى سبيله. من هنا كانت الغربة التى يعانى منها الاسرائيلى والتى جسدها افراهام بن يهوشع فى بطل قصته "فى مواجهة الغابة"، الذى بحث عن خلاصه فى العزلة الكاملة عن المجتمع الذى يشعره دائماً بغربته فيه، لكنه وجد نفسه كالمستجير من النار بالرمضاء، فإذا كان الجحيم هو الآخرين طبقاً لمقولة جان بول سارتر الشهيرة، فإن غياب الآخرين هو جحيم من نوع آخر لأن الإنسان لايشعر بوجوده إلا من خلال الآخر.

وهذا النمط من الشخصية الاسرائيلية يكاد يتكرر فى معظم الأعمال القصصية والروائية الاسرائيلية. نمط الإنسان الذى نجا بجلده من جحيم الحرب، لكنه لم ينج فى أعقابها من الفزع والاكتئاب واليأس والاغتراب والارهاق النفسى والميل المستمر إلى الهرب إلى أماكن قد يجد فيها نفسه الضائعة. فبطل هذه القصة يهرب إلى الغابة لعله يجد نقطة بداية جديدة، وتصبح صلته الفعلية بالمستوطنات القريبة صلة واهية فى حدود الاحتياجات الضرورية. فهو يهرب من الاغتراب النفسى والوجدانى الذى يفرضه عليه المجتمع إلى اغتراب مادى وفعلى يفرضه هو على نفسه، وبذلك ينفصل تماماً عن ماضيه وحاضره. غير أنه يعجز أيضاً عن ممارسة هذه الحياة المنعزلة لأن الهروب المطلق من وطأة الواقع فى هذا الزمن شئ مستحيل، إذ يفاجأ بشيخ عربى دمر الجيش الاسرائيلى قريته وهو يحمل حفيدته الصغيرة لاجئاً بها إلى الغابة. وعندما يصل هذا الإحساس المأسوى بالشيخ إلى قمته فإنه يضرم النار فى أشجار الغابة فى نهاية القصة لأنه لم يجد طريقة أخرى للتنفيس عن النيران التى تحرقه من الداخل. ولايجد البطل "مفراً من العودة إلى المدينة وأمواتها".

ويوضح ابراهيم البحراوى أنه برغم أن قصص بن يهوشع لاتحتوى فى نسيجها على إشارات مباشرة إلى معطيات الحرب وتأثيرها على تحركات أبطاله واقعياً ونفسياً، فإنه من العسير أن نتجاهل ـ كما فعل النقاد الاسرائيليون الذين تعرضوا بالنقد لقصص المجموعة بل والمؤلف نفسه فى أحاديثه مع النقاد حول المجموعة ـ انعكاس وطأة حرب الاستنزاف على غالبية الكتابات الأدبية بعد ١٩٦٧، التى جسدت الشخصيات والمواقف الواقعية التى يستقى منها بن يهوشع معظم أبطال قصصه، وإن كان يكتفى بالوقوف عند حدود التشخيص العام لواقعهم دون التوغل فى عوامل القهر والقسر الخارجية التى تفرض عليهم التقوقع، وتؤدى بشخصياتهم إلى التوافق الخانع مع العزلة والغربة والفرار السلبى من الواقع.

أما القاص الاسرائيلى هرتسل آرليخ فقد نشر مجموعة قصصية بعنوان "مراقبة عبر الشارع" فى عام ١٩٦٩، صدرت عن دار "مساداه"، وفيها يقدم خلفية عامة وعريضة لروح الحياة فى المدينة الاسرائيلية، من خلال ظاهرة الشباب اليائس المعزول فى بيئة طافحة بالسأم والعقم واللامعنى. ذلك أن مصير الشبان الذين سرحوا على التو من الجيش يبدو عقيماً، مهترئاً، متفسخاً تماماً كمصير أقرانهم الذين ينتظرون الالتحاق بالجيش. يقول آرليخ:

"من العسير اليوم الاعتماد على الشبان. إنهم ممعنون فى التهافت والتعطل، والعلة كامنة فى الموقف الدفاعى، ذلك أن معظمهم إما موجود فى آتون الحرب أو أنه قد عاد من الحرب أو أنه ينتظر حرباً ثانية، ولذا فهم يعشقون الاسترخاء تحت الشمس وكل منهم يتحسس أعضاء جسده مردداً فى نشوة: "ها أنا حى وموجود"، منهم من يتغلب على هذه الحالة فى زمن وجيز، ومنهم من يستغرق للوصول إلى هذا زمناً مديداً، ومنهم من يحتفل

بحقيقة بقائه بين الأحياء بعدم التغلب كلية على هذه الحالة. من السهل مشاهدتهم وهم يتجولون بلا غاية فى عديد من مناطق التجمع المشبوهة. إن هذا أيضاً هو عين السبب الذى يحمل كثيراً من الفتيات الصغيرات على الزواج من رجال مسنين. إنهن ينشدن الأمان".

هذا هو الشرخ الواسع والخطير الذى أحدثته حرب الاستنزاف فى المجتمع الاسرائيلى. فهى لاتتوقف ولاتدع للشباب الاسرائيلى من طموح سوى البقاء سليماً على قيد الحياة. وهذا ما كان عبد الناصر يهدف إليه على وجه التحديد واستطاع أن يطبقه ليس فقط على الجيش الاسرائيلى المتمركز على جبهة قناة السويس ولكن على المجتمع الاسرائيلى ككل. وهو مجتمع عسكرى بطبيعته ولايفهم سوى لغة الحرب. وهى الفكرة التى جسدتها القاصة الاسرائيلية روث الموجى فى قصة "كان يمكن شراء مدفع" بأسلوب غاية فى السخرية المريرة، والتى نشرت فى صحيفة "هاآرتس" فى ٦ يونيو ١٩٦٩ بمناسبة مرور عامين على حرب يونيو ١٩٦٧. فكل القيم الإنسانية والاحتياجات البشرية فى اسرائيل تهون وتهمل تماماً فى مواجهة الرغبة فى شراء السلاح.

أما قصة "الصمت" للقاص الاسرائيلى شمعون بار، التى نشرت فى الملحق الأدبى لصحيفة "معاريف" فى ١٠ نوفمبر ١٩٦٧، فتزخر بصور الكابوس الذى مارسته حرب الاستنزاف على الجندى الاسرائيلى، مثل صورة بطلها الذى:

"وجدوه ممتزجاً ومختلطاً بجزئيات احدى الدبابات. كان من المستحيل معرفة أين تبدأ جثته وأين تنتهى جثة الدبابة. لم يبق على أصله الأول سوى الأشلاء وقطع الصلب المغطاة بالتراب، أما

سائر الأشياء فكانت منتمية إلى الماضى كالدودة المتحجرة، أما الحاضر فقد كان الذباب، ذباب الجبل فى بداية الوجبة الفظيعة".

وفى موقف آخر من مواقف القصة يقول الراوى إن العلم لايعترف بالأعاجيب، وليس صدفة أن الشبان هم وحدهم الذين لايعودون من الحروب، إن معادلة حسابية بسيطة تقول إن من يذهبون هم فقط الذين لايعودون. ففى هذا الموقف يبلور شمعون بار الدور البطولى الذى قام به الفدائيون المصريون العابرون إلى الضفة الغربية لنصب الكمائن وزرع الألغام ومباغتة الدوريات الاسرائيلية. يقول الراوى:

"كان ينبغى العثور على الطريق فى حين كانت سائر الدبابات تنتظر عند منعطف الطريق. كان كل منعطف صخرة وكل طريق فخاً. كان المحرك يدور بأقصى طاقته، والجنازير تحفر الصخور. وفى الوسط بينهما كان الغبار يغطى زجاج منظاريهما".

وتصل السخرية المريرة قمتها فى القصة عندما ندرك أن القيادة الاسرائيلية اعتبرت حرب يونيو هى الحرب الرسمية المعتمدة لديها، وبانتهائها فى غضون الستة أيام، انتهت الحرب تماماً على المستوى الرسمى، ولذلك نسمع صوتاً ساخراً يقول إن كل من يسقط الآن يسقط بصورة غير رسمية لأن حرب الاستنزاف فى نظر اسرائيل هى حرب غير رسمية. ويابؤس قتلاها الذين يدخلون فى عداد الموتى غير الرسميين !!

أما فى قصة "الحالمة" التى نشرتها بنيناه عاميت فى الملحق الأدبى لصحيفة "معاريف" فى ٤ يوليو ١٩٦٩، فيتجسد العقم والجدب نتيجة لحرب الاستنزاف. تقول البطلة فى وصف حالتها المأسوية:

"حزن يخرج من أحلامى وينسكب على كل أيامى. إننى معزولة، معزولة وأفكارى مع نفسى. زوجى ينظر إلىّ ثم يعود إلى أشغاله، عله يخشى أن أقول إننى غير سعيدة بعد عامين من الزواج. عندما يمسنى حزنه أحياناً، أطلعه على أفكارى. ماذا تفيد كلمات الطمأنة وقلبى ملئ بالحرب والموتى؟! عندما سألنى، عندما تجاسر وسألنى: "هو من طبعه الجمود، بطئ دائماً، ينظر إلىّ فى دهشة" لماذا لا أريد أطفالاً ؟ "كذبت عليه فقلت لنعش عاماً آخر لأنفسنا".

أى أن الخوف الذى يسيطر على وجدان البطلة وسلوكها، يقضى على كل ميل طبيعى عندها للأمومة، وعلى طاقتها النفسية على الانجاب. فهى محاطة بكل صور الموت والعدم والخراب لدرجة أن عودة الجندى سليماً من الجبهة لم تعد تبهج لأن من لايصاب فى جسده، يصاب فى نفسه. تقول البطلة:

"أقامت أمى وليمة لأخى عندما عاد. تزوجت أمى ثانية، وهذا ابنها أخى. كان رفاقه يحكون عن بطولته لجيراننا. نكس أخى عينيه. ما الذى يفكر فيه حتماً. هذا الفتى ؟! بماذا يحس ؟ إننى لاأعرفه مطلقاً. لماذا لاتقولين شيئاً ؟ سألتنى أمى: لماذا لاتشاركيننا ولو مرة فى أفراحنا ؟ إننى متعبة ياأمى، ولم لاتدركين أن قصص البطولة فى الحرب كريهة إلى نفسى ؟ ما هذا الذى تتحدثين عنه؟ ما هذا الذى تمزجينه ؟ ما هذا الذى تضاهينه؟أليست هذه هى الحرب ؟ إننى لاأفهم الموت

وإن كان هو الشئ الوحيد فى الحياة الذى يتجاوز حدود الشك. الموت وحده مفهوم عندى أقل من أى شئ، أعجب عندى من كل شئ، كريه لدى أكثر من أى شئ. يخيفنى، يهزنى، كل يوم وكل ليلة فى أحلامى التى لاتفارقنى، منفصل عن كل شئ. يقينى فوق كل شئ، مرئى ومنظور ومسموع، مستشعر ومحسوس ومدرك. عينا أخى منكستان بينما رفاقه يغدقون الثناء عليه. ربما استطعنا أن نتحدث مرة عندما أدعوه إلى السينما.

ولماذا لايكون لى حفيد فى النهاية ياابنتى ؟ قالت أمى. ولذت أنا بالصمت".

إن الانجاب هو الخصوبة والتجدد واستمرار الحياة والطريق إلى المستقبل، لكنه يصبح مستحيلاً فى ظل سيف الحرب المعلق فوق الرقاب. ولو كانت اسرائيل قد انسحبت من سيناء وتخلت عن احتلالها العقيم لها، لابتعد عنقها عن هذا السيف، لكنها لاتفرط فى أى شئ تغتصبه إلا بالقوة، ولذلك كرر عبد الناصر مبدأه على مسامع العالم أجمع: "ما أخذ بالقوة لابد وأن يسترد بالقوة".

وبرغم أن العزوف عن الانجاب خوفاً من الحرب وتداعياتها، يشكل رعباً كابوسياً للمجتمع الاسرائيلى الذى يعانى من قلة النسل، إلا أنه عاجز تماماً عن مقاومة هذا الإحساس أو هذه العقدة المدمرة، لأنه أدمن الحرب وظلالها ولم يعد قادراً على تصور حياته بدونها. ولذلك يتكرر هذا الخط الفكرى فى أكثر من قصة، مثل قصة "العلمين" للقاص يعقوف شافيط، التى نشرت فى الملحق الأدبى لصحيفة "هآرتس" فى ١٨ سبتمبر ١٩٧٠، وفيها يحاول ازالة الخوف من قلوب العازفين عن الانجاب لأن الإنسان السلبى هو إنسان ميت مهما طال به العمر، بل أنه أضعف تواجداً من الميت الفعلى الذى

يمكن أن يكون قد أنجب فتياناً قادرين على صنع الحياة بعد رحيله. فالحياة لاتستمر من خلال الإنسان الفرد وإنما تتواصل من جيل إلى جيل. فالأم فى القصة تقرر الذهاب إلى الطبيب لإجهاضها، ويبدأ الصراع بينها وبين العمة التى تقوم بدور رسول الأخلاق والقيم الإنسانية، والمدافع المستميت عن استمرار الجنين حتى يرى النور. ويجند القاص كل أدوات السرد والوصف كى يضع القارئ فى موقف المؤيد لتوجه العمة التى تعتقد أن الجبان يموت ألف مرة فى حين يموت الشجاع مرة واحدة فقط، وتؤمن أيضاً بأن الأم التى تلجأ إلى الاجهاض هى فى حقيقة أمرها قاتلة، لأنها ترفض الدفاع عن وطنها بانجاب مواليد جدد هم فى الواقع جنود المستقبل.

ويستمر الصراع بين موقفين: أحدهما يؤمن بأنه لاينبغى احضار أولاد للعالم فى مثل هذا الزمن، والآخر يصر على انجاب أطفال لأن هذا هو الزمن المناسب. فالسلام لايحتاج إلى الجنود، لكن الحرب فى حاجة دائمة لمن يحل محل من ماتوا فى الحرب. وعلى الرغم من أن الكاتب يلجأ إلى معركة العلمين بين مونتجمرى وروميل فى عام ١٩٤٢، إلا أنه يستغلها كمجرد خلفية تاريخية تخفى هدفه الدعائى المباشر لانجاب الأطفال، فالتوازى الدرامى واضح بين ما دار فى حرب العلمين وما يدور فى حرب الاستنزاف التى كشفت أكذوبة الانتصار الكبير فى يونيو ١٩٦٧، وإلا لما قالت العمة للأم: "لاتفكرى فيما سيحدث، فكرى فقط فى أنه لن يكون هناك أى شئ اذا لم يكن لنا أولاد"، لكن الأم لاتقتنع وتتساءل: "أى ظلم يكمن فى احضار أولاد لمثل هذا العالم ؟ ما الذى فيه ؟ ما الذى ينتظرهم ؟ إن شيئاً لم يتغير".

أما فى قصة "أغنية الأوز" للأديب الإسرائيلى ران أدليسط فيتعرض مضمونها مباشرة لموقف المحارب الاسرائيلى العادى من الأوضاع السياسية التى تحيط به، وتؤدى به فى نهاية الأمر إلى التقوقع فى موقع عسكرى ضيق وخانق فى انتظار الموت بين لحظة وأخرى. فما الذى يمكن أن يفعله هو ورفاقه عندما تنهال عليهم الصواريخ وطلقات المدفعية المصرية الثقيلة كالمطر؟!

والبطل يعانى من الفصام بين احساس الانتماء القومى وما يقتضيه من بذل وتضحية وبين حرصه على سلامته الشخصية واصراره على البقاء سليماً معافى من التشويه الجسدى حتى لو كان هذا على حساب المصلحة القومية التى يؤمن بها. ويواصل ابراهيم البحراوى تحليله للبطل فيوضح أنه يعانى إلى جانب هذا الفصام بين معنى التضحية فى سبيل الوطن ومعنى الاحتفاظ بالذات من حالة عجز عن تبين الحقيقة السياسية التى يجب أن يتبناها داخل نفسه نتيجة لحيرته فى اتخاذ موقف واضح تجاه التيارات السياسية المختلفة فى مجتمعه. ونتيجة لهذا العجز عن اتخاذ موقف اختيارى ذاتى، فإنه لايجد مفراً من السقوط الاضطرارى بين طيات الجمود العقلى والفكرى الذى يبتغيه صناع الإنسان فى اسرائيل ليبرزوا داخله مثال البطل المنشود، إنه مثال البطل غير الواعى:

ـــ إن كل ما ينبغى عليك عمله هو أن تصورنى وعندئذ سترى المثال، حقيقة إنه مثال غير واع، ولكنه المثال.

ـــ وهذا بالضبط ما نحن فى حاجة إليه الآن.. مثل غير واعية !

ـــ دعك من السخرية.

ـــ أية سخرية ؟.. إننى أتحدث فى موضوعية كاملة. إن الجندى المثالى هو الجندى الذى ينفذ الأوامر إلى نهايتها !

فمن الطبيعى أن تثير حرب الاستنزاف تساؤلات شائكة فى ذهن الجنود الاسرائيليين المتمركزين فى ضفة قناة السويس: لماذا يحاربون ؟! ولماذا يجرحون أو يموتون ؟! وهل يمكن احتلال سيناء وضمها إلى أراضى إسرائيل بهذه البساطة ؟! ومتى تتوقف القذائف والصواريخ المصرية التى تنهمر على

رؤوسهم كالمطر ؟! وهل يشعر القادة المرفهون فى تل أبيب بالكابوس الجاثم ليل نهار على كاهل المقاتلين ؟ وأين نصر يونيو ١٩٦٧ الذى تشدقت به أجهزة الإعلام الاسرائيلية وصدقها العالم كله ؟ هل انتصروا فى يونيو لكى يموتوا تباعاً على رمال سيناء فى حرب لاتبدو لها نهاية ؟ ولذلك يقول بطل القصة:

"إننى أعرف أننى أجلس الآن على القناة، داخل موقع مسلح فى مرمى نيران العدو. أعانى معاناة قاسية من المأساة القديمة، مأساة الجندى البسيط الذى لايتخذ قراراً أو يعرف متى تنتهى المهمة التى يؤديها ؟! إنه لايعرف ما اذا كان هناك ما يبرر المهمة أم لا".

إنه مجرد آلة أو أداة ليس لها الحق فى ايجاد اجابات شافية عن هذه التساؤلات الشائكة وسط كابوس الاستنزاف الذى يكاد يقتله نفسياً قبل أن يموت جسدياً. نرى فى القصة البطل وصديقه أو زميله وهما يقضيان ليلتهما الأولى فى جبهة القناة حيث أصيبا بصدمة عنيفة:

"كانت كل قذيفة تسقط تفجر فى نفسيهما شعوراً بأن نهايتهما قد حانت مع سقوطها، الصفير والدوى وزلزلة جدران الموقع وتراقص الخوذات.

"بعد ذلك تعودا.. كانا يقذفان بنفسيهما على عجل من خلال الفتحة الضيقة. ينكس كل منهما رأسه بقدر معين ويضغط بيديه على حافة الخوذة الحديدية. وخلال جزء الثانية الواقع ما بين الأزيز الملهوف والسقطة المرعدة، كان كل واحد يضغط جسده حتى أطراف أصابعه فى نقطة متناهية الضآلة حتى يبدو كرأس دبوس لاجسم له، وبعد ذلك كان

كل شئ يسترخى من تلقاء نفسه فى بطء.

"على هذا النحو من التصرف يتاح لهما أن يكونا رابطى الجأش أثناء القصف، جزء من الجسد يتضاءل وينكمش، وجزء يتطلع ويرسل التقارير، بينما الصلة بين الجزئين معدومة تماماً، ونغمة الصوت الذى يحمل التقارير هادئة وأحياناً جزلة، جزلة حقاً فى بعض الأحيان".

وتتواصل مشاهد الرعب الكابوسى، فنرى المدافع المصرية المضادة للدبابات وهى تدك أحد المواقع، فى حين يحاول الضباط والجنود الاسرائيليون تحديد الموقع الذى تم منه القصف، لكن فجأة تسقط قنبلة ويمتلئ موقعهم بدخان ملتهب، فيجلسون وقد التصق كل منهم بالآخر محاولين أن يتمالكوا أنفسهم وأن يستوعبوا ما جرى. ثم أدركوا أنهم على لوحة التوجيه فى مدافع المصريين، وهذا يعنى أن المصريين اكتشفوا الموقع، فتولاهم الرعب وأطلقوا سيقانهم للريح فراراً إلى داخل الدشمة كى يلملموا عظامهم التى اختلفت مواضعها من الصدمة، وبعد ذلك ذهبوا للبحث عن موقع بديل.

ولعل الحوار التالى يوضح لنا إلى أى مدى كانت حرب الاستنزاف ضرورة تاريخية وحضارية ملحة ضد عدو يسعى بكل طاقاته لفرض الأمر الواقع الذى نتج عن حرب يونيو ١٩٦٧:

ــــ لاتنس أن الوقوف عند المطالبة بالحدود الآمنة يمثل أيضاً انتقاصاً من أرض اسرائيل. إننى لست من المنادين بأرض اسرائيل الكاملة، لكننى أعتقد أن الحصول على رقعة أرض تكفل الحدود الآمنة أمر لايضر، وبالاضافة إلى ذلك فإن هناك جماهير من الرفاق متحمسون لهذه القضية، قضية

الوطن الكامل.. إنك تعرف التاريخ والمشكلات.

— ليذهب هؤلاء الرفاق إلى الجحيم، يقال طيلة الوقت أن هناك جماهير منهم.. حتى أننى قرأت فى الصحف أن البلاد مليئة بهم، ولكن أين هم بحق الشيطان؟ من هم؟ ألا أعرف أنا عدداً كافياً من الرفاق؟ إننى أعرف الملايين ومع ذلك فإننى مضطر لأن أبحث بينهم على ضوء شمعة عن هؤلاء المتحمسين، وعندما أعثر عليهم فإننى لا أجد رفاقاً، هيه.. هيه.. سأشرح لك، إننى أعرف جماهير من الرفاق يفعلون ما يقال لهم دون نقاش.. إذا قيل لهم حاربوا.. فسيحاربون، واذا قيل لهم استوطنوا.. فسيستوطنون، واذا قيل لهم اقتلوا.. فسيقتلون".

هكذا نجحت أجهزة الدعاية الاسرائيلية فى غسل مخ المحاربين والجنود بحيث جعلت منهم مجرد آلات أو أدوات لاتعرف سوى تلقى الأوامر وتنفيذها دون أى تفكير. وبذلك طبقت منهج جوبلز وزير الدعاية النازى الشهير الذى أحال جنود ألمانيا إلى مدافع موجهة لصدور كل البلاد التى قاموا بغزوها فى الحرب العالمية الثانية. وبذلك فإن اسرائيل تتبنى الفكر النازى عملياً بقدر ما تهاجمه وتشجبه إعلامياً ونظرياً. ولذلك فإن الحوارات التى ناقشت هذه التوجهات ظلت مقصورة على المستوى الشخصى لأنها لم تستطع أن تطفو على صفحات الصحف أو موجات الأثير. فالتعبير عن الآلام والآمال والاحباطات والانفعالات والهواجس الذاتية غير مسموح به فى أجهزة الإعلام الاسرائيلية، وإن كان مسموحاً به فى الأعمال الأدبية من شعر وقصة. يقول بطل "أغنية الأوز":

"أن أنفق وأموت كالحمار، فهذا أمر لا أريده،

وإذا حاولت أن أربط بينه وبين واجبى فى سبيل الوطن، فإن المحاولة تصبح بالنسبة لى أمراً فظيعاً معقداً. لو قلت لى الآن بكل الجدية: إن واجبك الوطنى يتطلب منك الصعود فوق سطح الموقع لتفعل كذا وكيت ثم تتلقى رصاصة فى رأسك، فإننى لا أعرف ما اذا كنت سأصعد أم لا، اننى أدرك أن هذه مسألة افتراضية وأن هناك تأكيداً دائماً على عدم التعرض لمثل هذه المخاطرة الفجة".

ويبلور الحوار فى القصة أبعاد المعادلة المستحيلة التى تحاول اسرائيل فرضها على الوضع الراهن، وهى معادلة تصل إلى درجة العبث برغم كل أردية الشعارات البراقة والحجج المنطقية التى تحاول اسرائيل أن تغطيه بها. ولاشك فإن الفضل فى تعرية هذا العبث يرجع إلى الحقائق التى رسختها حرب الاستنزاف فى الوضع الراهن:

ـــ إذن فما جئنا نفعله هنا هو أن نعلم العرب درساً !! ما هذا ؟!.. هل أنا رجل تربية وتعليم ؟

ـــ وماذا عن اننا اذا لم نكن هنا فإن شعب اسرائيل لن يكون هناك ؟

ـــ إننى لا أعرف اذا كنت محقاً فى عدم معرفتى لأن هذا ليس فى منتهى الأهمية بالنسبة للاحساس العام !!

ـــ إذن فهذا هو إحساسك.. هيه ؟ لو شنوا ضدك حرب استنزاف لبضع سنوات وفقدت ملابسك الداخلية بالفعل، فهل ستكون رجلاً ؟

ـــ لاتطمس الأشياء.. ألا تفكر فى أنه توجد

خارج مسألة رجولتى بضع موضوعات أخرى للنقاش ؟ إن الذى يواجهنا ينبغى عليه أن يحارب لأن كرامته قد انتهكت ، وعلى أنا أن أصمد لأثبت أننى رجل !

هذه هى أبعاد المعادلة المستحيلة التى أوقعت اسرائيل نفسها فيها ، وتصورت أو تمنت أنها ستخرج منها كالشعرة من العجين . فقد أحالت حرب الاستنزاف وجودها فى سيناء إلى جحيم نفسى ومادى لايحتمل ، ومع ذلك فقدت الجرأة على اتخاذ قرار الانسحاب لانقاذ ما يمكن انقاذه ، فماذا يمكن أن تقوله القيادة الاسرائيلية للشعب وهى تصدر قراراً بالانسحاب بعد كل هذه الخسائر ، خاصة فى الأرواح ؟! لقد وقعت باحتلالها سيناء فى مصيدة الموت التى لاتعرف كيف تخرج منها . ولذلك تنتهى القصة على النحو التالى:

ـــ هل ستسقط قنبلة ؟ لقد سمعت أن الموقع البديل على طريق الامدادات يمثل انتحاراً حقيقياً .

ـــ ماذا إذن ؟ هل سنظل هكذا للأبد ؟

ـــ هل جننت ؟

ـــ هل ننسحب ؟

ـــ هل جننت ؟

ـــ حرب جديدة اذن ؟

ـــ هل الموقف مجرد من الأمل إلى هذا الحد ؟

ـــ هل تعرف ماذا تريد ؟

ـــ كلا . . وأنت ؟

ـــ كلا . .

ـــ واحسرتاه على الأوز إذن . . هيا بنا نفتش

على الموقع الثانوى.

ـــ بوم !!

وتنتهى القصة بهذا الانفجار الذى لانعرف على وجه التحديد ما أحدثه من دمار فى الموقع، تماماً مثلما لايعرف الجنود الاسرائيليون ماذا يجرى لهم فى هذه الحرب العبثية التى لاتحمل أى معنى أو هدف يمكن الاقتناع به فضلاً عن اعتناقه كعقيدة.

أما قصة "الدب" للقاص أورى بن أرياه والتى نشرت فى صحيفة "هاآرتس" فى ٩ يونيو ١٩٧٠، فنجد فيها اعترافاً صريحاً بالدور البطولى الذى قام به الفدائيون المصريون فى حرب الاستنزاف، إذ نقلوا المعركة إلى الضفة الشرقية بين قوات العدو التى هوجمت حيث لم تتوقع الهجوم، ومزقت الألغام جنودها وعرباتها فى الحقول التى زرعها الفدائيون، ووقعت فى الكمائن التى نصبوها لها، فلم تقتصر مصادر الرعب على الانطلاق من الضفة الشرقية بل تفجرت كالبراكين من الضفة الغربية التى ظن الاسرائيليون أنها دانت لهم وأصبحت ملكاً لهم. يقول بطل قصة "الدب":

> **"أنظروا كم نحن أذكياء، إننا نقف هناك على القناة وسلاحنا مجهز وآذاننا صاغية، بينما هم يهاجموننا هنا من الخلف فى مكان لانتوقع منه الهجوم. إن الحرب خدعة، هذه هى القاعدة".**

هذه هى ملحمة الاستنزاف البطولية التى أثبت بها عبد الناصر أن مصر وإن كانت قد خسرت معركة، فإنها لم تخسر الحرب الممتدة بطول الصراع العربى الاسرائيلى. ولعل الملاحظة العجيبة والجديرة بالتسجيل أن ما كتبه أدباء اسرائيل عن حرب الاستنزاف فى أشعارهم وقصصهم أضخم بكثير مما كتبه أدباء مصر، مما يدل على أن عبد الناصر قد جعل من حرب الاستنزاف نشاطاً من الأنشطة الحضارية المتعددة التى كان يقوم بها سواء على مستوى

الجبهة العسكرية أو الجبهة المدنية الداخلية أو الجبهة السياسية الخارجية. فقد كانت الحياة فى مصر تسير سيرها المعتاد برغم استمرار حرب الاستنزاف لأن مصر بطاقاتها الضخمة قادرة على استيعاب شتى المظاهر والمشكلات وصهرها فى بوتقتها، والاستمرار فيها إلى آماد لايمكن أن تصل إليها اسرائيل. ولذلك كانت حرب الاستنزاف كابوس الليل والنهار الذى طارد الاسرائيليين وسمم حياتهم وسرى فيها بالحزن والكآبة واليأس والضياع، وكان من الطبيعى أن تنعكس هذه الروح المأسوية على مرآة الأدب الاسرائيلى بهذا العمق والوضوح.

الفصل الخامس

شهادة تاريخية

(١) الرئيس محمد حسنى مبارك

"أخذنا من حرب الاستنزاف خبرة قتالية كبيرة. بسببها ومن خلال معاركها قمنا بتطوير جيوشنا، ووحداتنا، وتسليحنا، ووسائل دفاعنا.

"كشفت لنا هذه الحرب، الكثير والكثير، من تفكير اسرائيل، من تكتيكاتها، وعمليات وأنواع الخداع العسكرى.

"إمكانيات اسرائيل الضخمة، والمتجددة والحديثة، التى وقفنا عليها، وأظهرتها حرب الاستنزاف، كانت الحافز والدافع، لمواجهة هذه الإمكانيات، وسد ما لدينا من ثغرات، وتجهيز الجيش واعداده لحرب أكتوبر.

"نستطيع أن نقول إن حرب أكتوبر بأدائها العظيم المتميز، كانت خلاصة خبرة قتال طويلة، وصعبة، من كل من حرب ١٩٦٧ - رغم الهزيمة - وحرب الاستنزاف".

جريدة الجمهورية ١٨ مايو ١٩٩٦.

(٢) الفريق أول محمد فوزى

"كانت حرب السنوات الثلاث مخططة منذ بدايتها لتكون بناء واعادة تنظيم واعداد القوات المسلحة والشعب لخوض معركة تحرير الأرض العربية. وكان فى التقدير تدخل العدو لعرقلة هذا البناء، فعندما قام العدو بأعمال استفزازية معادية مع تهديد مستمر، قامت قواتنا المسلحة بمواجهته وقتاله فى نفس الوقت الذى تمسكت فيه بهدفها الأساسى وهو الاستعداد لمعركة تحرير الأرض، الأمر الذى جعل من هذه الفترة تجربة مضنية وقاسية، أثبتت أنها نموذج رائع لانتصار الإرادة العربية المصرية.

"وكان التصادم العسكرى مع العدو واستمرار الاحتكاك به فى العمليات والمعارك التى أشرت إليها فى مذكراتى، فرصة عملية نادرة لرفع الكفاءة القتالية للجندى المقاتل والوحدة الصغرى فى جميع تشكيلات القوات المسلحة، والتى تمكنت فى نفس الوقت من معرفة أسلوب القتال للعدو وتكتيكاته. وبذا حرمته من أى ابتكار أو مفاجأة أو خداع قد يقوم به فى المعركة الكبرى المنتظرة. كما كان دوام الاتصال مع العدو طوال الثلاث سنوات أسلوباً مميزاً حقق لقواتنا معرفة قدرات العدو الحقيقية، كما هدم جدار الخوف من الجندى الاسرائيلى. وكانت عمليات المواجهة بالقتال عاملاً أساسياً فى إحداث خسائر كبيرة فى أفراده لم تحدث فى كل الحروب السابقة مما أثر على خفض معنوياته بل وجعلت القوات الاسرائيلية المتمركزة شرق القناة تتشكك فى

قدراتها وتخطيطها للدفاع عن أرض لاتملكها.

"لهذا سعت اسرائيل إلى قبول المشروع الأمريكي لوقف اطلاق النيران المؤقت فى أغسطس ١٩٧٠ أملاً فى تخليصها وقواتها المسلحة وشعبها من استنزاف قواها وانقاذ اقتصادها من الانهيار.

"وتنازلت اسرائيل عن أهدافها السياسية التى أصرت عليها عقب معركة ١٩٦٧ فى قبولها المفاوضة غير المباشرة مع دول المواجهة تحت اشراف دولى، بالاضافة إلى قبولها مبدأ الانسحاب المسبق على التسوية السلمية الشاملة".

"حرب الثلاث سنوات ١٩٦٧/١٩٧٠
مذكرات الفريق أول محمد فوزى"

(٣) المشير محمد عبد الغنى الجمسى

"لقد كانت حرب الاستنزاف التى شنتها مصر ضد إسرائيل.... ضرورة حيوية لقواتنا المسلحة، حيث أن الدراسة الموضوعية لحرب الاستنزاف على المستوى الاستراتيجى والتعبوى لايجب أن تقتصر على وقائعها وأحداثها، ولكن أهميتها تكمن فى الآثار البعيدة التى تركتها هذه الحرب... على أسلوب الاعداد والتخطيط لحرب أكتوبر ١٩٧٣، وعلى الأداء الكفء لقواتنا المسلحة فى تلك الحرب وكان سمة بارزة من سماتها".

"ومن هنا يمكننا القول إن حرب الاستنزاف... تعتبر هى المرحلة التحضيرية الحقيقية والعملية لحرب أكتوبر ١٩٧٣، فى ظل الظروف التى كانت سائدة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧" ص ١٨٦.

"لقد أثبت المخطط والمقاتل المصرى ذاته خلال مرحلة ما بعد الهزيمة، كما أثبتت حرب الاستنزاف أن قوة صمود مصر وعدم تزعزع إرادتها، وتمسكها بهدفها وهو تحرير الأرض، كانت من العناصر الرئيسية لاستعادة الثقة بعد أن كادت هزيمة يونيو تقضى عليها. ولاشك أن حرب الاستنزاف كانت عبئاً ثقيلاً على كل من مصر واسرائيل، ولكنها كانت أكثر فائدة لمصر وأكثر ضرراً لإسرائيل". ص ١٨٧.

"والسؤال الذى يطرح نفسه هو: وماذا كان البديل لو لم نقم بحرب الاستنزاف كجزء من الصراع المسلح بعد حرب يونيو ١٩٦٧؟

"البديل هو أن نترك السياسة تلعب دورها لحل المشكلة بالطرق الدبلوماسية والسياسية، وتقف القوات المسلحة سلبية فى انتظار النتائج، وهذا يعنى أن تستسلم مصر لشروط اسرائيل. ومن المعروف أن الحرب امتداد للسياسة بوسائل أخرى، لذلك يتحتم دعم العمل السياسى بالعمل العسكرى فى حدود قدرة قواتنا المسلحة فى ذلك الوقت. وكانت النتيجة ما أوضحه محمود رياض وزير الخارجية عن التأثير الإيجابى للعمل العسكرى على العمل السياسى.

"ولقد وضعت حرب الاستنزاف اسرائيل فى موقف صعب عسكرياً وسياسياً لايمكنها الخروج منه. فلم تكن اسرائيل قادرة على حسم الحرب لصالحها برغم تفوقها العسكرى، ولم تكن فى نفس الوقت راغبة فى الانسحاب من سيناء، ولذلك لم يكن أمامها إلا خوض الحرب مرغمة مع استمرار نزيف الدم فى خسائرها البشرية - وهى نقطة ضعفها الرئيسية - أمام تصميم مصر على الاستمرار فيها برغم خسائرنا البشرية والمادية.

"وعندما انتهت حرب الاستنزاف، كانت مصر قد حققت فوائد كثيرة ودروساً مستفادة ثمينة، وأصبحت الكفاءة القتالية للقوات الاسرائيلية كتاباً مقروءاً أمام قواتنا. ولعل من أبرزها أن اسرائيل اقتنعت بفشلها فى اسكات شبكة الدفاع الجوى، ولم يصبح للسلاح الجوى الاسرائيلى حرية العمل بتأثير

كما كان من قبل، ومن هنا عاد الجيش الاسرائيلى إلى مستوى كفاءته الحقيقية فى القتال. وفى نفس الوقت أصبحت قواتنا قادرة على العمل بحرية تحت حماية الدفاع الجوى بالتعاون مع القوات الجوية، عندما يصدر قرار الهجوم فى الوقت المناسب بالحرب الشاملة.

"وكان من الطبيعى أن تتحمل مصر الخسائر فى حرب الاستنزاف، وهو ثمن دفعناه على الطريق إلى حرب أكتوبر، كما دفعت اسرائيل ثمن بقائها فى سيناء حتى نشوب هذه الحرب.

"إنى أقول إن الوضع العسكرى والسياسى لمصر فى نهاية حرب الاستنزاف، كان أفضل من وضعنا فى بدايتها. وفى الحقيقة فإن توقف القتال فى ٨ أغسطس ١٩٧٠، لم يكن يعنى توقف عجلة الحرب، ولكنه كان بداية مرحلة جديدة استعداداً لحرب أكتوبر ١٩٧٣.

"وفى اسرائيل، اعترف قادتها بأن حرب الاستنزاف كانت ثقيلة عليهم بخسائرها، وأن الجيش الاسرائيلى خسر هذه الحرب، وأننا ـ فى مصر ـ استفدنا منها أكبر فائدة، وأن هذه الحرب عبدت لنا الطريق إلى حرب أكتوبر.

"فقد قال ايبان وزير خارجية اسرائيل فى اجتماع لحزب العمل يوم ٢٩ أغسطس ١٩٧٠: "إن خسائرنا فى الأفراد القتلى وفى المعدات الثمينة،

جعلت حرب الاستنزاف غالية التكاليف بالنسبة لنا. . . ولولا وقف اطلاق النار لواجهت اسرائيل تصاعداً فى الحرب مع مصر، وبالتالى زيادة القتلى والجرحى وتآكل التفوق الجوى الاسرائيلى".

"ونشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية فى سبتمبر ١٩٧١ حديثاً للعميد ماتى بيليد قال فيه "إن الجيش الاسرائيلى فشل من الناحية العسكرية فى حرب الاستنزاف، وهذه أول معركة يهزم فيها فى ساحة القتال منذ قيام الدولة، لدرجة أننا فى اسرائيل أمسكنا بأول قشة ألقيت إلينا وهى وقف القتال".

"وعبّر الجنرال ويزمان - وزير الدفاع فيما بعد - عن رأيه فى حرب الاستنزاف، كتب يقول فى مذكراته التى أعطاها اسم "على أجنحة النسور":

* عندما وافق المصريون على إيقاف النيران فى أغسطس ١٩٧٠، فسرنا ذلك بأنه اعتراف منهم بأنهم لم يتحملوا القصف أكثر من ذلك، ومع عدم التقليل من الخسائر التى تحملوها نتيجة لهجمات سلاحنا الجوى، فقد تحققت مخاوفى من أن حرب الاستنزاف التى أريقت فيها دماء أفضل جنودنا، انتهت بأن أصبح للمصريين حرية العمل لمدة ثلاث سنوات للتحضير لحرب أكتوبر، وعلى ذلك، فمن الجنون أن نقول إننا كسبنا حرب الاستنزاف، وبالعكس فإن المصريين - برغم خسائرهم - هم الذين استفادوا منها أكبر فائدة.

* فى الفترة من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٣ أخذ قادتنا (قادة اسرائيل) يرددون أننا كسبنا حرب الاستنزاف فأثروا على عقولنا، بدلاً من القول إننا فشلنا فى تدمير شبكة الدفاع الجوى المصرى، وعلينا أن نستعد للتغلب عليها لأنها ستلعب دوراً حاسماً فى الحرب القادمة، ولابد من ايجاد وسيلة لإسكاتها. وهكذا عشنا فى الأوهام بدلاً من مواجهة الحقائق.... قد نكون نجحنا فى رفع الروح المعنوية للشعب، ولكننا دفعنا الثمن غالياً.

* بينما كانت حرب الاستنزاف مستمرة دون أن يتمكن جيشنا من إيقافها، أصبحت تدريجياً - وليس كالآخرين - مقتنعاً بأنها المرة الأولى التى لم ننتصر فيها. لقد قلت مراراً إننا فشلنا فى هذه الحرب.

* سنظل نذكر أن حرب الاستنزاف هى الحرب الأولى التى لم تنتصر فيها اسرائيل، وهى حقيقة عبدت الطريق أمام المصريين لشن حرب يوم كيبور - حرب أكتوبر ١٩٧٣"

. ص ص ١٩٠ - ١٩١.

"مذكرات الجمسى: حرب أكتوبر ١٩٧٣:
المشير محمد عبد الغنى الجمسى"

(٤) الأستاذ أمين هويدى

"منذ اللحظة الأولى للهزيمة أوضح عبد الناصر أن الإرادة الذاتية هى العامل الفاصل لتحديد نتيجة المعركة. فالمعركة معركتنا، واللعبة لعبتنا، والأوراق أوراقنا، إن ١٠٠٪ من أوراق اللعبة فى يدنا ونحن لايجوز أن نتركها فى يد الغير. فليس معقولاً أن تكون ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى يد الولايات المتحدة مثلاً أو فى جيب الاتحاد السوفييتى! وإلا فأين الإرادة الذاتية للقيادة الواعية وللشعوب المكافحة؟!

"وانطلاقاً من هذا المبدأ السليم أخذ يعيد بناء القوات المسلحة...... وإلى جانب ذلك اتخذت عدة اجراءات لتقوية الإرادة الذاتية... منها:

* تهيئة مسرح العمليات الذى يتسع ليشمل كل أنحاء الجمهورية فى حرب لم تعد تعرف مواجهات بالمعنى المفهوم بعد أن كثف العدو غاراته فى العمق وانشئت الطرق والمطارات والموانئ التبادلية.

* بناء مخزون استراتيجى من المواد الاستراتيجية مثل المواد البترولية والغذائية ومواد تصنيع الأسلحة والذخائر.

* انشاء الجيش الشعبى لحراسة المنشآت فى منطقة خطوط المواصلات وزيادة كفاءة الدفاع المدنى لمواجهة الغارات المعادية.

* حشد الجهود العربية عن طريق المساعدات الاقتصادية العديدة واستغلال العمق العربى فى

إعادة التوزيع الاستراتيجى لقواتنا.

* اشعال جبهة القتال على قناة السويس، وفى داخل اسرائيل وبصفة تكاد تكون مستمرة.

* الاستمرار فى خطط التنمية بأقصى معدل ممكن".

"وكان عبد الناصر يركز اهتمامه على خط آخر هو "خط الأمر الواقع". وان كان "الخط الحرج" يتأثر "بالحرارة" فلابد من إشعاله وبصفة مستمرة حتى يقتنع العدو أن فرض الأمر الواقع خارج قدراته، وحتى يجبر الدولتين الأعظم على التدخل لاطفاء النيران المشتعلة حتى لاتمتد وتنتشر فتهدر مصالحها، وهنا تصبح المواجهة بينهما أمراً أكثر احتمالاً". ص ١٥٥.

"وكان لدى اسرائيل كل وسائل الردع خاصة "الذراع الطويلة" المتمثلة فى قواتها الجوية، خاصة بعد احتلالها لمطاراتنا فى سيناء، واصرار الولايات المتحدة على امدادها بكافة أنواع الطائرات الحديثة.

"وبالرغم من ذلك رفض عبد الناصر الاستسلام رغماً عن الغارات فى العمق التى كانت توجه إلى أغراضنا المدنية، وبذلك فقد كسر أخطر مبدأ فى مبادئ الردع هو التأثير النفسى، وأخذ يشن حرب الاستنزاف، ومعها تضرب الوحدات الفدائية داخل اسرائيل. وأعود فأنقل من صفحة ٣٤٩ من كتاب "سنوات البيت الأبيض" لهنرى كيسنجر إذ يقول:

"فى فبراير ١٩٦٩ أبلغتنا المصادر الاسرائيلية أن ١٢٨٨ حادث تخريب وارهاب تمت منذ حرب الأيام الستة..... وكانت خسائر الاسرائيليين هى ٢٣٤ قتيلاً، و٢٦٥ جريحاً من العسكريين، ٣٧ قتلى، ٣٣٠ جرحى من المدنيين. وهذه نسبة مخيفة لدولة تعدادها ٢,٥ مليون، وهى تساوى ٢٠٠,٠٠٠ قتيل، ١٠٠,٠٠٠ جريح لدولة فى حجم الولايات المتحدة". بل نجد أن هاعولام هازيه نشرت فى العدد ١٦٤٠ بتاريخ ١٩٦٩/٣/٢٦ خطاباً أرسلته احدى القارئات إلى رئيس التحرير تقول فيه: "نحن نريد مزيداً من الأرض". وقد نشرت المجلة ردها على الرسالة بلسان أحد الجنود الاسرائيليين ليقول: لو كنت تجلسين فى المناطق المحتلة، وتفقدين أصدقاءك القريبين الذين يموتون كل يوم بواسطة لغم أو بواسطة الطلقات أو بغير ذلك ما طالبت باحتلال المزيد من الأرض". ص ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

"استغل عبد الناصر الفترة غير المستقرة بعد قبوله مبادرة روجرز عام ١٩٧٠ لنقل حائط الصواريخ قريباً من القناة بحيث تحمى قواتنا على الضفة الغربية وفى الوقت نفسه تستر وتغطى أى عملية عبور فى المستقبل إلى الضفة الشرقية.

"وقد تم عبور ١٩٧٣ تحت ستار حائط صواريخ عبد الناصر الذى أنشأه عام ١٩٧٠ ولم تتمكن قواتنا من التقدم خطوة واحدة أبعد من مدى حماية هذه

الصواريخ بالرغم من أنه كان من الممكن استخدام وسائل أخرى.

"ولنرجع مرة أخرى إلى هنرى كيسنجر فى كتابه "سنوات البيت الأبيض" لنجده يقول: "فى ١٥ أغسطس ١٩٧٠ قابلنى اسحاق رابين وأكد أن ١٤ موقع صواريخ سام ٢ معززة بثلاثة مواقع صواريخ سام ٣ حركت فى المنطقة العازلة وأن اسرائيل فقدت ٥ طائرات فانتوم فى يوم واحد" ثم يقول: "استخدم عبد الناصر مبادرة روجرز لتحريك صواريخه للأمام، وأصبحت هذه الصواريخ لاتوفر الحماية للقوات المصرية فى القناة فحسب بل أصبحت قادرة على حماية أى عملية انزال مصرية على الجانب الآخر. وقد انتهز عبد الناصر فترة ايقاف النيران لأن الصواريخ ستكون مؤمنة ضد الضرب". ص ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

"كانت خطط العبور تجهز فى سرية وتكتم، ويجرى عليها التعديلات بين وقت وآخر على حسب تطور التقدم فى التسليح والتدريب وتجهيز مسارح العمليات. كان الغرض هو العبور ثم الوصول فى مرحلة واحدة إلى مناطق الممرات، وكان الاسم الكودى للخطة هو "جرانيت". وكتجارب ابتدائية للتنفيذ أخذت قواتنا تعبر إلى البر الشرقى فى وحدات صغيرة فى أول الأمر، ثم زاد حجمها إلى "سرايا بأسلحة معاونة" لتدمير العدو والحصول على معلومات عن دفاعاته والقبض على الأسرى.

"وقد قامت المخابرات العامة بتصوير خط "بارليف" بحيث اتضحت معالمه تماماً، وقامت فى الوقت نفسه باتمام دراسة مستفيضة عن الأعياد الاسرائيلية لاختيار احداها لبدء الهجوم اذا رؤى ذلك، كما قامت باجراء دراسات مستفيضة عن كافة الأهداف الاستراتيجية داخل اسرائيل وكيفية التعامل معها، ووضعت كل ذلك على الخرائط وتخت الرمل، بل عملت ماكيتات من الخشب والورق المقوى للأغراض ذات الأهمية الخاصة. وفى الوقت نفسه قامت المخابرات الحربية بدفع دورياتها بعيدة المدى خلف خطوط العدو فى سيناء لتبقى هناك أياماً قصيرة أو طويلة حسب الواجبات المنوطة بها.

"كان عبد الناصر فى لعبته الكبيرة يستعد "للمعركة الكبرى" اذا فشلت وسائله الأخرى فى تحقيق الجلاء عن أراضينا. وتعمدت ألا أقول "القتال" لأنه لم يتوقف يوماً واحداً إلا بعد قبولنا لمبادرة روجرز". ص ص ١٦٢-١٦٣.

كتاب "مع عبد الناصر": أمين هويدى

(٥) اللواء طه المجدوب

"كانت حرب الاستنزاف بكل متاعبها وآلامها، بمثابة مرحلة المخاض التى لابد أن تواكب المولد الجديد للقوات المسلحة المصرية. تلك المرحلة التى خففت عن نفس المقاتل عبء الهزيمة، وغرست بذوراً جديدة كانت ثمارها هى الأداء البطولى المتقن، الذى ظهر به المقاتل المصرى فى أكتوبر ١٩٧٣. لقد كانت حرب الاستنزاف هى البوتقة التى أعادت صهر هذا المقاتل لتصقل خبراته وتعالج جروحه النفسية، وتزيل الآثار المعنوية التى أصابته، وتشحذ همته فكراً وعملاً. وهى رغم ضراوتها، ورغم الخسائر المادية التى لحقت بالمجالين العسكرى والاقتصادى، والخسائر البشرية التى تحملتها مصر شعباً وجيشاً، فإن ما حققته من نتائج ايجابية عظيمة كانت تستحق كل هذه التضحيات. إنها الثمن الذى دفعته مصر لتهدم حاجز الخوف وآثار النكسة. وتمهد الطريق نحو النجاح والنصر الذى تحقق فى أكتوبر ٧٣ خاصة فيما يتعلق بالجوانب التالية:

أولاً ـ الجانب المعنوى: لقد بعثت حرب الاستنزاف الثقة فى نفس الجندى المصرى، الثقة فى سلاحه وقياداته، وفى قدرته على مواجهة عدوه وقتاله وقتله ومطاردته وأسره ومحو خرافة "الذى لا يقهر". كانت هذه المواجهة المباشرة بين المقاتل المصرى وعدوه ـ والتى حدثت لأول مرة فى حرب الاستنزاف ـ أمراً ضرورياً وحتمياً لكى يتعرف

المقاتل المصرى على حقيقة عدوه وأسلوب قتاله، ويتأكد بنفسه من زيف الأساطير المحيطة به بعد أن واجهه وقهره. هكذا أمكن صقل المقاتل المصرى وتطوير قدراته القتالية وتنمية روحه الهجومية ودعم معنوياته.

"كل هذه الأمور انعكست إيجابياً على أدائه القتالى عندما اشتعلت الحرب فى أكتوبر ٧٣، فواجهت اسرائيل نوعية مختلفة من المقاتلين، حتى أن القيادات العسكرية الاسرائيلية صدمت بالمستوى الرفيع للأداء القتالى للجندى المصرى، واعتبرته "المفاجأة الكبرى" لهذه الحرب. فماذا قال قادة اسرائيل عن الجندى المصرى؟

"قال دافيد آليعازر رئيس الأركان الاسرائيلى: "لقد ارتكبت القيادة الاسرائيلية خطأ استراتيجياً فادحاً، عندما لم تعط المقاتل المصرى حقه فى تقديراتها. لقد كلفها هذا الخطأ ثمناً باهظاً. وكان فعلاً المفاجأة الكبرى فى حرب أكتوبر".

"أما أريل شارون كبير الصقور وصاحب المذابح فقد قال: "فى رأيى الشخصى أن المفاجأة الكبرى فى حرب عيد الغفران كانت شيئاً جديداً علينا تماماً. كانت هى "الجندى المصرى الجديد. لقد كنا فى حالة من الذهول لأداء هذا الجندى".

"تلك كانت شهادة قادتهم. ونحن نقول إن الفضل فى حدوث هذا التغيير الذى أذهل شارون وغيره،

يرجع إلى حرب الاستنزاف بداية، ثم للتدريب المعنوى والعملى الشاق بعد ذلك.

ثانياً ـ التطعيم القتالى: لاشك أن السنوات الصعبة التى واجهها المقاتل المصرى فى جبهة القتال أثناء مرحلة الاستنزاف قد علمته الكثير، إذ صقلت قدراته، ونمت خبراته، وعاش سنوات تحت النيران، سواء من قذائف المدفعية أو قنابل الطائرات، كما عبر القناة ليلاً ونهاراً، ونصب الكمائن، وهاجم الدفاعات، ودمر التحصينات، وواجه الغارات الجوية الكثيفة. كل ذلك كان تطعيماً عملياً واقعياً للمعركة المقبلة. وعندما خاض حرب أكتوبر كان يعلم ما الذى سيواجهه واستعد له. كان قد تعلم أن يتحمل مشاق القتال ويعيش بين أهوال الحرب. ونتيجة لهذه الخبرات التى صقلت معدنه، اقتحم القناة باقتدار تحت أصعب الظروف فكان المفاجأة الكبرى للعدو والصديق بل وللعالم أجمع.

ثالثاً ـ جانب التسليح:

أتاحت حرب الاستنزاف لمصر فرصاً كثيرة فى مجال تطوير تسليح قواتها فى البر والبحر والجو، لمواجهة ماكشفت عنه متطلبات القتال أثناء حرب الاستنزاف. وفى ضوء ما حدث من تطورات عسكرية للحرب بدءاً من التراشق بالأسلحة الصغيرة، مروراً برشقات المدفعية المركزة، وصولاً إلى الهجمات الجوية. هكذا أجبرت حرب الاستنزاف اسرائيل على أن تدفع للمعركة معظم ما

فى جعبتها من أحدث الأسلحة والمعدات، خاصة فى مجال الحرب الجوية والحرب الالكترونية، الأمر الذى أتاح لمصر فرصة مواجهة هذه الأسلحة والتعامل معها بنجاح كبير أثناء حرب أكتوبر.

"ولاشك أن أعظم ما حققته مصر نتيجة لحرب الاستنزاف، والذى ما كان سيتحقق على هذا المستوى لولا حرب الاستنزاف هو نجاحها الكبير فى اقامة نظام متكامل للدفاع الجوى يحمى أراضى مصر، ويغلق سماواتها أمام أحدث طائرات اسرائيل، من خلال شبكة ضخمة من الصواريخ المضادة للطائرات، والمعاونة مع طائرات الدفاع الجوى بقواتنا الجوية، الأمر الذى أدى إلى تحييد التفوق الجوى الاسرائيلى فى حرب أكتوبر، فلم يحدث أى اختراق للعمق أو لجبهة القتال".

طه المجدوب: رؤية استراتيجية

"الأهرام" ٢٦ مايو ١٩٩٦.

(٦) الأستاذ محمود رياض

"لقد تميز الصراع كله خلال سنة ٦٩/١٩٧٠ بعلامتين بارزتين:حرب الاستنزاف ، والاقتراب إلى أدنى نقطة ممكنة من التسوية الشاملة كأسلوب صحيح لتحقيق السلام.

"بالنسبة لحرب الاستنزاف كانت الخسائر الاسرائيلية فادحة، وكانت التقارير العسكرية والمعلومات التى تصلنى عن طريق بعض المصادر الغربية تشير إلى نجاح حرب الاستنزاف فى تحقيق هدفها.

"وقد سجل إيبان وزير خارجية اسرائيل فى ذلك الوقت: "إن وقف إطلاق النار قد تم استقباله فى اسرائيل بشعور من الرضا. وحينما أعلنت مسز مائير فى التليفزيون عن وقف إطلاق النار ، فإن رد الفعل الشعبى كان يتساوى مع لو كنا قد توصلنا إلى تسوية سلمية. فنشرات الأخبار لن تبدأ بالصوت الحزين لمذيع الراديو ، وهو يذيع أسماء الشباب الاسرائيلى الذى سقط فى المعركة. إن خسائرنا فى الأفراد القتلى وفى المعدات الثمينة قد جعلت حرب الاستنزاف غالية التكاليف بالنسبة لنا....."

"مذكرات محمود رياض" (١٩٤٨ - ١٩٧٨)
ص ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٧) الأستاذ محمد حسنين هيكل

"فى الزيارة السرية التى قام بها جمال عبد الناصر لموسكو فى بداية سنة ١٩٧٠، وهى الزيارة التى زاد بعدها تواجد السوفييت فى مصر بحكم قبولهم لمسئوليات الدفاع عن العمق - كان جمال عبد الناصر يعرف مايريده، وقد حصل:

"كان جمال عبد الناصر يريد أن يحمى الجبهة ببطاريات الصواريخ المصرية، ولكن تركيزها جميعاً إلى الجبهة يترك العمق مكشوفاً أمام الغارات الاسرائيلية التى بدأت تستبيح سماوات مصر بطائرات الفانتوم، وكان اشتراك السوفييت فى الدفاع عن العمق - حتى يتم تدريب أطقم مصرية كافية على الصواريخ الجديدة من طراز "سام ٦" حلاً وحيداً للمشكلة، وبغيره لم يكن هناك مفر من بعثرة طاقة مصر الصاروخية بين الدفاع عن الجبهة والدفاع عن العمق، والتأخر فى استيعاب صواريخ "سام ٦" المضادة للطيران المنخفض.

"وكان بريجنيف يعارض بشدة لأن اشتراك السوفييت فى هذه العملية يؤثر على الموازين الدولية، ويهدد الوفاق. وكان ذلك مطلباً من مطالب جمال عبد الناصر التى لم يصرح بها لمعارضيه، فقد كان يريد أن يؤثر على الموازين الدولية، كما كان يريد تعطيل حركة الوفاق حتى تتحرك أزمة الشرق الأوسط. وسارت الحوادث فى الطريق الذى رسمه جمال عبد الناصر:

• توقفت غارات العمق عندما أحس

الاسرائيليون يوم الغارة على الفيوم - ١٨ ابريل - بوجود السوفييت.

* تحركت الولايات المتحدة وبعثت جوزيف سيسكو إلى القاهرة لاستطلاع رأى جمال عبد الناصر.

* توترت العلاقات بين القوتين العظميين.

* تقدمت الولايات المتحدة بمبادرة روجرز التى أشارت لأول مرة إلى الإنسحاب من الأراضى العربية، على أساس قرار مجلس الأمن.

* استطاع جمال عبد الناصر إتمام بناء حائط الصواريخ الذى كان عاملاً حاسماً فى نجاح عبور قناة السويس بعد ذلك فى أكتوبر ١٩٧٣.

* أمكن إعداد بطاريات مصرية مدربة على صواريخ "سام ٦".

"تبقى نقطة هامة، ربما لايعرفها كثيرون:

وهذه النقطة هى أن بريجنيف رجا جمال عبد الناصر أن يتم سحب الخبراء السوفييت المسئولين عن الدفاع عن العمق - قبل بدء المعركة - لأن وجودهم وقتها قد يثير تعقيدات لاحدود لها.

"وافق جمال عبد الناصر. وهكذا فإن سحب هؤلاء الخبراء قبل المعركة كان أمراً متفقاً عليه فى اجتماع موسكو فى أوائل سنة ١٩٧٠.

"أقول ذلك وقد كنت بنفسى واحداً من شهود هذا

الاجتماع، وكنت رابع أربعة من المصريين حضروا الاجتماع النهائى لهذه المحادثات، وقد حضرها كل أعضاء المكتب السياسى السوفييتى وكل ماريشالات الاتحاد السوفيتى، وكان المصريون الأربعة هم: جمال عبد الناصر، والفريق محمد فوزى، والدكتور مراد غالب، وأنا.

"كان جمال عبد الناصر طول الوقت، وفى تلك الفترة الحرجة، شديد الحساسية لأى تجاوز يمكن أن يمس من قريب أو بعيد، فى الشكل أو المضمون، باستقلال مصر وحرية إرادتها:

* حين جاء الرئيس نيكولاى بادجورنى لمقابلة عبد الناصر فى شهر يونيو ١٩٦٧، والنكسة بعد تنزف جراحها، أحس جمال عبد الناصر أن بادجورنى يطلب إنشاء مركز مستقل للأسطول السوفييتى فى الإسكندرية، ووجه جمال عبد الناصر كلامه إلى بادجورنى على الناحية المقابلة له من مائدة المحادثات، وقال له بهدوء وحزم:

— تسهيلات للأسطول السوفييتى، نعم.... ولكن مركزاً مستقلاً، لا.... معناها أننى أقبل قاعدة سوفييتية فى الإسكندرية، حتى ولو كان هذا المركز مبنى واحداً من حجرة واحدة!.

* وفى مرة أخرى فى زيارة يوليو ١٩٧٠، دارت مناقشة أمامى بين بريجنيف وعبد الناصر. كان عبد الناصر يطلب خبراء سوفييت، وكان

بريجنيف متردداً، ثم قال بريجنيف ضمن ما قاله من حجج:

— إننى أخشى أن يستغل وجود عدد من الخبراء السوفييت فى مصر وأن يقول بعضهم إن وجودهم نوع من الضغط أو التدخل فى شئون مصر.

وقال جمال عبد الناصر ببساطة:

— إننى أنا الذى أطلبهم بنفسى... وإذا أحسست فى يوم من الأيام أن وجودهم يشكل نوعاً من الضغط، أو احتمالاً بتدخل منكم فى شئوننا الداخلية، فلن أتورع عن أن أطلب إلى الفريق فوزى أن يجمعهم كلهم على باخرة واحدة فى الإسكندرية ويشحنهم إليك بطريق البحر إلى "أوديسا".

"ولم أنس حتى الآن تعبير الدهشة المرتسم على وجه بريجنيف.

* ثم مسألة أخرى لايصح أن تغيب عن بال أحد، تلك هى أن جمال عبد الناصر رفض باستمرار عقد معاهدة مع الاتحاد السوفييتى. وكان قوله لبادجورنى يوماً بالحرف:

— إننى على استعداد لعقد معاهدة معكم بشرط وحد هو أن تحاربوا معنا جنباً إلى جنب.... إذا فعلتم ذلك أوقع معاهدة، وإذا لم تفعلوه - ولم تكونوا على استعداد له - فما بيننا الآن يكفى".

ص ص ١٨٠ - ١٨٣.

"إن جمال عبد الناصر كتاريخ ملك أجيال قادمة تتاح لها الحقائق كلها، وتخلو نظرتها إلى الوقائع من انفعالات لحظة بعينها، سواء سادها الفرح أو سادها الحزن.

"وكانت تلك على سبيل المثال - ومع اختلاف الظروف - قصة نابليون مع فرنسا. لقد مات نابليون والهزيمة من حوله، ومات فى المنفى تحت ذل أعدائه. ومضت سنوات وسنوات. وعادت إليه فرنسا تضعه فى رأس القائمة من زعمائها الخالدين.

"وأتذكر أديب فرنسا الكبير أندريه مالرو وهو يعقد هذه المقارنة بين نابليون وعبد الناصر ونحن معاً ذات يوم على مائدة غداء فى مطعم "لاسير" بباريس، وقال لى مالرو:

— ليست المسألة هى النصر العسكرى أو الهزيمة.. المسألة هى إرادة الأمة وتقديرها للبطل حين تجد نفسها فيه. ولقد وجدت أمتكم نفسها فى عبد الناصر بمقدار ما وجدت أمتنا نفسها فى نابليون مع اختلاف الظروف، وهذا هو الذى يبقى، وغيره تكنسه الأيام" ص ص ١٩١-١٩٢.

محمد حسنين هيكل: كتاب

"لمصر.. لا لعبد الناصر".

